g



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ـ وزارة الثقافة العراقية لسنة ٢٠١٥ - ٢٤٤٤

مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda

رقم استدعاء مكتبة الكونجرس: BP 220.5 .K3208 2015

المؤلف الشخصي: الكعبي، زين العابدين عبدعلي

العنوان: آيات عتاب الانبياء عليهم السلام في القرآن الكريم: دراسة تحليلية

بيانات الطبعة: الطبعة الأولى

بيانات النشر: كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والبحوث الاسلامية ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م

الوصف المادي: ٢٧٠ ورقة؛ ٣٠ سم

سلسلة النشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية؛ (١٦٦)

تبصرة عامة: الكتاب في الاصل رسالة ماجستير.

تبصرة ببليوغرافية: يحتوي على هوامش - لائحة المصادر (الصفحات ٢٥١ - ٢٦٣).

مصطلح موضوعي: الانبياء - العصمة - دراسة وتعريف.

مصطلح موضوعي: العصمة - من الناحية القرآنية.

مصطلح موضوعي: العصمة - أحاديث.

مصطلح موضوعي: الانبياء - العصمة - شبهات وردود.

مصطلح موضوعي: العصمة - (اسلام) - الاحاديث الموضوعة

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة



- دراسة تحليلية -

زين العابدين عبد علي الكعبي

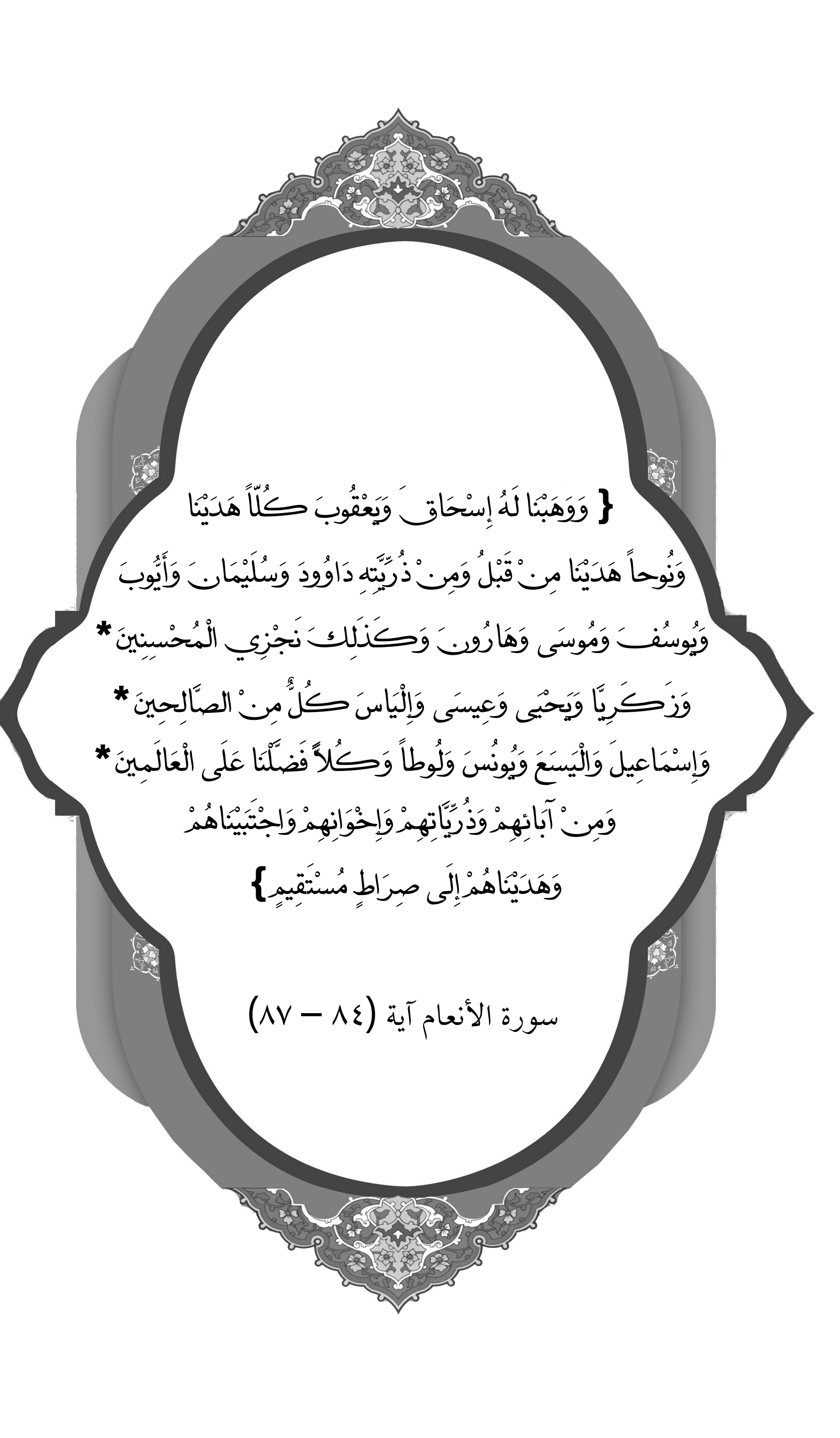
إصدار
شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية
في قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة

طُبِعَ برعاية
العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م



العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية - هاتف: ٣٢٦٤٩٩
www.imamhussain-lib.com
E-mail: info@imamhussain-lib.com



{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

سورة الأنعام آية (٨٤ – ٨٧)



الإهداء

إلى من سهرا على تربيتي وتعليمي،

وتمنّيا لي سبيل المعرفة والعلم، وسهلاّ لي طُرقه

إلى روح أبي وأمي (طيب الله ثراهما)

أهدي جهدي المتواضع هذا

الباحث

المقدمة

من الموضوعات المهمة والحساسة التي طالما دار الحوار حولها موضوع عصمة الأنبياء الملازمةُ لنفي كل ما من شأنه أنَّ يطعن من خلاله بشخص النَّبي أو سلامته الفكرية والعقدية وتكاملهُ الأخلاقي في مطلق شؤون حياته وذلك، لأن هذا الموضوع - أعني العصمة - يتصل بالمصدر الثاني الذي يبني عليه الإنسان دينه وعقيدته، ويسيّر عليه شؤون حياته جميعها، وهو «النبوة» والاختلاف حول هذا الموضوع الذي يعد من أصول الدين عند كل الموحدين ينتج عنه اختلاف واسع في التفريعات الناشئة عن هذا الأصل.

والباحث في موضوع النبوة يجد أنَّ هناك خلافاً بين المسلمين في هذا الموضوع يظهر بشكله الواضح حين يدور الحديث حول عصمة الأنبياء عليهم السلام.

الأمر الذي دعا إلى ذلك هو أنَّ جماعة مخطئة استغلت بعض الآيات ذريعة للأنبياء إذ تمسكوا بظاهرِ بعضها الذي يمسُّ على وفق تطبيقهم بِعصمة الأنبياء عليهم السلام من آدم حتى نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فتطاولوا وتجاوزوا في المس بالأنبياء عليهم السلام والقول إنّهُ قد ورد في حقهم اللوم والعتاب والتوبيخ... إلخ وزعموا أنّ العتاب الذي له المساس المباشر بالأدلة على

خلاف عصمة الأنبياء عليهم السلام يتخذ درجات متفاوتة في الشدة أو اللين بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين جوّزوا على الأنبياء عليهم السلام ارتكاب بعض الذنوب والمعاصي، ونجد كتبهم التي عُنيت بهذه الموضوعات تزخر بتلك الشُبَه، فتارة ينطلقون من التوبة وأخرى من الاستغفار وثالثة من الإنابة ويزعمون أنَّ الأنبياء في هذه المواقف وغيرها حصل منهم ما يجعلهم كغيرهم من البشر يخطئون ويذنبون ويتوبون ثم أنّهم يعاتبون كما يعاتب سائر الناس.

وانطلاقاً من واجب الدفاع عن عصمة الأنبياء عليهم السلام وعموم رسالاتهم الخالدات وكمال نفوسهم الشريفة أجد لزاماً عليَّ في دراستي هذه أنَّ أدفع عنهم قدر ما يسعفني جهدي وما تحمله جعبتي أنواع الشبه كلها عند من تأول وأثبت وقوع ألوان اللوم والعتاب الوارد في حقهم كما زعمه أولئك المخطئون من خلال جمودهم على ظواهر النص وتوظيفها بما يعضّد دعوتهم وزعمهم لهم وسيأتي في أثناء البحث تفصيل ذلك سائلاً المولى القدير أنَّ يتقبل هذا الجهد الطيّب إنّهُ نِعْم المعين.

ولقد خصصنا عدداً من الأنبياء عليهم السلام وليس جميعهم مراعاة الضرورة الموضوعية والزمانية واختيار الحالات التي تمثل قواسم مشتركة ودلالات متشابه، واكتفت الدراسة باستقراء آراء المذاهب الكبرى المنضبطة في فهمها لموارد الدلالات في الآيات الكريمات موضوعة الدراسة واضطرنا إلى استبعاد التوسع في عرض آراء المناهج الأُخَر تحاشياً للإطالة ليشكل كل ذلك محاولة ربما خذلتها الأدوات وربما قصرت بها الاستعدادات الشخصية المحددة جاءت الدراسة موسومة بـ((آيات عتاب الأنبياء في القرآن الكريم دراسة تحليلية)).

على أنَّ الأسباب التي دعت الباحث لاختيار هذا الموضوع أهميته الكبيرة واستعيابه لقضايا حساسة تكاد تكون متجددة في سماء الفكر والعقيدة، ولأنه جاءَ على حد علمي جديداً في عرضه إذ لم نجد بحسب حدود الإطلاع أنّ هناك من كتب فيه بشكل متخصص، وندرة ما كتب في ملامحه العامة بشكل متفرق في أثناء كتب التفسير وعلم الكلام، لذا نرى أنّه سيكون بكراً في عرضه ومادته، زيادة على كثرة الشبهات التي أثيرت من بعض الكُتَّاب المعاصرين وغيرهم ممن سبقهم عن مسيرة الأنبياء عليهم السلام، وخاصة فيما يتعلق بفهم الآيات التي وردت مورد الدراسة والجدل إذ تسللوا في خلالها إلى محاولة الإخلال بعصمة الأنبياء عليهم السلام، وهو أمر يدعو إلى الوقفة والتأمل تجاه هذه الآراء ومحاولة فحصها والتعامل معها من منطلق الدفاع عن الأنبياء عليهم السلام بما هو حق.

ومن الصعوبات التي واجهت الدراسة، خصوصية موضوعتها إذ لم يتّخذ سياقاً علمياً محدداً، ولم يكن مختصاً بعلم بذاته وإنما أخذ سياقاً متنوعاً في دلالته ومضامينه فكان قرآنياً من جانب، وكلامياً من جانب آخر، كما استوجب لمحةً تاريخيةً، وأخرى حديثية، وهو أمر دعا إلى تنوع مصادر البحث ومراجعه إذ شملت مصادر تفسير القرآن الكريم، والكلام والعقيدة ومصادر اللغة والفقه والأصول والتأريخ الأمر الذي أضفى على البحث حسنة التنوع على الرُّغم من تحمل المعاناة.

وقد جاء البحث منتظماً في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة. فكان الفصل الأول محاولة للكشف عن دلالات العتاب ومعانيه في لغة العرب وفي ضوء المنهج القرآني في توظيف المفردة وقد انقسم الفصل على ثلاثة مباحث.

وجاء الفصل الثاني على ثلاثة مباحث أيضاً فعالج عرض نماذج من الآيات التي وردت مورد (العتاب) للأنبياء والرسل عليهم السلام ومحاولة بيان مضامينها ودلالاتها.

أما بحث الفصل الثالث فيدرس قضية العصمة بكون ارتباطها بـ(العتاب) المدعى مع عرض نماذج من الآيات التي تمسك بها المخطئة وبنوا عليها دعوتهم وزعمهم وحاولوا البحث في توجيهها على ضوء المنهج الحق القائل بالعصمة المطلقة وفي مقابلهم المنهج القائل بالعصمة الجزئية في أسلوب عرض تحليلي لتخلص الدراسة بخاتمة حاولت أنَّ تلم شتات الموضوع وتلمس أهم النتائج المتحصلة من الخوض في عباب مناهج المفسرين ومحاولات المتكلمين في فهمه.

ولا يسعني إلا أنَّ أتقدم بخالص شكري وامتناني إلى كلّ من قدّم إلى الدراسة ولو بكلمة.

وختاماً نسأل الله تعالى أنَّ تكون الدراسة قد وفقت في أنَّ تأتي بجديد أو مفيد، وأن تكون جلوت ما لم يكن قد أخذ حقه من الظهور، وأن تكون في ذلك كله قد أخلصت النية، ونأيت بالنفس عن الأهواء وتجردت عن كل ما لا يليق بالبحث الموضوعي، وعليه فأدعوا أدعو الله القدير أنَّ يوفقني إلى الاستمرار في مسيرة العلم لما يعود بالنفع والفلاح وأداء الواجب تجاه ديننا الحنيف والله من وراء القصد وآخر دعوانا أنَّ الحمد لله رب العالمين.

الباحث



دلالات العتاب في اللغة والاستعمال القرآني والتراث الإسلامي

المبحث الأول: العتاب ومرادفاته في لغة العرب

المبحث الثاني: دلالات العتاب في ضوء المنهج القرآني

المبحث الثالث: صيغ العتاب ومرادفاته في القصص القرآني والحديث الشريف

تمهيد

ليس سهلاً أنْ يَضَع الباحث يده على بغيته في المعجمات اللغوية وهو يتحرى المدلول اللغوي لـ(لفظة) ما؛ وذلك لأسباب منها: (١) كثرة المعاني المتراكمة لكلّ جذرٍ لغويّ، (٢) وكثرة ما أُلّفَ في لغة العرب من المعجمات اللغوية، (٣) اختلاف مناهج مؤلفي هذه المعجمات، فلا مندوحة – إذن – من الوقوف على بعض تلك المعجمات المعتمدة سبيلاً لجلاء المعنى وإدراك مدلول اللفظة في إطار وحدة الكلام، وهذا ما سعت الدراسة إليه.

إن المفردة – آية مفردة – لها معنىً مركزي (مُعجمي) هو المعنى الأوليّ بيد أنّ السياق يحملّ اللفظة معاني هامشيةً تتضمن من المعنى المركزي (الأصلي) وهذه المعاني الهامشية قد تكون متحركة وقابلة للتفاعل مع القراءات والتأويل لذا فهي متغيرة مُتجددة على وفق السياقات التي احتوتها، فالسياق – إذن – يقود المفردة إلى معانٍ هامشيةٍ مضافةٍ إلى المعنى المركزي.

فالمفردة – تبعاً لذلك – لم تقف عند معناها الأوليّ فقد تحلّق في آفاقٍ واسعةٍ من المعاني الفرعية – إن جاز التعبير.

ومعروف عندنا أنّ المعجمات – غالباً – ما تُشير إلى المعاني المركزية –

المعيارية – الثابتة وقد تشير إلى التطور الدلالي الذي يطرأ على اللفظة، أما المعاني السياقية والهامشية فلا نجدها بكثرة في متون المعجمات؛ لأنّ المعجمات مبنيّة ومؤلفة على أساس جذر المفردة وتقلباته وليس على أساس الجملة ودلالتها.

ونظرة عجلى إلى أمهات المعجمات العربية، كالعين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ)، وتهذيب اللغة للأزهري (ت ٣٧٠ هـ)، والمحكم لابن سيده (ت ٤٥٨ هـ)، والصحاح للجوهري (ت ٣٩٣ هـ)، ولسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ)، وتاج العروس للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ)، تطلعنا على المعاني المركزية للمفردات وما يطرأ عليها من تطور دلالي في سياق النصوص التي أوردها مؤلفو تلك المعجمات.

وفي هذا الفصل نقفُ مُطولاً عند المعاني والدلالات اللغوية للفظة (عتاب) موضوعة الدراسة بغية استقرائها وتحري الدلالات السياقية، فضلاً عن دلالاتها القاموسية المركزية، ليكون هذا الفصل منطلقاً للدراسة، وسانداً في كشف الدلالات المتعلقة بموضوعها التي قيدنا أنفسنا بها (آيات عتاب الأنبياء في القرآن الكريم – دراسة تحليلية).

المبحث الأول: العتاب ومرادفاته في لغة العرب

أولاً: العتاب والتأصيل اللغوي

يرجع العتاب في أصله اللغوي إلى الجذر الثلاثي (ع، ت، ب)[1]. ولما كان الجذر اللغوي وهو الأحرف الأساس التي تتكون منها مجموعة الألفاظ يشترك في أسس دلالية واحدة، لأنه حال الكلمة قبل التركيب فلابّد أنَّ نتابع هذا الجذر اللغوي للوقوف على التأصيل اللغوي لهذه المفردة.

و«عَتَبَ» الفحلُ يعتبُ عتباً وعتاباً وتعتاباً: خَلع أو عُقلِ أو عُقر فمشى على ثلاث قوائم كأنه يقفز قفزاً[2]، وعتب العُوْدُ ما عليه أطراف الأوتار من مقدّمه[3]، وعتب البرق عتاباً: بَرَقَ برْقاً ولاءً[4] والعتبُ يشير إلى ما دخل في الأمر

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري (ت٧١١ هـ) لسان العرب، مادة (عتب) ١: دار صادر بيروت ١٩٨٦، ظ: الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، مادة (عتب) ٥٩٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) المصدر نفسه: مادة (عتب) ظ: العين: مادة (عتب).

(٣) المصدر نفسه: مادة (عتب).

(٤) المصدر نفسه: مادة (عتب).

من فساد[١]، وقال الشاعر[٢]:

أعددت للأمر صارماً   مُجرب الوقع غير ذي عَتَب

ويأتي العتبُ بمعنى (الالتواء) و(النَبوْةَ) و(العيب)[٣] ومن معانيه اللغوية (التجّني)، فالعتب هو (التجنيّ) تعتّب عليه وتجني عليه بمعنى واحد، وتعتب عليه أي وجد عليه[٤] وهو بمعنى (الموجدة).

عتب عليه يعتب ويعتب وعتاباً ومعتبة ومعتباً أي وجد عليه، ويستشهد ابن منظور على هذا المعنى بقول الغطمش الضّبي[٥].

أقول وقد فاضتْ بعيني عبرةٌ   أرى الدهر يَبقى والأخلاءُ تذهبُ

أخلاي لو غير الحمامُ   عتبتُ ولكن ليس للدهر مَعَتبُ

أي لو أجستم في الحرب لأدركنا ثأركم وانتصرنا لكم، ولكن الدهر لا يُنتصر منه ومن معانيه المعنوية (اللوم) عاتبهُ مُعاتبةً وعِتاباً، كل ذلك لامهُ[٦].

ومنه قول الشاعر:

أعاتبُ ذا المودة من صديقٍ   إذا ما رابني منه اجتيابُ

إذا ذهب العتاب فليس ودٌّ   ويبقى الودّ ما بقي العتابُ

فواضح أنَّ السياق هو الذي هيّأ لهذه المفردة المعنى الجديد بدلالة قول

---

(١) المصدر نفسه: مادة (عتب).

(٢) المصدر نفسه ج١ ص٥٧٦.

(٣) المصدر السابق: مادة (عتب).

(٤) المصدر نفسه: مادة (عتب).

(٥) المصدر نفسه: مادة (عتب).

(٦) المصدر نفسه: مادة (عتب).

الشاعر (ويبقى الود).

ومن اشتقاقات هذه المفردة «الاعتاب والعتبى» وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب[١]، والاستعتاب، طلبك إلى المسيء الرجوع عن إساءته ومنه (العتب والتعاتب، والمعاتبة) وهي تواصف الموجدة[٢].

ومن الصفات المشتقة منه (العِتْب) وهو الرجل الذي يعاتب صاحبه، أو صديقه في كل شيء إشفاقاً عليه ونصيحةً لهُ[٣]، و(العَتوب) الذي لا يعمل فيه العتاب[٤] و(الأعتوبةُ) ما تعُتِبَ به[٥].

والعُتبى (الرضا)[٦] ومنه أعتبهُ، أعطاه العُتبى ورجع إلى مَسَرّتهِ. كقول الشاعر:

إذا ذهب العتاب فليس ودٌّ　　　ويبقى الود ما بقي العتابُ[٧]

وقد أتضح هذا المعنى من خلال السياق الحاضن للمفردة.

ويقال استعتب فلان إذا طلب أنَّ يُعتبَ أي يرضى والمعتْبُ المرضى[٨]

---

(١) المصدر نفسه: مادة (عتب)، ظ: العين: مادة (عتب).

(٢) المصدر نفسه: مادة (عتب) ظ: الإمام محيي الدين ابن فيض السيد محمد مرتضى: تاج العروس، مادة (عتب) ٢: ٢٠٠ – ٢٠١ تحقيق علي شيري، دار الفكر بيروت، ١٩٩٤ م – ١٤١٤ هـ.

(٣) المصدر نفسه: مادة (عتب) ظ: العين مادة (عتب)

(٤) المصدر نفسه: (مادة عتب).

(٥) المصدر نفسه: (مادة عتب).

(٦) المصدر نفسه: (مادة عتب).

(٧) ظ: شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٤: ٦٥ دار ومكتبة الهلال بيروت ط١، ١٩٨٦م.

(٨) لسان العرب، مادة (عتب).

والاعتتاب الانصراف عن الشيء كقول الكميت[١].

فاعتب الشوق من فؤادي والـ　　شـعرُ إلى مَـنْ إليـه مُعَتَـبُ

وفي صحاح الجوهري، واعتبتُ الطريق إذا تركتُ سهله وأخذت في وعره، واعتتبْ أي أقصد قال الحطيئة:

إذا مخارمُ أحناءٍ عرضن له　　لم ينبُ عنها وخاف الجورَ فاعتتبا

معناه اعتتب من الجبل أي ولم ينبُ عنه قال الفرّاء، اعتتبَ فلان إذا رجع عن أمرٍ كان فيه إلى غيره[٢].

ويصاغ منه (عتّابٌ وعتابٌ ومُعتَّب وعتبةٌ وعُتيبة) كلّها[٣] أسماء ومنها أيضاً (عتيبة وعتّابة) وهي من أسماء النساء[٤].

مما تقدم اتضح أنَّ لكل لفظةٍ معنيين: أولهما المادي، وثانيهما (المعنوي)، والمادي هو أسبق في الظهور من المعنى (المعنوي) وعلى سبيل المثال، فالمعنى المادي الذي أشرنا إليه في الفقرة الأولى (المشي على ثلاث قوائم، وهذا المعنى يرشح لأن يكون هو المعنى الأولي وهو أصل الاستعمال، وأما ما ورد من معانٍ أُخَر كـ(دخول الفساد في الأمر) فهو معنى معنوي تطور عن المعنى الأولي، وذلك لأن المشي على ثلاث خلاف الأصل في مشية البعير أو الفحل فهو فساد في مشيته، وهذا المعنى تطور إلى أنَّ أصبح الفساد في الأمر (عتباً) وحاصل ما قدّمناه في هذا

(١) هاشميات الكميت: تحقيق داود سلوم.

(٢) إسماعيل بن حماد الجوهري، (ت ٣٩٨ هـ) الصحاح – تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار مادة: (عتب).

(٣) لسان العرب: مادة (عتب)، ظ: العين: مادة (عتب).

(٤) المصدر السابق: مادة (عتب) ظ: العين: مادة (عتب).

الموجز أنَّ (العتاب) يشير إلى أمرٍ فيه صعوبةٌ من كلامٍ أو غيره[١]، ويعبّر العرب بوساطة العتب، عن الوقوع في مشقة وتكرّر أو صار فيه عيب وغلظ[٢].

والعتوب هي الأرض الغليظة، وفي رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي يُطلق على تابع امرئ القيس (الجنيّ) اسم: عتيبة بن نوفل أخذاً من معنى (العتوب) وهو الصعوبة في شق طريق الشعر إذْ إنّه أول من بكى واستبكى ووقف على الديار[٣].

ونلحظ أنَّ مفردة العتاب ومشتقاتها وردت بكثرة بالصيغ المسبوقة بالأداة (لا) أو (ما) مما يدل على أنَّ العتاب فيه نوع من التلطف والامتنان في أحيان كثيرة.

ثانياً: المفردات اللغوية لـ(العتاب)

للمفردة العربية مرادفاتها التي ذكرها علماء اللغة في مصنفاتهم سواءً أكانت المفردة قرآنية[٤] أم مفردة من العربية لم ترد في السياق القرآني[٥] فقد كان جمُيعها

---

(١) ظ: أبو الحسن أحمد بن فارس زكريا (ت ٣٩٥ هـ) مقاييس اللغة ٢: مادة (عتب) تحقيق عبد السلام هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١٤٠٤ هـ.

(٢) ابن القطاع: (ت ٥١٥ هـ)، الأفعال: مادة (عتب) دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٤ هـ.

(٣) بطرس البستاني، رسالة التوابع والزوابع بيروت ١٩٦٠.

(٤) ظ: الفراء (ت ٢٠٤ هـ) معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف بخاتي، دار الكتب القاهرة ١٩٩٥، إسماعيل بن أحمد النيسابوري (ت ٤٢١ هـ) وجوه القرآن تحقيق د. نجف عوش، مطبعة الاستانة الرضوية، مشهد – ١٤٢٢ هـ، الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥ هـ)، مفردات ألفاظ القرآن تحقيق صفوان داودي، دار القلم، دمشق (د.ت).

(٥) ظ: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠ هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق، عبد السلام هارون (د.ت).

محل عنايتهم واستقصائهم لدلالاتها الثابتة والمتحركة، وقد خصصوا لهذا البحث كتباً، وعقدوا له فصولاً طوالاً.

ومفردة العتاب واحدة من تلك المفردات التي نالت عناية الباحثين القُدماء وحظيت باهتمامهم الملحوظ. وكشف صاحب كتاب (الألفاظ الكتابية) مرادفات هذه اللفظة في مقدمة مفرداته في باب (اللوم) إذ قال[1]: (يقال لُمتُ الرّجُلَ لَوْماً وعذلته عذلاً، وأنبتهُ تأنيباً، وقرّعتُهُ تقريعاً، وفندتُهُ تفنيداً، ووبختُهُ توبيخاً، وبكيتهُ تبكيتاً، ولحيتُهُ لحياً وعنفتُهُ تعنيفاً، فهي المعاتبة ثم اللوم ثم التقريع ثم التوبيخ ثم التأنيب).

بيد أنَّ هذه المفردات، وان كانت تنتمي إلى فعل دلالي واحد هو (اللوم)، لكن كل مرادف له معنىً دقيق يومىء إلى دلالة تبتعد قليلاً أو كثيراً عن مركز الدلالة (اللوم) فاللوم غير العذل، وكلاهما غير التأنيب، وهذه تختلف في دلالتها عن مدلول لفظة (التقريع)، و(التفنيد)، و(التوبيخ)، و(التبكيت)، و(اللّحو) واعلاها كلها (التعنيف).

نستطيع أنَّ نرصد (التصاعدية في المعاني – إن جاز التعبير – لأن ثمّة فوارق دلاليةً لابد من تحريها واعتمارها أساساً في تحليل النصوص ودراستها والحكم عليها ورصد ارتباطها بمفردة (اللوم).

ومِنْ ثَمَّ (العتاب) موضوع البحث. ولا تعدم الدراسة أنَّ تجد في لغة العرب مفردات تنتمي إلى الحقل الدلالي نفسه (اللوم) وتوميء إلى معانيه التصاعدية على سبيل المثال كمفردة (الذمو) وهو اللوم والحض معاً، والذم وهو اللوم في الإساءة.

---

(١) عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني، الألفاظ الكتابية ص ٧ – ٨، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٤٠٠ هـ - ١٨٩٠ م.

ونلحظ فرقاً في دلالات الألفاظ المنتمية إلى حقل (العتاب) فالتثريب شبيه بالتقريع والتوبيخ ولا يكون إلاّ على فعل قبيح ومعناه الأصلي الأخذ على الذنب.

أما اللوم فيكون على الفعل الحسن[١]، والعتاب غلظة يجدها الإنسان في نفسه على غيره كما قال الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢ هـ)[٢].

ومن الجدير بالذكر أنَّ لكل دلالة من تلك المفردات المرادفة للفظة (اللوم) معنىً دقيقاً تنفرد به في المعجمات العربية أو في سياق الكلام النثري أو الشعري كما يجب الانتباه إلى أنّ هذه الكلمات كلّها لا تعبّر بدقة عن معنى (العتاب) فالعتاب نوع من أنواع اللوم.

ويبقى للتأويل دوره الرئيس في إدارة هذا المعنى أو سواه من معاني ألفاظ المفردات اللغوية في كثير من الأحيان، مثلما يأخذ السياق دورهُ في التنوع الدلالي لكن التأويل في – حد نفسه – تابع من السياق والسياق هو الذي يوجه المعنى ويدفع به إلى جهات معينة يكشف عنها المؤول في إطار قدراته الخاصة ومؤهلاته.

ولذا يورد عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني هذه المفردات في تدرج تصاعدي يبدأ باللوم وينتهي بالتأنيب فيقول:

(قرضتهُ بعض القرض، وعذمته بعض العذم واستبطأته، ويقال استذم الرجل واستلام والأم إذا فعل فعلاً يلام عليه فهو، مليم، ولا زلت أتجرع فيك الملائم والملاوم واللوائم أيضاً.

---

(١) ظ: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (ألام).

(٢) ظ: مفردات الراغب مادة (عتب).

ويقال: لام فلان غير مليم، وذم غير ذميم، وأنحى فلان على فلان باللائمة وأحال عليه بالتعنيف، وتقول لمتُه وقبحّت فعله وقبلت رأيه، وذممتُ إليه رأيه وفي الأمثال (ربّ لائم مليم ورب ملوم لا ذنب له)[١].

ثالثاً: الصيغ المجازية للعتاب

المجاز في العربية – وفي غيرها – باب وسيع في التعبير عمّا يحتاج إليه الإنسان في إغراضه المختلفة إذ تقصر اللغة بألفاظها المعجمية ومفرداتها المعياريّة عن بلوغ المراد، فتتفتح الألفاظ والتعابير المجازية عن معانٍ لا حصر لها، لتتكامل دائرة التعبير المفضّل، وليس أدل على ذلك من اعتماد المجاز أسلوباً للتعبير في كتاب الله العزيز، فالمجاز – فضلاً عن كونه يُثري المعنى ويعمقه ويحيط بالمعاني المتشعبة التي لا تؤديها ألفاظ القاموس – أبلغ من الحقيقة، وأقدر على التأثير في المتلقي وتأسيساً على هذا يدخل المجاز ساحة التعبير عن العتاب ومضامينه في أنَّ أساليب خبريّة أو إنشائية أو بهما معاً حين يخرج الخبر إلى أغراض إنشائية تعطي الدلالات الواضحة على هذا المعنى، وقد تحدث علماء البلاغة واللغويون عن المجاز وعقدوا له فصولاً في مؤلفاتهم عن فاعلية المجاز سواء في القرآن الكريم أو في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو في كلام الفصحاء، وليس بنا حاجة هنا إلى التفصيل في أمر مفروغ منه ولا بأس أنَّ نذكر ما هو وطيد الصلة بهذا الأمر من مؤلفات القدماء، وفي طليعة هذه المؤلفات يقف (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت٢٠٩هـ)، وفي مجال الحديث الشريف نجد (المجازات النبوية) للشريف الرضي الموسوي رحمه الله (ت ٤٠٦ هـ) واحداً من المصادر التي عالجت هذا الأمر.

---

(١) الألفاظ الكتابية، مصدر سابق ص ٨ وما بعدها.

المبحث الثاني: دلالات العتاب في ضوء المنهج القرآني

توطئة

وردت مفردة العتاب بصيغتها اللغوية والصريحة في ثلاث مواضع في القرآن الكريم كما وردت مرادفاتها دالة على معان تنتمي إلى معاني العتاب في سياقات الآيات القرآنية.

الدلالة الأولى: الاستعمال القرآني لمفردة العتاب

جاء لفظ العتاب في التنزيل في ثلاثة معان ظاهرة هي:

أولاً: ما ورد صراحة بلفظ العتاب.

ثانياً: ما ورد بلفظ اللوم.

ثالثاً: ما ورد بلفظ التثريب.

وهناك مرادفات أخرى وردت يفهم من سياقاتها لحن العتاب كالتي تدخل في إطار الاستفهام.

ولغرض الإحاطة بسياقات هذه الألفاظ لابد من معرفة معانيها ودلالاتها اللغوية وموقعها في القرآن، لذا ستتوقف عندها الدراسة تباعاً.

(١) بيان ما يتعلق بمفردة العتاب

ذكر أصحاب المعجمات العتاب في كتبهم ضمن مادة (عتب) وتعمق كثير منهم في جذر هذه المفردة ونحن هنا نأخذ موضع الحاجة إلى الضرورة الدراسة فقط.

ذكر صاحب المجمع الوسيط معنى العتاب فقال: (عتب عليه عتباً وعتياناً ومعتباً، ومعتبةً، لامه وخاطبهُ مخاطبة الإذلال طالباً حسن مراجعته ومذكراً إياه بما كرهه منه، وفلان عتبٌ وعتبانٌ، وتعاتبٌ)[١].

(٢) ما يتعلق بمفردة اللوم

أما اللوم: فأصله (ل. و. م) العذْل تقول (لامه) على كذا من باب قال و(لَوْمَهُ) أيضاً فهو (مَلومٌ) و(لوّمهُ) مشدّدة للمبالغة أيضاً و(اللوّمُ) جمع (لائم) كراكع وركّع و(اللائمةُ) الملامة يقال: ما زلت اتجرع فيك (اللوائم) و (الملاوم) جمع (ملامة) و(ألام) الرجل أتى بما يُلام عليه.

وفي المثل: رب لائم (مُليمَ) أبو عبيدة: (ألامهُ) بمعنى يلومه الناس و(لوَمه) بفتح الواو يلوم الناس. و(التلّوّم) الانتظار والتمكّث[٢].

(٣) ما يتعلق بمفردة التثريب

التثريب يكون شبيه بالتقريع والتوبيخ ولا يكون إلاّ على فعل قبيح.

ومعناه: الأخذ على الذنب، والتثريب شحم قد غشي الكرش والأمعاء

(١) ظ: إنعام نوال، المجمع المفصل في علوم البلاغة (١٢٥) دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦.

(٢) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٧٢١ هـ) مختار الصحاح، باب اللوم ٣٥٣، دار إحياء التراث العربي، تدقيق محمد علاق ط١، ١٤١٩، ١٩٩٩ م.

رقيق[١] والتثريب هو اللوم وقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ﴾ (يوسف/٩٢).

ويقول أبو هلال العسكري: (إنَّ التثريب شبيه بالتقريع، والتوبيخ: تقول: وبّخه وقرّعه وثربه بما كان منه، واللوم قد يكون لما يفعله الإنسان في الحال.

ولا يقال لذلك تقريع وتثريب وتوبيخ، واللوم يكون على الفعل الحسن، ولا يكون التثريب إلا على قبيح، والتفنيد تعجيز الرأي: يُقال فنّده إذا عجز رأيه وضعه)[٢]. والاسم الفند وأصل الكلمة اللفظ ومنه للقطعة من الجبل فِنْد، ويجوز أنَّ يقال: التثريب الاستقصاء في اللوم والتعنيف[٣] وأصله من الثرب وهو شحم الجوف[٤] لأنّ البلوغ إليه هو البلوغ إلى الموضع الأقصى من البدن.

ولقد أفاد أهل اللغة وأصحاب البلاغة والفصاحة من استعمالات الآيات القرآنية كثيراً من الأسرار البلاغية التي لا تحصى. وما يهمنا منها في هذه الدراسة هو (الاستفهام) إذ له الأثر في فهم سياق الآيات وتوجيه الصياغة الأدبية والتمثيل الفني فيها، فلذا نجد أنَّ معاني العتاب تنجلي في الاستفهام وهو باب واسع من أبواب الإنشاء ومنها:

---

(١) ظ: ابن فارس: المقاييس: مادة «ثرب».

(٢) ظ: أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) الفروق اللغوية: ٦٥،تعليق محمّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط ٢، ٢٠٠٥ م – ١٤٢٦ هـ.

(٣) لسان العرب مادة (فند).

(٤) المصدر نفسه مادة (ثرب).

(١) استفهام العتاب

وفي شأن هذا العتاب أشار السيوطي في حديثة إلى استفهام العتاب، متمثلاً بقوله جل ثناؤه: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (الحديد/١٦) ففي هذه الآية الكريمة استفهام العتاب في شأن الصحابة لما أكثروا المزاح.

ومن اللّطف ما عاتب به خير خلقه مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة/٤٣). ففي الآية عتاب الخالق لرسوله مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم وكان أذن لجماعة في التخلّف عن الجهاد باجتهاد منه، فنزل عتاباً له، وقدمّ العفو تطميناً لقلبه[١].

والعتاب خير من الحقد ولا يكون إلا على زلة فقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حدائق المتحابين ودليل على بقاء المودة[٢].

(٢) استفهام التبكيت

وهذا الاستفهام مما أشار إليه الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) في حديثه عن الاستفهام، ومثل له بقوله تعالى: ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ ﴾ (المائدة /١١٦).

وقد جعل السكاكي تمثيل الآية الكريمة من باب التقرير، وفيه تقصير

---

(١) ظ: جلال الدين السيوطي الشافعي (ت ٩١١ هـ)، الاتقان في علوم القرآن، ٢: ٤١٠، دار الفكر، بيروت – لبنان ١٤٢٦ – ٢٠٠٥.

(٢) ظ: أحمد بن علي القلقشدي (ت ٨٢١ هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ٩: ١٨٩ تحق د. يوسف علي، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط ١، ١٩٨٧ م.

وإمعان لأنّ هذا القول لم يقع منه عليه السلام تنزيهاً لله عما لا يليق من شريك وغيره[١].

(٣) استفهام التوبيخ

التوبيخ لغة من فعل وبخ، والوبخة اسم من التوبيخ: العذل المحرقة، ووبخّه لامه وعيّره، قيل إن استفهام التوبيخ جعله يعظهم من قبل الإنكار إلا أنّ الأول إنكار إبطال وهذا إنكار توبيخ، والمعنى أنّ ما بعده واقع جدير بأن ينفى، فالنفي هنا قصدي والإثبات قصدي.

ويعبّر عن ذلك بالتقريع أيضاً وقد مثل مبرهناً قوله بهذه الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ (طه/٩٢) بمعنى، بإقامتك بين من يعبد الله تعالى، على سبيل التوبيخ الاستفهامي الإنكاري لإبطال ما أمرك الله به من عبادة الأوثان والأصنام.

وكقوله تعالى أيضاً: ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف/٢) على سبيل التوبيخ والإنكار عندما هزموا في معركة أحد[٢].

هذا ما أردنا بيانه على سبيل الإيجاز غاضِ الطرف عن كثير ممن له صلة بمفهوم العتاب أو اللوم، كالنهي وغيره من الأنواع التي تحراها علماء البلاغة العربية.

---

(١) ظ: د. نوال عكاوي، المجمل المفصّل: ١٢٧، السيوطي، الإتقان ٢: ٤١٠، عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، ٨٨ – ٨٩، دار المعرفة، بيروت – لبنان، قم إيران ١٤٠٤ هـ - ١٩٧٨ م.

(٢) ظ: السيوطي: الإتقان ٢: ٤١٠، د. إنعام نوال عكاوي، المعجم المفصّل ١٣٥.

معاني مفردة العتاب في الاستعمال القرآني

(أ) ورد معنى العتاب بلفظ (يستعتبون) في ثلاث سور من القرآن الكريم هي:

(الروم / ٥٧) (الجاثية / ٣٥) (النحل / ٨٤)

(١) قال تعالى:

{ فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } (الروم/٥٧) أريد بها هنا (لا يطلب منهم الإعتاب والرجوع إلى الحق)[1].

وأما الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) فيستفيد من دلالة لفظة (يستعتبون) بما نصّه قال: (من قولك استعتبني فلان فأعتبته أي استرضاني فأرضيته، وذلك إذا كنت جانياً عليه وحقيقة أعتبته أزلت عتبه، إلا ترى إلى قوله[2]:

غَضِبَتْ تَميمٌ أَنْ تُقَتَّلَ عَامِرٌ يَوْمَ النِّسارِ، فَأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ

كيف جعلهم غضاباً، ثم قال فاعتبوا، أي أزيل غضبهم والغضب في معنى العتب.

والمعنى لا يقال لهم أرضوا ربّكم بتوبة وطاعة، ومثله قوله تعالى: { وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنْ الْمُعْتَبِينَ } (فصلت / ٢٤) قلت، أما كونهم غير مستعتبين: فهذا معناه، وأما كونهم غير معتبين، فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبهت

---

(١) أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) مجمع البيان ٢: ٢٠٢، تحقيق هاشم رسول المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤١٢، ١٩٩٢ م.

(٢) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري ج ١ ص ٢٧٢، مؤسسة الرسالة ١٩٧١، لبنان – بيروت.

حالهم بحال قوم جني عليهم، فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه)[1].

هذا ما أفاده الزمخشري من دلالة اللفظة على العتاب إذ إنّه أرجع الأصل فيها إليه.

(٢) قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (الجاثية / ٣٥).

استفيد منها لفظ العتاب الصريح كما يراها الطبرسي رحمه الله (ت ٥٤٨ هـ) قال: (أي لا يطلب منهم العتبى أو الاعتذار لأنّ التكليف قد زال وقيل معناه لا يقبل منهم العتبى[2].

وجاء بمعنى الرضا كما في الكشاف (ولا يطلب منهم أنَّ يعتبوا ربهم أي يرضوه)[3].

(٣) قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (النحل / ٨٤).

يُرجع القرطبي (ت ٦٧١ هـ) أصل الكلمة إلى العتب (وأصل الكلمة من العتب وهي الموجدة، يقال عتبت عليه، يعتب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ما عتب عليه فيه فقيل عاتبه، فإذا رجع إلى حسرتك فقد أعتب، والاسم العُتبى وهو

---

(١) الكشّاف ٣: ٤٩٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٣١ هـ - ٢٠٠١ م، ظ: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٠٧ هـ)، الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٥٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، تصحيح هاشم سمير النجاري، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

(٢) مجمع البيان: ٩: ١٠٤.

(٣) الزمخشري ٤: ٢٩٦، مصدر سابق.

رجوع المعتدي عليه إلى ما يرضي العاتب..)[١].

- ب - وردت لفظة العتاب كذلك في معنيين في سورة واحدة وهي فصّلت وهما (يستعتبوا) و (المعتبين).

قال تعالى: { فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنْ الْمُعْتَبِينَ } (فصلت/٤).

قال في المجمعَ مستفيداً من دلالة الآية على العتابِ: (والاستعتاب طلب العتبى وهي الرضا وهو الاسترضاء والأعتاب الإرضاء وأصل العتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ ثم استعير فيما يستعطف به بعضه بعضاً لإعادته ما كان من الألفة)[٢] ثم يرى في بيان الآية (أي وأن يلبوا العتبى وسألوا الله تعالى أنَّ يرضي عنهم فليس لهم طريق إلا الإعتاب فما هم ممن يقبل عذرهم ويرضى عنهم)[٣].

الاستعمال القرآني لمفردة اللوم

وردت مادة (لوم) في القرآن الكريم في عشر سور تعطي معنى (اللوم) وبصيغ مختلفة وهي:

(١) [لُمْتُنَّنِي] قال تعالى: { قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ... } (يوسف/٣٢).

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٠٧، تصحيح هشام سمير النجاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان ٩: ١٣ – ١٤.

(٣) المصدر نفسه ٩: ١٥، ظ: القرطبي، الجامع ٨: ٢٧٧.

(٢) [تَلُومُـونِي] قـال تعـالى: { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي } (إبراهيم / ٢٢).

(٣) [وَلُومُـوا] قـال تعـالى: { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ } (إبراهيم / ٢٢).

(٤) [مَلُوماً] وردت في سورة الإسراء في آيتين هما:

* قـال تعـالى: { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً } (الإسراء/٢٩).

* قال تعالى: { ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } (الإسراء / ٢٩).

(٥) [لَوْمَةَ] قال تعـالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ } (المائدة/٥٤).

(٦) [لاَئِمٍ] قال تعـالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ } (المائدة/٥٤).

(٧) [مَلُومِينَ]: وردت في موضعين هما:

قال تعالى: { إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ }

(المؤمنون/٦).

قال تعالى: { إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ } (المعارج / ٣٠).

(٨) [مُلِيمٌ] وردت في سورتين هما:

قال تعالى: { فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ } (الصافات/١٤٢).

قال تعالى: { فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ } (الذاريات/٤٠).

(٩) [مَلُومٍ] قال تعالى: { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ } (الذاريات/٥٤).

(١٠) [يَتَلاَوَمُونَ] قال تعالى: { فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ } (القلم/٣٠).

هذا ما ورد في القرآن الكريم من ألفاظ اللوم، ونريد أنَّ نعرض الآن أُنموذجاً لـ(اللوم) في السياق القرآني وسعة إفادة أهل الاختصاص منه في توجيه الآيات المباركات.

قال تعالى في سورة الصافات: { فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ } (الصافات/١٤٢).

قال الطبرسي رحمه الله في وجه الإفادة من هذه الآية ومعرفة سياقها اللغوي والتفسيري و((ألام الرجل فهو مليم آت بما يلام عليه))[١] هذا في بيان اللغة أما في وجه الإفادة منها فيقول: [{ وَهُوَ مُلِيمٌ } أي مستحق اللّوم لوم العتاب لا لوم العقاب][٢] فكأنّهُ صنف اللوم وأمال للعتاب تنزيهاً للنبي يونس عليه السلام، لأنّ

(١) مجمع البيان ٧: ٥٩٠.

(٢) المصدر نفسه ٧ / ٥٩١.

المفردة دلالتها فيما لا ينبغي فعله.

وما يراه الصافي في ذكره لكلمة (مليم) أنّهُ داخل في الملامة أو آتٍ بما يلام عليه ومليم نفسه أحد أمرين:

الأول: أنّه عليه السلام حدّث نفسه بما آل إليه الأمر في هذه السفينة.

الثاني: أنّه لوم أهل السفينة له باعتبار أنّهم استنتجوا وجود عاص بينهم[(١)]، أو بهم مشؤوم كما يراه الصنعاني[(٢)]، وأما الرضي رحمه الله فيرى في شرحه على الشافية وهو (الام) عقبى صار صاحب قوم يلومونه فإذا صار له لوّام قبل هو مليم[(٣)].

وقال في الكشاف: (داخل في الملامة) يقال: (رب لائم مليم، أي يلوم غيره وهو أحق باللوم، وقريء (مَليم) بفتح الميم، من ليم فهو مليم، كما جاء، مشيب في مشوب...)[(٤)].

والقرطبي يرى أَنَّهُ (أتى بما يلام عليه، فأما الملوم فهو الذي يلام، استحق ذلك أم لم يستحق، وقيل المليم المعيب، يقال: لام الرجل إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل)[(٥)].

---

(١) ظ: المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ)، تفسير الصافي، ٤: ٢٨٣، دار المرتضى للنشر، إيران – مشهد ٣، ١٤١٥ هـ - ١٣٧٣ ش.

(٢) ظ: عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١ هـ) تفسير القرآن الكريم (تفسير الصنعاني) ٣: ١٥٤، تحقيق محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

(٣) ظ: رضي الدين الاسترآبادي، شرح شافية ابن الحاجب ١: ٨٨.

(٤) الزمخشري ٤: ٦٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٨: ٨١.

الاستعمال القرآني لمفردة التثريب

وردت هذه المفردة في القرآن الكريم في سورة يوسف التي تعطى معنى العتب قال تعالى: { قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } (يوسف/ ٩٢).

في ذكر هذه الآية المباركة يرجع الطبرسي رحمه الله عند التفسير اللغوي لها إلى أصل الكلمة كي يبني عليها أساس بيان تفسيرها، فيقول: (التثريب التوبيخ يقال ثرب وأثرب عن ابن الأعرابي وقيل التثريب اللّوم والإفساد والتقرير بالذنب قال أبو عبيده وأصله الإفساد وأنشد[1]:

فعفوت عنهم عفو غير مُثْربِ وتركتهم لعقاب يوم سرمدٍ

وقال ثعلب واثرب فلان على فلان أي عدد عليه ذنوبه، وقال أبو مسلم مأخوذ من الثرب وهو شم الجوف فكأنّه موضوع للمبالغة في اللوم والتعنيف والبلوغ بذلك أقصى غاياته)[2].

وهو يرى أنّ الثريب مقاربناً للتوبيخ والتقريع والتعيير فيقول: ({ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ } (أي لا تعبير ولا توبيخ ولا تقريع عليكم الآن فيما فعلتم)[3].

وأما الزمخشري فأفاد منها معنى العتاب وغيره مما فيه دلالة على الامتعاض قال: ((لا تأنيب عليكم ولا عتب، وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه إزالة الثرب، كما أنَّ التجليد والتقريع إزالة الجلد

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ج١، ص٢٣٥.

(٢) مجمع البيان ٥: ٣٣٥.

(٣) المصدر نفسه ٥: ٣٣٧.

والقرع لأنّه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزل والعجف الذي ليس بعده فلضرب مثلاً للتقريع الذي يمزق الإعراض ويذهب بماء الوجه))[١].

وهكذا فإنّ الدراسة وقفت على استعمال القرآن لمفردة العتاب بصيغها المختلفة التي أدت أو قاربت معنى العتاب بوضوح مكتفٍ بها عن غيرها لقصر البحث بما يمكن معه انتفاء الإخلال في أصله مما يمكن أنَّ يطيله ويخرجه عن إطاره الموضوعي المحدد.

الدلالة الثانية: تنوع الخطاب القرآني للعتاب

ينص القرآن الكريم في غير آية على أنّ الأنبياء عليهم السلام ليسوا على درجة واحدة من جهة الكمالات التي يمتع بها كل واحد منهم.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (البقرة / ٢٥٣).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (الإسراء / ٥٥).

وبناءً على ذلك فَهُمْ عليهم السلام متفاضلون ومتفاوتون سواء في البعد المعرفي أم في البعد العملي للحياة اليومية، وهذا ما يفسّر إطلاق خطاباتهم عليهم السلام مع الله إذ قد نجد قضية واحدة تختلف بياناتها من نبي لآخر، وهذا التنوع الخطابي أثر في تصور بعضهم أنَّ ذلك يعكس انتفاء العصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام ففي ضوئه صنف الخطاب أو بالأحرى جعل من بعض الخطابات من الشدة والقساوة التي تلقاها الأنبياء من مجتمعهم الذي أرسلهم.

فنوّعوا الخطاب الذي يحمل بين طياته نوعاً من العتب في بعض الآيات التي

(١) الكشاف ٢: ٤٧٣.

وردت في لحن ذلك ونحن نتناول هذا الجانب دون الجانب الإيجابي الآخر، وهذه الأنواع هي:

الأول: العتاب الخفيف

يرى بعضهم أنّ الله سبحانه وتعالى خاطب أنبياءه معاتباً لهم بعتاب فيه نوع من التوجيه الممزوج بالود، وهو مما أظهرته الآيات المباركات فيكون عتاباً خفيفاً.

قال تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (التوبة / ٤٣).

ندب النَّبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين إلى جهاد الروم فلبّت دعوته جموع المؤمنين، إلا أنّ المنافقين أبوا الاشتراك في صفوف المجاهدين، فتمسكوا بأسباب واهية مستأذنين النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في التخلف، فإذن لهم صلى الله عليه وآله وسلم، فنزلت هذه الآية المباركة كما يراها بعضهم أنّها عتاب لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك وكلمته عتاب خفيف فيه نوع من الود وهذا ما يراه الشريف المرتضى رحمه الله (ت ٤٣٦ هـ) من أنَّ المقصود به هنا هو التعظيم والملاطفة في الخطاب[١] وكذا يرى الطبرسي رحمه الله أنّ هذا من لطيف المعاتبة إذ إنّ تصدير الآية بالعفو قبل العتاب دليل على ذلك[٢].

---

(١) ظ: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، تنزيه الأنبياء ١٦٠، انتشارات الشريف الرضي، إيران – قم، ط ١، ١٣٧٦ هـ. ش.

(٢) ظ: مجمع البيان ٥: ٤٦، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، مختصر تفسير ابن كثير ٢: ١٤٩ تحق محمد علي الصابوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط١.

قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (التحريم / ١).

قال الشريف الرضي رحمه الله: (ليس في ظاهر الآية ما يقتضي عتاباً وكيف يعاتبه الله على ما ليس بذنب)(١).

ولمزيد من التأكيد أنّ العتاب هنا كان من باب العتاب الخفيف قال: (فلو كان للآية ظاهر يقتضي العتاب لجاز أنَّ يصرفه إلى غيره لقيام الدلالة على أنَّهُ لا يفعل شيئاً من الذنوب)(٢) وهذا أدل دليل على أنّ العفو كان لطيفاً ذا ودٍّ.

وكذلك مما يؤيد كون المرتضى رحمه الله يرى أنّ هذا عتاباً لطيفاً وليس فيه نوع لوم له صلى الله عليه وآله وسلم قولهُ: (إذا تُؤمل في الحقيقة لم يكن فيه عتاب وإنما هو توجع له صلى الله عليه وآله وسلم)(٣).

الثاني: العتاب الشديد

ذكروا أنَّ هناك خطاباً حَوتْهُ بعض آيات الذكر الحكيم يكون فيه نوع من العتاب الشديد المصاحب للوم مما يدل معه على خطأ المعاتب منها:

قال تعالى: { فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ } (الصافات / ١٤٢).

اعتبر بعضهم أنّ هذا الخطاب كان شديداً ويحمل عتاباً ناشئاً عن ذنب أقترفه النَّبي يونس عليه السلام استحق معه العتاب الشديد.

---

(١) تنزيه الأنبياء: ١٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٨.

(٣) علي بن الحسين الموسوي العلوي، أمالي المرتضى ٢: ٣٣٢ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، انتشارات ذوي القربى، إيران – قم، ط ١، ١٣٨٤ ش.

قال الزمخشري في بيان شدّة العتاب (داخل في الملامة)[١].

وقال القرطبي: (أتى بما يلام عليه)[٢].

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلاَ كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال / ٦٧-٦٨).

ذهب بعض المفسرين والمتكلمين[٣] إلى أنّ الآية قد نطقت بعتاب شديد يحمل إنذاراً وتوعّداً إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجهود الصحابة الذين أشاروا عليه صلى الله عليه وآله وسلم بأخذ الفداء من أسرى بدر، مؤثرين عرض الدنيا الفانية على نصرة الدين لذلك يَرَون أنّ العتاب صيغ بصورة غير مباشرة إذ إنّها لم توجه الخطاب له مباشرة، بل استهل الآية بكون منفي تَلَتْهُ عبارة تستعظم أنَّ يصدر ذلك عن نبي من الأنبياء.

وعلل الزمخشري هذه الشدة في الخطاب لأنّهم ارتكبوا خطأً في الفداء وترك القتل قال: (وكان هذا خطأً في الاجتهاد)[٤].

ومما يؤكد أنّ العتاب في الآية هو من باب العتاب الشديد قول القرطبي: (فالعتاب والتوبيخ إنما كان متوجهاً بسبب من أشار على النَّبي صلى الله عليه وآله

---

(١) الكشاف ٤: ٦٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨: ٨١.

(٣) ظ: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (ت ٦٠٦ هـ) مفاتيح الغيب ١٥: ١٥٨، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط ٢، ٢٠٠٤ م، ١٤٢٥ هـ.

(٤) الكشاف ٢: ٢٢٥.

وسلم بأخذ الفدية)[١].

قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾ (عبس /١-٢).

هذه من الآيات التي ذكر فيها الخطاب الذي يحمل عتاباً شديداً للذي اعرض عن الأعمى (ابن أم مكتوم) وَتَلَهى عنه وأعرض وتصدى لغيره، بعضهم حملها على النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم والبعض الآخرس حملها على رجل من بني أمية وسيأتي بيان ذلك مفصلاً.

وبغض النظر عمّن نزلت به أنّها تشير إلى عتاب شديد صدر من الله تعالى ضدّ من أعرض وعبس[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤: ٦٢.

(٢) ظ: الشريف المرتضى، تنزيه الأنبياء ١٦٦، الطبرسي، مجمع البيان ١٠: ٥٥٧ الزمخشري، الكشاف ٤: ٧٠١، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٤١ العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ) بحار الأنوار، ١٧: ٨٥، دار الكتب الإسلامية، إيران – طهران (د.ت).

المبحث الثالث: صيغ العتاب ومرادفاته

في القصص القرآني والحديث الشريف

الأول: العتاب في القصص القرآني

لقد ورد في القرآن الكريم كثير من المخاطبات بين الأنبياء عليهم السلام وبين ذويهم أو أقوامهم وصلت إلى حد التوبيخ واللوم والتقريع من الأنبياء نتيجة لبعض الحوادث الحاصلة التي أثارت ما يستوجب تلك المخاطبات ونعرض هنا نماذج مختارة.

(أ) عتاب إبراهيم عليه السلام

ما حصل من عتاب لنبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام مع ذويه وقومه كما جاء في الذكر الحكيم عند قوله تعالى: { إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً } (مريم / ٢٤).

أفاد الشوكاني من الاستفهام الوارد في آية العتاب المتوجه من النَّبي إبراهيم عليه السلام إلى أبيه (آزر) قال: (والاستفهام في { لِمَ تَعْبُدُ } (مريم/٤٢)

للاستنكار والتوبيخ[١].

وفي معرض عتاب إبراهيم عليه السلام لقومه نورد الآية المباركة من قوله تعالى: { أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ } (الأنبياء / ٦٧).

قال الطوسي [أبو جعفر مُحَمَّد بن الحسن (ت ٤٦٠)] في بيان نوع العتاب في هذهِ الآية { أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ } (الأنبياء/٦٧) إنّ إبراهيم عليه السلام: (قال مستهجناً مستقذراً لها[٢]).

وأما الطبرسي رحمه الله فيرى أنّ الاستهجانات والاستقذار من النّبي إبراهيم عليه السلام لقومه كان نتيجةً لسوء صفاتهم إذ يقول: (ثم قال إبراهيم عليه السلام مهجناً لأفعالهم مستقذراً لها { أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } (الأنبياء/٦٧) ثم يقول: قال الزجاج وهذا فيه عتاب شديد اللهجة...)[٣].

ويقول في الميزان إنّ هذا (توبيخ لهم)[٤].

وقال الشيرازي في الأمثل: (وانهال بسياط التقريع على روحهم التي فقدت الإحساس)[٥].

---

(١) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير ٣: ٣٣٥ دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان (د.ت).

(٢) التبيان ٢: ٢٦٢ تحقيق أحمد حسن قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، قم ط ١، ١٤٠٩ هـ.

(٣) مجمع البيان ٧: ٧٥.

(٤) العلامة محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان ١٤: ٣٠٢ منشورات الأعلمي بيروت – لبنان، بيروت لبنان ط٣ ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.

(٥) ناصر مكارم الشيرازي ١٠: ١٢٢، دار الأمير للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ط ١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(ب) عتاب موسى عليه السلام

ذكر المفسرون أنّ القرآن الكريم حمل أو حَوَى في بعض آياته عتاب النَّبي موسى لأخيه هارون عليهما السلام وأخرى عتاب موسى عليه السلام لقومه.

فمن عتاب موسى لهارون عليهما السلام ما ورد في الآية المباركة قوله تعالى: ﴿ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ (طه / ٩٢-٩٣).

وممن ذهب إلى إثبات العتاب في هذه الآية المباركة المراغي إذ قال في قصة عبادة بني إسرائيل للعجل والتنكير عليهم: (وزاد عليهم في التشنيع ببيان أنهم قد عصوا الرسول الذي نبأهم إلى خطأ ما فعلوا، ثم حكى معاتبة موسى لهارون عليهما السلام على سكوته على بني إسرائيل وهم يعبدون العجل)[١].

وأفاد الشوكاني من الاستفهام أنّ هناك إنكاراً وتوبيخاً لهم لفعلهم هذا، قال: (الاستفهام للإنكار التوبيخي)[٢] قاصداً به ما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ (طه/٨٦).

ويرى الشيخ مُحَمَّد جواد مغنيه رحمه الله أنّ (هذا ظاهره لوم أو عتاب لهارون عليه السلام أما في واقعه فهو تقريع للذين عبدوا العجل)[٣].

ومن الآيات التي يذكرها القرآن في سياق العتاب ما جرى من عتاب موسى عليه السلام لقومه بعد أنَّ أضلهم السامري من بعده..

(١) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ١٦: ١١٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان (د.ت).

(٢) فتح القدير: ٣: ٣٨٠.

(٣) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف٥: ٢٣٩، دار الكتاب الإسلامي، ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

وخصوصاً عند قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ (طه / ٨٦).

قال الرازي فخر الدين (ت ٦٠٦ هـ) في بيان ذلك: (ثم أنّ الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام أَنَّهُ عاتبهم بعد رجوعه إليهم)[١].

(ج) عتاب نبي الله لوط عليه السلام لقومه

عاتب لوط عليه السلام قومه في بعض آيات الذكر الحكيم كما هو في سورة هود إذ قال تعالى حاكياً على لسان نبيه عليه السلام: ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (هود /٧٨).

قال في صفوة التفاسير إنّ الاستفهام (استفهام توبيخ أي أليس فيكم رجل عاقل يمنع عني القبيح)[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ (النمل / ٥٤).

قال فيها الفخر الرازي: (فهو على وجه التكبّر وإن كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ أبلغ)[٣].

وفي معرض قوله تعالى: ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (النمل/٥٥).

يرى صاحب الميزان أنّ الاستفهام للإنكار قال فيها (أي مستمرون على الجهل لا فائدة في توبيخكم والإنكار عليكم فلستم بمرتدعين)[٤].

(١) مفاتيح الغيب ٢٢: ٨٨ مصدر سابق.

(٢) محمد علي الصابوني ٢: ٤٢، دار الفكر بيروت – لبنان، ط٣ ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٣: ١٧٥.

(٤) الطباطبائي ١٥: ٣٧٦.

ثانياً: ما ورد عن النَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

للنبي عليه الصلاة والسلام وقفة من العتاب مع أهله، ولاسيما لبعض أزواجه إذ بدر منه صلى الله عليه وآله وسلم العتاب بأجلى صورة تجاه عائشة وحفصة حينما تعاونا على إيذائه والتظاهر عليه صلى الله عليه وآله وسلم، مما تطلب الأمر إلى إبداء التوبة منهما وترك العود إلى مثل هذا الإيذاء المقصود، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحدث في قوله تبارك وتعالى: **{ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ }** (التحريم/٤) وكذا **{ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ }** (التحريم/٤) وكذلك قوله تعالى: **{ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ }** (التحريم/٣).

ورد في التسهيل في بيان عتاب النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم لبعض نسائه عند مروره بالآية الكريمة **{ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ }** (التحريم/٣)، أي عاتب حفصة على بعض وأعرض عن بعض حياءً وتكرماً[١].

وكذا في صفوة التفاسير، (أي أعلمها وأخبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببعض الحديث الذي أفشته معاتباً لها ولم يخبرها بجميع ما حصل منها)[٢].

فكان سياق الخطاب لهما إذ بدا ذلك جلياً عند قوله سبحانه وتعالى: **{ إِن**

---

(١) أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي (ت ٤٧١) ٢: ٤٦٣ تحقيق محمد سالم هاشم ط ١، ١٤١٥ هـ - ٩٩٥ م، ظ: مجمع البيان ١: ٤٠، ظ: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٢ هـ)، سنن النسائي ٥٧٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، أبو عبد الله إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ) صحيح البخاري: ٩٦٧ دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي (ت ٦٧٦ هـ) شرح صحيح مسلم ٥: ٧١ دار الفكر، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٢) محمد علي الصابوني ٣: ٣٨٣.

تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ } (التحريم/ ٤) وكذا قوله تعالى: { وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ } (التحريم/٤) أي حفصة وعائشة[١].

وقال الزمخشري في بيان عتاب النَّبي لحفصة حين أفشت سره إلى عائشة إذ روي أَنَّهُ قال لحفصة: ألم أقل لكِ أكتمي عليّ؟ قالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي[٢].

ومن عتابه لعائشة في سورة التحريم وغيرها ما أكده الطبري في خروج عائشة لقتال علي عليه السلام إذ أنّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم عاتبها ذات يوم وأنبأها بلزوم حصيرها وترك مغادرة البيت إذ قال جل ذكره: { وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ } (الأحزاب/٣٣).

وفي هذا ما ذكره ابن سعد بسنده عن عطاء بن يسار، أنّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأزواجه: (أيتكن اتقت الله ولم تأتِ بفاحشة مبينة ولزمت ظهر حصيرها فهي زوجتي في الآخرة)[٣].

وقالت أم سلمة لعائشة، حذّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساءه من الانحراف عن الصراط، فقلنا نعوذ بالله وبرسوله من ذلك، فضرب على ظهرك فقال: إياك أنَّ تكونيها يا حميراء)[٤].

---

(١) هاشم البحراني ت: (١١٠٧ هـ) البرهان في تفسير القرآن ٩: ٥٦٧ تحقيق قسم الدراسات الإسلامية ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان ١٩: ٢٣٢ الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان ط ٢، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م، مجمع البيان ٩: ١٠١.

(٢) الكشاف ٤: ٥٠٧.

(٣) ظ: محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠ هـ) الطبقات الكبرى ٨: ١٥٠، تحقيق رياض عبد الله عبد الهادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

(٤) ظ: عز الدين ابي حامد عبد الحميد بن هبة الله مدائني الشهير بابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ) ←

وشاهد ثانٍ على العتاب النبوي هو ما ذكره المفسرون ومؤرخو الأحداث من أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد غضب لما أبداه بعض صحابته من عصيان في حملة أسامة بن زيد عندما أمرّه النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم، وامتعض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لتمردهم ولما صدر منهم من قيل وقال في زعامة أسامة، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد عصّب رأسه بعصابة وصعد المنبر وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

((أيها الناس مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة بن زيد؟ والله أنَّ طعنتم في إمارة أسامة لقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله لقد كان للإمارة خليقاً وإنّ ابنه من بعده لخليق للامارة))[1].

وفي كلامه (صلوات الله عليه) عتاب واضح لأولئك الطاعنين في الإمارة[2].

كما عاتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوليد بن عتبه بن أبي

→

شرح نهج البلاغة ٩: ٢٣٧، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، العراق – بغداد، ط ١، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان ٣: ٣٢٤، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(١) ظ: ابن الأثير علي بن إبراهيم بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التأريخ: دار صادر بيروت – لبنان ط ١٩٦٥، المقريزي (ت ٤٨٥ هـ) امتاع الأسماع ٢: ١٢٣، تحقيق محمد عبد الحميد الميس، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، علي بن برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤ هـ) السيرة الحلبية ٣: ٢٠٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط ١، البخاري، صحيح البخاري ٨٧٦ مصدر سابق.

(٢) ظ: محمد بن عمر الواقدي (ت٢١٢ هـ) المغازي: ٢: ١١٨، دار المعرفة الإسلامية ط ١٤٠٥هـ.

معيط، ثم سمّاه الله بعد ذلك بالفاسق ونزل فيه الذكر الحكيم: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } (الحجرات / ٦)(١).

كما عاتب النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم انس بن مالك في حديث الطائر المشوي(٢).

ولذا روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه يقول: (عاتبوا أرقّاءكم على قدر عقولهم)(٣).

واستعار النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم لفظ (تثريب) الواردة في سورة يوسف عليه السلام في حديثه عن قريش بعد فتح مكة عند وقوفه على باب الكعبة مخاطباً لهم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: (يا معشر قريش ماذا تقولون؟ وماذا تظنون؟ قالوا: نظن خيراً، أخ كريم وابن أخٍ كريم، قال: فإنّي أقول لكم كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين أذهبوا فأنتم الطلقاء)(٤).

---

(١) ظ: محمد بن عبد الله النيسابوري الحاكم (ت ٤٠٥ هـ)، مستدرك الحاكم ٣: ١٢٢، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان (د.ت)، شمس الدين الذهبي (ت ٤٧٨ هـ) سير أعلام النبلاء ١٦: ٣٥٢ انتشارات مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان (د.ت).

(٢) ظ: النيسابوري مستدرك الحاكم ٣: ١٤٢، مجمع البيان ١: ٣١٦.

(٣) محمد بن درّام، تنبيه الخواطر، مجموعة درّام، ١: ٥٨ (د.ت).

(٤) أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي، الصدوق (ت ٣٨١ هـ) من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٤٠ – ٢٤٦، انتشارات الإمام المهدي، إيران – قم (د.ت)، أحمد زيني دحلان (ت ١٣٠٤ هـ) السيرة النبوية (سيرة ابن دحلان) دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان (د.ت).

فدَلّ استعمال النَّبي عليه السلام لمفردة التثريب أنها من صيغ العتاب ومرادفاته التي وردت في لسان النَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كما هي في القرآن في سورة يوسف عليه السلام.

ثالثاً: العتاب في حديث أهل البيت عليهم السلام (نهج البلاغة أنموذجاً)

يدرس في هذا المطلب العتاب مقتطفاً ثماره من كلام سيد البلغاء والفصحاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مكتفياً به، لأن كلامه عليه السلام هو الكلام الذي عليه مسحة العلم الإلهي وفيه عبق من الكلام النبوي والجامع المانع.

فقد وردت عنه عليه السلام في نهج البلاغة معاتبات عدة وقفنا على بعض منها رعاية لتحمّل البحث فمنها ما ورد في هذا الصدد معاتباً القوم بعد مقتل عثمان بن عفان قائلاً:

[وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً][(١)].

لقد ميز عليه السلام بين لونين من الناس «قائل» «عاتب» وهو فصل بين نوعين من الكلام صدرا عن نوعين من الناس نستشف من ظاهره أنَّ العتاب من محبيه والقول ربما ما كان من غيرهم وهم كثير.

وقوله أيضاً: [فَاللّهَ اللّهَ عِبَادَ اللّهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَن، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرَن، وَكَأَنَّهَا قَد جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى سِرَاطِهَا، وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلاَزِلِهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلاَكِلِهَا، وَانْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا،

---

(١) ظ: ابن أبي الحديد، شرح النهج ٧: ٢٧، مصدر سابق.

وَأَخْرَجَتْهُمْ مَنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْم مَضَى وَشَهْر انْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وَسَمِينُهَا غَثّاً، فِي مَوْقِف ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُور مُشْتَبِهَة عِظَام، ونَار شَدِيد كَلَبُهَا، عَال لَجَبُهَا، سَاطع لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّج سَعِيرهَا، بَعِيد خُمُودُهَا، ذَاك وُقُودُهَا، مَخُوف وعِيدُهَا، عُم قَرارُهَا، مُظْلِمَة أَقْطَارُهَا، حَامِيَة قُدُورهَا، فَظِيعَة أُمُورُهَا، (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً)، قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ، وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً، تَخَشُّعاً وَاسْتِغفَاراً، وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلاً، تَوَحُّشاً وَانقِطَاعاً، فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ [مَآباً، وَالْجَزَاءَ] ثَوَاباً،(وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) فِي مُلْك دَائِم، وَنَعِيم قَائِم][1].

ومن كتاب له عليه السلام كَتَبهُ بين ربيعة واليمن: [هذَا مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْل الْيَمَنِ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا، وَرَبِيعَةُ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا: أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ اللهِ يَدْعُونَ إِلَيْهِ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ، وَيُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ، لاَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً، وَلاَ يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلاً، وَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَتَرَكَهُ، أَنْصَارٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْض، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ، لاَيَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمَعْتَبَةِ عَاتِب، وَلاَ لِغَضَبِ غَاضِب، وَلاَ لاِسْتِذْلاَلِ قَوْم قَوْماً، وَلاَ لِمَسَبَّة قَوْم قَوْماً! عَلَى ذلِكَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ، [وَسَفِيهُهُمْ وَعَالِمُهُمْ] وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذلِكَ عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ، إِنَّ عَهْدَ اللهِ كَانَ مَسْؤُولاً][2].

ومما جاء في حكمه عليه السلام قوله: [مَا كُلُّ مَفْتُون يُعَاتَبُ][3].

---

(١) نهج البلاغة، تعليق د. صبحي الصالح، ٢٠٨، انتشارات أنوار الهدى، إيران – قم، ط ٢، ١٤٢٤ هـ.

(٢) المصدر نفسه: ٤٦٣.

(٣) ظ: عبد الواحد الآمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ٢: ٢٥٩، مؤسسة الأعلمي، ←

وقال عليه السلام: [عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْه][(١)].

وهنا اقتران ظاهر جلّي بين العتاب والأخوّة فهو الحبل الواصل بين الأخوّة والمرجع لما بينهما من ودٍ إن تقطعت بهم الضغائن والأحقاد.

ويرد الإمام عليه السلام في كلام له في نهج البلاغة على من عتب عليه في تسويته بالعطاء، إذْ قال: [أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللّهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ الْمَالُ لي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللّهِ لَهُمْ].

ثمّ قال عليه السلام: [أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللّهِ، وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلاَّ حَرَمَهُ اللّهُ شُكْرَهُمْ وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيل وَأَلأَمُ خَدِين][(٢)].

فنرى الإمام عليه السلام هنا يوّبخهم ويقرّعهم، وما ذنبه إلا أنَّهُ كان في سيرته كرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قومه فقد ساوى في العطاء بين المسلمين سواء كان المال من الغنائم أو الزكاة أو غيرها، أما من جاء بعده ممن أدعى الخلافة فكانوا يتفاضلون، خلاف سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى جاء الإمام علي عليه السلام فأخذ في التسوية وذلك ممّا لم يرق للذين اعتادوا الفضل في أزمنة غيره عليه السلام، فعاتبوه بما فعل.

بيروت – لبنان، ط ١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٩٧ م.

(١) ظ: صبحي الصالح، نهج البلاغة ص ٥٠٠.

(٢) ظ: ابن أبي الحديد، شرح النهج ٨: ٨٨، مصدر سابق.

ومن كلام له عليه السلام موبخاً لطلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا عليه في ترك مشورتهما والاستعانة في الأمور بهما فقال عليه السلام:

[لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً، أَلاَ تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ؟ وأَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ؟!][(١)].

ومن ذلك عتابه عليه السلام لسليمان بن صرد رحمه الله عندما دخل عليه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام فعاتبه وعذّله وقال له: [أتيت وتربّصت وراوغت، وقد كنت من أوثق الناس في نفسي وأسرعهم – فيما أظن – إلى نصرتي، فما قعد بك عن أهل بيت نبيك، وما زهدك في نصرتهم؟].

فقال: يا أمير المؤمنين، لا تردنَّ الأمور على أعقابها، ولا تؤنبني بما مضى مني، واستبق مودّتي يخلص لك نصحي وقد بقيت أمور تعرف فيها وليك من عدوّك، فسكت عنه عليه السلام، وجلس سليمان قليلاً، ثم نهض فخرج إلى الحسن بن علي عليه السلام وهو قاعد في المسجد، فقال: ألا أعجبك من أمير المؤمنين ما لقيت منه من التبكيت والتوبيخ؟

فقال له الحسن عليه السلام: «إنما يعاتب من ترجى مودته ونصيحته»[(٢)].

وهذا قليل من سيل المعاتبات التي وردت فيه عليه السلام في الأحداث المؤلمة التي مرّت به عليه السلام [(٣)].

(١) ظ: ابن ابي الحديد١١: ٩.

(٢) ظ: نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ)، وقعت صفين ١: ٦، تحقيق عبد السلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطباعة والتوزيع، مصر – القاهرة، ط ٢، ١٣٨٢ هـ.

(٣) ظ: المصدر نفسه ٣: ٦٨٩.



الفَصْلُ الثَّانِي

نماذج من آيات العتاب في القرآن الكريم

المبحث الأول: نماذج من عتاب الأنبياء والرُسل عليهم السلام

المبحث الثاني: نماذج من آيات عتاب الله تعالى لسائر الناس

المبحث الثالث: نماذج من آيات عتاب الملائكة والجن

المبحث الأول: نماذج من عتاب الأنبياء والرُّسل عليهم السلام

نماذج من عتاب الرسل أولي العزم عليهم السلام

توطئة

ذهب الإمامية إلى أنّ هناك فرقاً بين النبيّ والرسول، إذ إنّ النبيّ أعمّ من الرسول أيّ إنّ كلّ رسول نبيّ وليس كلّ نبيّ رسولاً.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ المفيد رحمه الله: (النبيّ هو الإنسان المخبر عن الله بغير واسطة أحد من البشر، وهو أعمّ من أنَّ يكون مأموراً من الله بتبليغ الأوامر والنواهي إلى قوم أم لا، والرسولُ هو الإنسان المخبرُ عن الله تعالى بغير واسطة أحد من البشر مأموراً من الله بتبليغ الأوامر والنواهي إلى قوم)[1].

وليس بنا حاجة إلى أنَّ نذكر مزيداً من آراء الإمامية أو سواهم إذْ إنَّ هذا الأمر ليس فيه اختلافٌ كبيرٌ بينهم.

فالنبي أو الرسول هو الذي اختاره الله واصطفاه لمهمة كبرى تتطلب منه أنَّ

(١) محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ)، أوائل المقالات ٤٧ (د.ت).

يكون متصفاً بصفات تفوق صفات سائر البشر لأنَّ من يتلقى أخبار السماء ويرويها للناس لابد أنَّ يكون أميناً صادقاً مأمون الجانب مبتعداً عن الزلل لا يفعل المعصية – آية معصية – وهذا ما أطلق عليه علماء الكلام اسم (العصمة).

إذن الرسول والنبي كلاهما يعمل بوحي من الله تبارك وتعالى والله هو المسدد لأفعاله وأقواله.

فالعلاقة بينهما كما يقول المناطقة علاقة عموم وخصوص مطلق كما بيَّنا آنفاً.

ويمكن أنَّ يستدل له بما: ((روي عن أبي ذر رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلت له: كم النبيون؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: مئة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، قلت كم المرسلون منهم؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: ثلاثمئة وثلاثة عشر))[(١)].

وهو واضح الدلالة على المقصود لكون المرسلين جزءاً من الأنبياء عليهم السلام.

وقد يطول بنا المقام لو تعرضنا لعصمة الأنبياء ووقفنا على حدودها وسعتها من خلال القرآن الكريم، فقد كتب الباحثون القدماء والمحدثون كتباً وعقدوا فصولاً بينوا ماهية العصمة، وهل العصمة تسلب الاختيار أم هي إرادية بوساطتها يكون المعصوم مُنزّهاً عن الخطأ قادراً على السلوك السويّ في كل حين وقد أفردنا ما يفصل ذلك.

---

(١) الشيخ علي النمازي الشاهرودي (ت ١٤٠٥ هـ) مستدرك سفينة البحار ٩: ٥١١، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ط ١٤١٩ هـ.

عتاب الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام

عندما نتأمل قصة نوح عليه السلام مع ولده الذي هلك مع مَن هلك بمناشدة النبيّ عليه السلام ربّه بإنقاذ ولده من الغرق لاعتبار الأبوّة وأنّه أحد أفراد أُسرته فيُجاب النَّبي نوحٌ عليه السلام بذلك الجواب الإلهيّ القاطع لتلك الرابطة لتحلّ محلّها رابطة العقيدة والإيمان وفي هذا الحدث يرى بعض المفسرين أنّ النبيّ نوح عليه السلام عوتب على سؤاله هذا وقوله مخاطباً ربه: { رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي } (هود/٤٥).

ويرى هؤلاء أنّ ظاهر صدور السؤال منه غير لائق بمقام النبوة؛ لأنّ تغليب العاطفة على الحق والعدل أمر لا يُنتظر من النبيين وهم الصفوة المختارة ولأجل ذلك كلّه – كما يرى المفسرون – خُوطب بالعتاب وهو ظاهر قوله تعالى: { فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ } (هود /٤٦).

إذ ذهب غير الإمامية إلى تحليل دلالات الآية الكريمة وما تتضمنه من حوار بين نوح عليه السلام وربّه سبحانه وتعالى على أنّه كان عتاباً، فهذا الزمخشري يتأمل العتاب في الآية قائلاً:

((إنّ الله عزّ وعلا قدم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أنَّ يعتقد أنّ في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح، وأنّ كلّهم ليس بناجين، أنّ لا تخالجه شُبهة حين شارف ولده على الغرق في أنّه من المستثنين لا من المستثنى منهم فعوتب على أنَّ اشتبه عليه ما يجب إلاّ يشتبه))[1].

---

(١) الكشاف ٢: ٣٧٩.

بيد أنّ الفخر الرازي في تفسيره يوردُ وجوهاً لمن قدح في عصمة الأنبياء فيما يتعلق بخطابه سبحانه لنبيه نوح عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (هود /٤٦) ومن هذه الوجوه المتضمنة قدحاً بالعصمة قوله: ((يدلّ على أنّ ذلك السؤال كان محض الجهل وهذا يدل غاية التقريع ونهاية الزجر))[(١)].

نرى في الآية الكريمة عتاباً واضحاً إذ إنّ نوحاً عليه السلام كان في نزاع نفسي بين وجوب طاعة الله تبارك وتعالى في هذا الحدث الكوني – حدث الطوفان – وهو حدث فاصلٌ بين فئتين فئة ناجية تركب سفينة النجاة التي أعدت بأمر الله وتكليف نوح عليه السلام، وبين فئة هالكة غرقاً لا محالة، أقول بين وجوب هذه الطاعة وبين تفكيره بمصير ابنه الذي رفض الركوب في السفينة، تنازعت العاطفة مع قوة العقيدة فكانت العقيدة هي الغالبة ولم يكن هناك خروج عن الطاعة في مناشدة نوح عليه السلام لربه أنَّ يستثنى ابنه من القرار الحاكم العادل فكان أنَّ جاء ردّه سبحانه وتعالى عتاباً لنوح عليه السلام ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (هود: ٤٦).

عتاب الله لنبيه موسى عليه السلام

من نماذج الآيات الواردة في عتاب الأنبياء عليهم السلام – كما يراها مفسرون كُثُر وبعض متكلمي المذاهب الإسلامية آيات عتاب النَّبي موسى عليه السلام حينما عوتب لّما قام خطيباً في بني إسرائيل وسُئل عن أعلم الناس فرأى عليه السلام أنّه الأعلم كما في إحدى الروايات التي تناقلها المفسرون منه في المصادر المعتبرة.

---

(١) فخر الدين محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب ١٨: ٤.

فقد جاء في صحيح البخاري وغيره ((حدثنا الحميري حدثنا سفيان حدثنا عمر بن دينار قال أخبرني سعيد بن جبير قال: قلتُ لابن عباس إنّ نوف البكالي يزعمُ أنّ موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله حدّثني أبي بن كعب أنّه سَمِع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: أنّ موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فَسُئِل أيّ الناس أعلم؟

فقال أنا: فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك...))(١).

وقال الزمخشري ما نصُّه ((وروي أنّه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط، أمره الله أنَّ يذكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله وقال: إنّه اصطفى نبيّكم وكلمة فقالوا له قد علمنا هذا، فأيّ الناس أعلم؟ قال أنا: فَعَتَب الله عليه حين لم يردّ العلم إلى الله، فأوحى إليه: (بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين وهو الخضر)(٢).

أما القرطبي فقد علّق على الآية الكريمة { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً } (الكهف/٦٠) موعزاً سبب العتاب الموجه من الباري عزّ وجلّ إلى نبيه موسى عليه السلام قائلاً: ((وسبب هذه القصة ما

(١) ظ: صحيح البخاري: باب حديث الخضر مع موسى (عليه السلام) ص٦٠٧، وأنظر كذلك: مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسي ٦: ٦٢١،القاضي أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (ت ٩٨٢ هـ) تفسير أبي السعود أو أرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٥: ٣٣٢، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط ١٢، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء اليعقوبي الشافعي (ت ٥١٤)، تفسير اليعقوبي أو معالم التنزيل ٣: ١٧، دار الكتب العلمية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

(٢) الكشاف: ٢: ٦٨٣.

أخرجه الصحيحان عن أبي بن كعب أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ((إنّ موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فَسُئِلَ أيّ الناس أعلم؟ فقال أنا، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى الله إليه: أنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك...))[1].

وعن ((أحمد بن مُحَمَّد بن عيسى، عن ابن محبوب، عن عبد العزيز العبدي، عن عبد الله بن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي أخالط الناس فيكثر عجبي من أقوام لا يتولونكم ويتولون فلانا وفلانا، لهم أمانة و صدق ووفاء، وأقوام يتولونكم، ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء والصدق؟ قال: فاستوى أبو عبد الله عليه السلام جالساً فأقبل علي كالغضبان، ثم قال: لا دين لمن دان الله بولاية إمام جائر ليس من الله، ولا عتب على من دان بولاية إمام عادل من الله، قلت: لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء؟! قال: نعم لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء، ثم قال، ألا تسمع لقول الله عزّ وجلّ: { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } (البقرة/ ٢٥٧) يعني [من] ظلمات الذنوب إلى نور التوبة والمغفرة لولايتهم كل إمام عادل من الله وقال: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ } (البقرة/ ٢٥٧) إنّما عنى بهذا أنّهم كانوا على نور الإسلام فلما أنَّ تولوا كل إمام جائر ليس من الله عزّ وجلّ خرجوا بولايتهم [إيّاه] من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر، فأوجب الله لهم النار من الكفار، فـ { أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } (البقرة/ ٢٥٧)))[2].

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١ هـ) الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٧٨.

(٢) ظ: ثقة الإسلام أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٩ هـ) الكافي ←

وعند التدبّر في دلالة الآية الكريمة المارة الذكر من سورة الكهف فيما يخصّ نبي الله موسى عليه السلام والعبد العالم الخضر عليه السلام باعتماد على ما ورد من روايات عن أهل البيت عليهم السلام نجد للأمر تحليلاً آخر.

فعن ((إسحق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام إنّ مَثل علي بن أبي طالب عليه السلام ومثلنا من بعده في هذه الأُمة كمثل موسى النبيّ والعالم عليهما السلام إذ لقيَه واستنطقه وسأله الصحبة فكان من أمرهما ما أقتصه الله لنبيه في كتابه، إلى أنَّ يقول عليه السلام: ((وكان موسى عليه السلام يظنّ أنّ جميع الأشياء التي يحتاج إليها في نبوته وجميع العلم قد كُتب له في الألواح...)) ثم يقول عليه السلام بعد أسطر: ((ولا والله ما حسد موسى العالم وموسى نبي الله يُوحى إليه إذ لقيه واستنطقه وعرّفه بالعلم بل أقرّ له لعلمه ولم يحسده...))[1].

قد يبدو هذا تعارضاً في توجيه مغزى الآية وسبب نزولها لكنّنا ننطلق من أنّ العتابَ قد يقع ضمن إطار الحكمة الموجه لسائر الناس من ذوي الأبصار كي يعلموا علم اليقين أنّ الله يريد لهم الخير فلا يشغلهم إلاّ السعي ليوم الحساب؛ ولذا أظهر لهم النبيّ المنّزه موسى عليه السلام وهو في اختبار إلهي وأصبح تلميذاً عند

١: ٣٧٥ – ٣٧٦، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٣، ١٣٨٨ هـ، حجازي خسرو شاهي، درر الأخبار ٤٦٦، انتشارات التأريخ والمعارف الإسلامية، قم ط ١، ١٤١٩ هـ.

(١) ظ: أبو النظر محمد بن مسعود ابن عباس السلمي السمر قندي المعروف بالعياشي (ت ٩٣٢) تفسير العياشي ٢: ٣٣٠، الأعلمي، بيروت – لبنان ط ١، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م وينظر الميرزا حسين النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل، ١٧: ٢٦٥، المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م، السيد هاشم البحراني الموسوي التوبلي ٤: ٣٢١، تحقيق السيد علي عاشور.

من هو ذو علم ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ (الكهف / ٦٥) وإلاّ فالأنبياء معصومون منزهّون لا ينطقون عن هوىً بل عن وحيّ يُوحى.

نماذج من آيات (عتاب الله لنبيه الأكرم مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم)

من ذلك ما في سورة التوبة إذ قال تبارك وتعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (التوبة / ٤٣).

عند عرض آراء بعض المفسرين وتعليقاتهم على هذا النصّ القرآني نجد ضرورة الإفادة من سياق الآيات القرآنية في ضوء الوحدة القرآنية التي تنظم سور القرآن بأسرها من دون إغفال لعصمة الأنبياء وسموّ سلوكهم وعلوّ مكانتهم.

فقد ذهب الشريف المرتضى الموسوي رحمه الله إلى أنّ ذلك السياق: ((فليس يقتضي وقوع معصية ولا غفران عقاب، ولا يمتنع أنَّ يكون المقصود به التعظيم والملاطفة في المخاطبة...))[1] وأما قوله عزّ وجلّ: ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة/٤٣) فظاهره الاستفهام والمراد به التقريع واخراج ذكر علة إذْنَهُ وليس بواجب حمل ذلك على العتاب....))[2].

ويرى المجلسي أنّ مضمون الآية الكريمة يدلّ على المبالغة في تعظيم النَّبي مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم وتوقيره وزيادة في التعجيل والتعظيم ويرى أنّ قوله تعالى ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة/٤٣) محمول على ترك الأولى وأنَّ إذنه لهم

---

(١) أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي المعروف بالشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، تنزيه الأنبياء، ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٠.

موافق لأمره تعالى ويكون العتاب متوجهاً إلى المستأذنين الذين علم الله من قبلهم النفاق))[١].

وعن الإمام الرضا عليه السلام في جواب سؤال المأمون عن عصمة الأنبياء قال عليه السلام: ((هذا مما نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة خاطب الله عزّ وجلّ بذلك نبيّه وأراد به أمته))[٢].

ويعرض ابن كثير هذه الآية المباركة قائلاً: ((قال ابن أبي حاتم حدّثنا أبي حدّثنا أبو حصين بن سليمان الرازي حدّثنا سفيان بن عُينية عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة فقال جلّ ذكرُه: **{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ }** (التوبة / ٤٣) ثم يقول: وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون))[٣].

وابن كثير رصد هذه الإضاءة التي أضفت على قراءته تحليلاً رائعاً ذلك أنّ العفو قد تحقق له قبل التساؤل مما يرجحّ أنّ هذا التساؤل قد يرشّح إلى معنىً ينأى عن الغلظة والتقريع واللوم بدلالة الاستهلال بالصفح في قوله عزّ وجلّ: **{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ }** (التوبة / ٤٣) وربما على سبيل إبعاد القلق وما يحتمل الاهتمام به.

والفخر الرازي هو الآخر يرى أنّ العتاب هنا من باب التلطف بالمخاطبة

---

(١) بحار الأنوار ١٧ / ٤٥ – ٤٦.

(٢) ظ: الشيخ أبو جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، (ت ٣٨١ هـ) عيون اخبار الرضا ١: ١٨٠، منشورات الشريف الرضي، قم ط١، ١٣٧٨ ش. ق، هاشم البحراني، البرهان في تيسير القرآن ٤: ٤٦٧.

(٣) ظ: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) تفسير ابن كثير ٢: ٣٧٤ تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار المعرفة بيروت – لبنان ط ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

ويرجح أنّه من باب ترك الأفضل وتارك الأفضل قد يقرّع وقد يوبّخ(١).

أما الشوكاني فيرى أنّ ((الاستفهام في { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } (التوبة/ ٤٣) للإنكار من الله تعالى على رسولهِ صلى الله عليه وآله وسلم حين وقع منه الإذن لما استأذنه في القعود قبل أنَّ يتبيّن من هو صادق منهم في عذره الذي أبداه ومن هو كاذب فيه))(٢).

وفي تفسير القاسمي تنبيهات بصدد هذه الآية الكريمة، يقول في التنبيه الأول (اعلم أنّ في تصديره تعالى خاتمة الخطاب ببشارة العفو من دون ما يوهم العتاب من مراعاة جانبه (عليه الصلاة والسلام)، وتعهد بحسن المفاوضة، ولطف المراجعة ما لا يخفى على أولي الألباب)(٣).

ثم يدفع شبهة من يرى أنّ العفو نتيجة الذنب ويرى (أي القاسمي) أنّ الواجب تفسيره بما يناسب المقام، ثم يستدل على ذلك بقول الشهاب والسخاوند والقاضي عياض إذ يقول: (قال الشهاب: وهو يستهل إذ لا ذنب، كما تقول لمن تُعظّمه: عفا الله عنك ما صنعت في أمري، وقال السخاوند مشيراً إلى هذا التعظيم، ولولا تصدير العفو في الخطاب لما قام بصولة العتاب، وقال القاضي عياض في (الشفاء) وأما قوله تعالى: { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } (التوبة / ٤٣) فأمر لم يتقدم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه من الله نهي فيعدّ معصية

---

(١) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، عصمة الأنبياء ١٠٧ منشورات كتبي النجفي قم المقدسة (د.ت).

(٢) محمد بن علي بن محمد الشوكاني في فتح القدير ٢: ٣٦٥.

(٣) ظ: محمد جمال الدين القاسمي (ت ١٣٢٢ هـ) محاسن التأويل ٤: ١٤٣ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

ولا عدّة الله عليه معصية بل لم تعده أهل العلم معاتبة)[١].

وأمّا البيضاوي (ت ٧٩١ هـ) فيرى أنّ العفو في الآية المباركة كناية عن (خطئةٍ)[*] صلى الله عليه وآله وسلم في الأذن، فإنّ العفو من روادفه، ثم يرى أنّ الله سبحانه وتعالى قد عاتب نبيّه بقوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (التوبة/٤٣)[٢].

ويذكر القرطبي أقوالاً متعددة في تأويل هذه الآية وتوجيهها كقول المهداوي والنحاس ثم يذكر العتاب الوارد في الآية المباركة قائلاً: وهذا عتاب تلطُّف[٣].

وينضمُّ القُشيري إلى المفسرين القائلين إنّ ذلك (من باب ترك الأولى) إذ يرى أنّ في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ (التوبة/٤٣) لم يكن منه صلى الله عليه وآله وسلم فرق حدّ أو تعاطي محظور وإنما يُنتظر منه إلاّ يترك ما هو أولى وهو ترك الأذن لهم لكنّه صلى الله عليه وآله وسلم ترك ما هو أولى وأفضل ليس إلاّ؛ فلذا قدّم الله سبحانه ذكر العفو على الخطاب المتضمن صورة العتاب بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (التوبة/٤٣)[٤].

وقال الإحسائي: ((وهذا من لطيف المعاتبة، وإن كان العتاب على فعلٍ جائز مثل المراد في هذه الآية، وليس العفو متعلّق إلاّ التلطف في العتاب، لأنّه يقول له: لو إذنت لهم في القعود ليتبيّن لك الصادقون من الكاذبين يعني لعَرفَ مَن

(١) المصدر نفسه: ٤: ١٤٣.

(*) الأولى أن يقال: كناية عمّا بدر منه في إطلاق الأذن لهم.

(٢) ظ: ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٢ هـ) تفسير البيضاوي ٣: ١٤٨، الأعلمي بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٣٠.

(٤) أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٥ هـ) تفسير القشيري ١: ٤٢٤ دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ١، ١٢٤٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

يقعد عن عذرٍ وعن غير عذر، وهذا إرشادٌ له لأجل استبصاره بهم وليس ذنباً، وإنّما قصاره أنًّ يكون ترك الأولى))[1].

ومن كبار المفسرين المحدثين السيد الطباطبائي رحمه الله يرى أنّ: ((مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب على المخاطَب وتوبيخه والإنكار عليه كأنّه هو الذي ستر عليه فضائح أعمالهم وسوء سريرتهم وهو نوع من العناية الكلامية يتبيّن به ظهور الأمر ووضوحه لإيراد أزيد من ذلك فهو من أقسام البيان على طريق (إياك أعني واسمعي يا جارة) فالمراد بالكلام إظهار هذه الدعوى لا الكشف عن تقصير النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم))[2].

ومن الآيات الأخرى التي يرى المفسرون أنّ فيها عتاباً للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التحريم / ١).

فقد ورد في سبب نزول هذه الآية روايات عدّة أشار كلّ منها إلى انّ النبيّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم قد حرّم على نفسه شيئاً عاتبه الله عليه.

لكن الشريف المرتضى رحمه الله لا يرى أنّ هنالك ما يشير إلى عتاب النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ ((ليس في ظاهر الآية ما يقتضي عتاباً وكيف يعاتبه الله تعالى على ما ليس بذنب، لأنّ تحريم الرجل بعض نسائه لسبب أو لغير سبب ليس بقبيح ولا داخل في جملة الذنوب، وأكثر ما فيه أنّه مُباح، ولا يمتنع أنَّ يكون قوله تعالى: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾ (التحريم/١)

---

(١) الشيخ أحمد بن زيد الدين الإحسائي العصمة، ٤٣، منشورات مكتبة العلامة الحائري، كربلاء ط٢، ١٣٩٠ هـ.

(٢) الميزان ٩: ٢٨٥.

خرج مخرج التوجّع من إذ يتحمّل المشقة في إرضاء زوجاته وإن كان ما فعل قبيحاً...)[١].

ونطالع نصّاً للشيخ الطوسي رحمه الله بصدد الآية هو قوله: ((هذا خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على تحريم ما أباحه الله له وأحلّه له، ولا يدلّ على أنّه وقعت منه معصية لأنّ العتاب قد يكون على أمر قد يكون الأولى خلافه))[٢].

أما الشيخ الطبرسي رحمه الله فهو لا يرى في الآية دلالة على وقوع ذنب منه صلى الله عليه وآله وسلم صغيراً كان أو كبيراً[٣].

والفخر الرازي لا يرى في الآية عتاباً عن ذنب بل هو عتاب تشريف قائلاً: ((وامّا العتاب فإن النهي عن فعل ذلك لاتقاء مرضاة النساء أو ليكون زجراً لهنّ عن مطالبته مثل ذلك))[٤].

والمفسر الصاوي يستدل على العتاب في الآية الكريمة قائلاً: ((هذا الخطاب مشعرٌ بأَنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم على غاية من التفخيم والتعظيم إذ عاتبه على إتعاب نفسه والتضييق عليها من أجل مرضاة أزواجه))[٥].

---

(١) تنزيه الأنبياء: ١٦٨.

(٢) أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، التبيان ١٠: ٤٤ تحقيق أحمد حسن قصير العاملي، مكتب الأعلام الإسلامي، قم ط ١، ١٤٠٩ هـ.

(٣) ظ: مجمع البيان ١٠: ٣٩٩، هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن ٩: ٥٦٧.

(٤) عصمة الأنبياء: ١١١.

(٥) ظ: العلامة الشيخ أحمد بن محمد الصاوي المصري المالكي، حاشية الصاوي ٤: ٢١١ تحقيق محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط ٤، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، المولى فتح الله بن شكر الشريف الكاشاني (ت ٩٩٨ هـ)، زبدة التفاسير ٧: ١٠٨ نشر مدرسة المعارف الإسلامية ط١، ١٤٣٣ هـ، الصابوني، صفوة التفاسير ٣: ٣٨٣ – ٣٨٤.

ومن مفسري الصوفية القشيري الذي ذكر قائلاً: ((جاء في القصة أنّ النبيّ حرّم على نفسه مارية القبطية وفي الحال حلف إلاّ يطأها شهراً مراعاةً لقلب حفصة إذ رأت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم معها في يومها، وقيل حرّم على نفسه شرب العسل لمّا قالت له زوجاته إنّا نَشَمُّ منك ريح المغافير والمغافير صمغٌ في البادية كرية الرائحة، ويُقال بقلة كريهة الرائحة فعاتبه اللهُ على ذلك))[1].

ومن المفسرين المتأخرين الطباطبائي رحمه الله أعرب قائلاً: ((خطاب مشوب بعتاب لتحريمه صلى الله عليه وآله وسلم على نفسه بعض ما أحلّ الله له، ولم يصرّح تعالى به، ولم يتبيّن أنّه ما هو؟ وماذا كان؟)[2].

غير أنّ { تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ } (التحريم/١) يراها قرين على أنّ العتاب بالحقيقة متوجّه إليهُنّ))[3].

وجاء في بعض الروايات ما يدعم هذا التوجيه إذ أفادت بعض تلك الروايات أنّ شائعات انتشرت مفادها أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عازم على طلاق زوجاته، وهو أمرٌ أدى إلى كثرة المخاوف فيما بينهنّ وندمن بعدها على فعلهن[4].

---

(١) ظ: تفسير القشيري: ٣: ٣٣٢ مصدر سابق.
وانظر كذلك الفيروز آبادي: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ٦٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، صحيح البخاري: ٨٩٩ مصدر سابق، أبو زكريا يحيى بن شرف النوري الدمشقي (ت ٦٧٦) صحيح مسلم بشرح النووي ٥: ٦٤ كتاب الطلاق تحقيق صدقي العطار، دار الفكر، بيروت – لبنان ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، سنن النسائي ٥٧٨، البيضاوي ٤: ٢٩٢ مصدر سابق.
(٢) الميزان: ١٩: ٣٢٩ – ٣٣٠.
(٣) المصدر نفسه ٣٣٠.
(٤) سيد قطب في ظلال القرآن ٨: ١٦٣ دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط ٧، ١٣٩٠ هـ ←

ويتوجه مُحَمَّد جواد مغنية رحمه الله إلى فهم العتاب في الآية فيقول: ((ومهما قيل عن سبب النزول فإنّ ظاهر الآيات يدلّ بوضوح على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان قد إمتنع عن شيء أحلّه الله بسبب من الأسباب وأنه قد أسرّ بذلك إلى بعض أزواجه وأمرها بالكتمان، ولكنها خالفت أو فشت فعاتب الله سبحانه نبيّه الكريم على إشاعة عمّا أحله الله له، وهدّد أزواجه اللائي لا يستمعن إلى أمره))[1].

وغنّي عن البيان أنّ الآية الكريمة بما حوته من بلاغة وعمق جعلت المفسرين يذهبون مذاهب شتى في توجيه المعنى على أنّنا نرى أنَّ ظاهر الآية أفاد عتاباً دقيقاً عبّرت عنه صيغة الاستفهام الصريحة { لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ } (التحريم/١) ويبقى المغزى من هذا التوجيه الإلهي الوطيد الصلة بأزواج النَّبي سرّاً من أسرار التعبير القرآني وهدفاً دينياً عميقاً.

ومن الآيات قوله تعالى: { عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى... } (عبس/١-٢) التي نجد الشريف المرتضى رحمه الله يوجه معنى الآية المباركة قائلاً: (أمّا ظاهر الآية فغير دال على توجيهها إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولا فيها ما يدلّ على أنّهُ خطاب له، بل هي خبرٌ محضٌ لم يُصرّح بالمخبر عنه، وفيها ما يدلّ على التأمل على أنّ المعنيّ بها غير النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم)[2].

وثمة اتجاه جمع في فهم السورة بين العتاب وعدمه ومن أصحاب هذا الاتجاه

- ١٩٧١ م.

(١) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف ٧: ٣٦١ – ٣٦٢ دار العلم للملايين، بيروت – لبنان ط٣، ١٩٨١ م.

(٢) تنزيه الأنبياء: ١٦٦، مصدر سابق.

الطبرسي رحمه الله الذي يرى أنّها نازلةٌ في النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إذ نقل ما ورد في سبب نزولها واجتماع صناديد قريش عنده صلى الله عليه وآله وسلم وانشغاله بدعوتهم إلى الإسلام... فجاء ابن أم مكتوم وهو لا يعلم تشاغلَهُ بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قطعه لكلامه صلى الله عليه وآله وسلم فعبس وأقبل على القوم يكلمهم فنزلت الآية، وينص الطبرسي رحمه الله مؤيداً نوعية الخطاب بأنّه عتبٌ بحقه صلى الله عليه وآله وسلم عندما يورد قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عندما يزوره ابن أم مكتوم ((أهلاً بمن عاتبني فيه ربي))[1].

بيد أنّ الطبرسي رحمه الله نفسه في مؤلف آخر يستبعد إسناد العبوس إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ذلك أنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم مُنزّه من البارئ جلّ وعلا[2].

ونرى أنّ تأمل الطبرسي رحمه الله للآية ومحاولة استمكان سرّ التعبير فيها دفعه إلى إعادة قراءتها معتمداً السياق وما صرّحت به آيات أخرى في تنزيه النَّبي مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم كقوله سبحانه: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى... ﴾ (النجم/٣ - ٤).

على أنّ بعض المفسرين من ذهب إلى أنّ الآية المباركة نزلت في عثمان بن

---

(١) ظ: الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٩) جوامع الجامع ٤: ٨٠٦ تحقيق مؤسسة دار النشر الإسلامي قم، ط ٣ ١٢٤٠ هـ. ظ: ابن عطية الاندلسي (ت ٥٤٦ هـ)؛ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥: ٤٣٥ تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

(٢) مجمع البيان: ١ / ٥٥٧ مصدر سابق.

عفان لأنّه، عبس وأعرض عن الأعمى...[1].

كما نرى أنّ هذا ليس ببعيد إذ إنّه بشر وغير معصوم مع إمكان صدور الخطأ والذنب منه وقد ضبط أصحاب الحديث والسير ما خالف به إلى أبعد من ذلك في أثناء خلافته وقبلها.

ومنهم من رأى أنّها في رجل من بني أُميّة[2].

وخلاصة الأمر – ومهما اختلف المفسرون في سبب نزول الآية وتوجيه المراد منها –: إنّ الآية تشير إلى عتاب قد حصل وليمَ عليه فاعله.

ومما يمكن بحثه في موضوع عتاب الله لنبيه الكريم مُحَمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ... ﴾ (الأحزاب / ٣٧).

اختلف المفسرون في مضمون هذه الآية المباركة من جهة الخطاب الموجّه إلى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أكان يحمل عتاباً أم لا؟

ولنبدأ بتفسير الإمامية في توجيه المعنى الذي تضمنه النصّ الكريم فالشريف

(١) ظ: علي بن إبراهيم بن هاشم القمي (ت ٣٠٧) تفسير القمي ٢: ٤٠٤ مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر قم ط ٣، البرهان في تفسير القرآن ١٠: ١٨٠، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ) تفسير الصافي ٥: ٢٨٤، دار المرتضى للنشر، مشهد ط ١، الشيخ عبد علي بن جمعه العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ) نور الثقلين ٥: ٥٠٨، المطبعة العلمية، قم ط ٢، مير سيد علي الحائري الطهراني، (ت ١٣٤٠ هـ) مقتنيات الدرر دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٣٧ ش. هـ.

(٢) ظ: الطبرسي: مجمع البيان: ٥ / ٤٣٧، البرهان: ١٠ / ١٨١، المولى نور الدين محمد بن المرتضى الكاشاني (ت ١١١٥ هـ) المعين ٣: ١٦٣ مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ط ١، قم.

المرتضى رحمه الله بعد أنَّ يأتي على تفصيلات القصّة المتعلقة بالآية المباركة يقول: ((أكثر ما في الآية إذا سلّمنا نهاية الإقتراح فيها أنَّ يكون صلى الله عليه وآله وسلم فَعَلَ ما غيره أولى منه وليس أنَّ يكون صلى الله عليه وآله وسلم بترك الأولى عاصياً))[١].

ويستفيد الطبرسي رحمه الله من تأويل رواية الإمام علي بن الحسين عليه السلام بأنّها مطابقة لتلاوة الآية (على أنّه إنما عوتب على قوله { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } (الأحزاب/٣٧) مع علمه بأنّها ستكون زوجه.. [٢]

ومن متأخري الإمامية السيد الطباطبائي رحمه الله يعلّق على النصّ الكريم قائلاً: ((فظاهر العتاب الذي يلوح منه قوله تعالى: { وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } (الأحزاب/٣٧) مسوق لانتصاره وتأييد أمره قبال طعن الطاعنين ومن في قلوبهم مرض))[٣] ثم يورد دليلاً قرآنياً على أنّه انتصار وتأييد في صورة العتاب قوله تعالى: { فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا } (الأحزاب/٣٧)[٤].

وعدا الإمامية نجد الزمخشري في توجيه معنى الآية المباركة راداً على من يرى أَنَّهُ لِمَ لم يعاتب الله نبيه مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك ويأمره بقمع الشهوة وكفّ النفس عن التنازع إلى زينب وتتبعها، فهو يرى: أنّه كم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي من إطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح وحلال

(١) ظ: تنزيه الأنبياء ١٥٦، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، أمالي المرتضى ٢: ٣٣١ – ٣٣٢ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، انتشارات ذوي القربى ط١، ١٣٨٤ هـ.

(٢) مجمع البيان ٨: ٤٦٦ – ٤٦٧.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٦ / ٣٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٦ / ٣٢٣.

مطلق ولا مقال فيه ولا عيب عند الله، ويرى هذا المفسرّ أنّ المصلحة العامة هي الغالبة في هذه القصة، فبالأحرى أنَّ يعاتب الله رسوله حين كتم الأمر وبالغ في كتمه بقوله: { أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ } (الأحزاب/٣٧)[١].

ونرى فيما ذكره الزمخشري ملاحظة صائبة تستحق الوقوف عندها ذلك لأنّها منطلقة من قراءة عميقة للنص القرآني وإحاطة بأسباب نزول الآية وفهم ملابسات الحادث وارتباطها بالظروف المحيطة بشخصية المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

والبيضاوي يقول: ((ليست المعاتبة على الإخفاء وحدَه فإنّه حَسَن بل على إخفاء مقالة الناس وإظهار ما ينافي إضماره فإنّ الأولى في أمثال ذلك أنَّ يصمتَ أو يفوّض الأمر إلى ربه))[٢].

وينحو مُحَمَّد الغزالي – وهو من المتأخرين – في توجيه معنى الآية، منحىً آخر إذ لا يرى أنَّ هناك عتاباً ويعجب ممن ذهب إلى أنّ في الآية عتاباً إذ يقولُ: إنّهم زعموا أنّ الآية جاء فيها عتابٌ له على هذه العاطفة المكبوتة ونحن نعجب أشدّ العجب لهذا الخبط الهائل ثم أنّه يذهب إلى نوع من القياس إذ يرى أنّ الله لا يعاتب أحداً على كتمان حب طائش فكيف والنبي قد أتعب نفسه وتأذى لأجل ذلك[٣].

ولنأخذ في ختام هذا المبحث الآية السابعة والستين من سورة الأنفال لنقع على ما لعلّه يفهم منه العتاب مستندين إلى آراء المفسرين كلّ بحسب اتجاهه، قال

(١) الكشاف: ٣ / ٥٥١ – ٥٥٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢ / ٣٨٤.

(٣) فقه الشريعة – منشورات عالم المعرفة، ٤٧٤ – ٤٧٥.

سبحانه وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الانفال/ ٦٧).

الاتجاه الأول: يذهب إلى أنّ العتابَ في الآية الكريمة متوجه إلى النبيّ مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم ومن القائلين بهذا التفسير الواحدي إذ يرى أنّ الآية الكريمة نزلت عتاباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ أنكر الله عزّ وجلّ على نبيّه ذلك[١].

وكذلك يذكر البغوي في تفسيره لعتاب الله لنبيه في سورة الأنفال استطراداً في معرض تفسيره لسورة التوبة إذ يقول: ((قال عمر بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذنه للمنافقين وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه الله))[٢].

الاتجاه الثاني: يرى أصحابه أنّها نزلت عتاباً لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومنهم القرطبي الذي يرى أنّها نزلت يوم بدر عتاباً من الله عزّ وجلّ لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [٣].

أما الزمخشري فيذكر أنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بكى حزناً على أصحابه لأخذهم الفداء يوم بدر[٤].

(١) ظ: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨ هـ) أسباب النزول ١: ٤٤٨ مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

(٢) أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٤)، معالم التنزيل أو تفسير البغوي ٢: ٢٥١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤: ٦١.

(٤) الكشاف: ٢ / ٢٤٤ – ٢٢٥ (مصدر سابق ذكره)، وأنظر كذلك: الميزان، الطباطبائي: ١٣٦/٩.

والاتجاه الثالث: يمثله القائلون أنّ في الآية الكريمة شمولاً لعتاب النَّبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ومن أولئك أبو السعود الذي يراها شاملةً لعتابها النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إذ إنّ المفسّر توصّل إلى ذلك بدلالة قوله تعالى: **{ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا }** (الأنفال/٦٧) فقال: **(**استئناف مسبوق للعتاب أي تريدون حطامها يأخذكم الفداء...**)**[١].

ويذهب الرازي إلى ترجيح أنّ العتاب هنا لترك الأولى، والأولى في ذلك الوقت الإثخان وترك الفداء قطعاً للنزاع ولولا أنّ ذلك من باب الأولى لِما فوّض النبيّ ذلك لأصحابه[٢].

ثم يرى أنّ الخطاب في قوله: **{ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا }** (الأنفال/٦٧) خطاب جمع يصرف ذلك إلى القوم الذين رغبوا في المال[٣].

بيدَ أنّ مفسراً آخر لا ينتمي إلى الاتجاهات الثلاثة هو الشريف المرتضى رحمه الله ينفي أنَّ يكون من الآية عتاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك لأنّه من القائلين بالعصمة المطلقة فهو يقول في هذا الصدد: **((**ليس في الآية ما يدلّ على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم عوتِب في شأن الأسرى بل لو قيل إنّ الظاهر يقتضي توجيه الآية إلى غيره لكان أولى فلذا يرى أنّ المعاتب سواه**))**[٤].

ويوجه الطبرسي رحمه الله الخطاب العتابي في قوله تعالى: **{ تُرِيدُونَ عَرَضَ**

---

(١) أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٤: ٣٥.

(٢) عصمة الأنبياء: ١٠٦.

(٣) المصدر نفسه: ١٠٦.

(٤) تنزيه الأنبياء: ١٥٨ أمالي المرتضى: ٢ / ٣٣٢.

الدُّنْيَا﴾ (الأنفال/٦٧) إلى غيره من المؤمنين الذين رغبوا في أخذ الفداء من الأسرى[1].

نماذج من عتاب الأنبياء عليهم السلام غير أولي العزم

توطئة

درسنا في المبحث السابق الآيات الكريمات التي قد يفهم منها عتابُ الله سبحانه وتعالى لأنبيائه من أولي العزم (صلوات الله وسلامه عليهم)، ووقفنا وقفاتٍ متأنيةً عند مناقشة العلماء والمفسرين لدلالات تلك الآيات، وعرض أسباب نزولها مبينين آراءنا فيما رجحنا أنّه الصواب في توجيه دلالات الخطاب القرآني الذي يُفاد من كلامه سبحانه وتعالى، وسعة شموله لمعاني العتاب ومرادفاته. ونحن من كلّ ذلك نحكّم قراءتنا للنصّ القرآني ونستفيد مما كتبه الدارسون القدماء والمحدثون وصولاً إلى البحث عن مغزى تلك الآيات الكريمات ولاسيّما أنّ موضوع عصمة الأنبياء عليهم السلام قد يبدو متعارضاً مع توجيه العتاب واللوم والتقريع لصفوة الخلق وهم الصفوة المختارة المنزّهون عن الخطأ.

ونتّبع في هذا المطلب من المبحث منهجنا في معالجة الآيات التي فهم منها أنها في عتاب الأنبياء عرضاً وتحليلاً ومناقشة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

عتاب النبيّ آدم عليه السلام

الآية الكريمة: قال سبحانه وتعالى: ﴿... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأعراف / ٢٢).

---

(١) مجمع البيان: ٤ / ٦٩.

للمفسرين في هذه الآية أقوال وتوجيهات شتى فمن قائلٍ إنّ في الآية عتاباً بيّناً على ما ارتكبه آدم عليه السلام من مخالفة وعصيان، ومن أبرز أولئك المفسرين الطبرسي رحمه الله الذي قال: ((قالا: أي آدم وحواء عليهما السلام لما عاتبهما الله سبحانه ووبخهما على ارتكاب النهي عنه))[1].

والفخر الرازي يرى أنّ آدم عليه السلام قد أخطأ في الاجتهاد لاشتباه الأمر عليه فهو يقول: ((فآدم عليه السلام اشتبه عليه الأمر... إلاّ أنّ المجتهد إذا أخطأ في الفروع لم يكن صاحب كبيرة))[2].

ويذهب الزمخشري إلى تأكيد ورود العتاب في الآية: ((عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ إذ لم يتحذرا مما حذرّهما من عداوة إبليس..))[3].

ونحن نوافق هؤلاء المفسرين فيما ذهبوا إليه إذ رأوا أنّ في خطابه جلّ أمره – عتاباً لنبيه على ما حصل منه ومن حواء، ومما يعزز هذا التوجيه لدلالة الآية ما يتضمنه النصّ الكريم من استفهام قويّ على مخالفة النهي إذ طلب سبحانه من آدم وحواء ترك التقرب من الشجرة المحددة **{ ... وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ }** (البقرة/٣٥).

فأين هذا النهي من مخالفته ومباشرة الأكل والتناول من الشجرة نفسها؟ ولم يصمد أيّ تأويل أمام مدلول هذا التركيب القرآني ولاسيّما أنّ البارئ عزّ وجلّ قد

---

(١) مجمع البيان: ٤: ٥٠٦.

(٢) عصمة الأنبياء: ١٩.

(٣) الكشاف: ٢ / ٩٩ وقد ذهب مفسرون كُثر هذا المذهب منهم على سبيل المثال: البيضاوي: تفسير البيضاوي ٢: ٣، تفسير القمي ٢: ٣، أبو السعود تفسير أبي السعود ٣: ٢٢١، الشوكاني فتح القدير ٢: ١٩٥، محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٨: ٣٥ دار الفكر، بيروت – لبنان ط٢.

عاقب نبيه وزوجه بهذه العقوبة الكونية إذ أمرهما بأن يهبطا من الجنة وقد قال عزّ من قائل في سياق هذا الحديث الكوني: { قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } (الأعراف/٢٤).

يتبيّن من دلالة الآيات أنّ عتاباً وتوبيخاً يهيمن على معاني الآيات من خلال الحوار الجليل الذي يسيّر مغزى النص القرآني وهو حوارٌ قائم على التعليل وتكثيف الأدلة المفضية إلى تخطئة مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى بالابتعاد عن الشجرة المنوّه بها في كلامه جلّ وعلا.

وثمة جملة من المفسرين القدماء والمحدثين من حاولوا أنَّ ينأوا بالآية عن معاني العتاب واللوم والتوبيخ ومن أولئك المفسرين الطوسي رحمه الله إذ قال في مسألة عتاب الله سبحانه وتعالى لنبيه آدم عليه السلام إنّ ((آدم لم يرتكب قبيحاً وإنّ ما توجه إليه بصورة النهيّ كان المراد به ضرباً من الكراهية من دون الحصر، وإنّما قلنا ذلك لقيام الدلالة على عصمتها من سائر القبائح صغائرها وكبائرها فعلى هذا لا يحتاج إلى أنَّ نقول إنّها تأويل فأخطأ على ما قاله البلخي والرماني أو وقع منهما سهواً على ما قاله الجبائي))[1].

وواضح الوضوح كلّه أنّ الذي دفع الطبرسي رحمه الله إلى هذا التأويل هو أنّه قيد نفسه بالقول بالعصمة المطلقة للأنبياء وتنزيههم من سائر القبائح صغيرها وكبيرها كما ذكر هو متغافلاً عن سياق الآيات المتممة لهذا الحدث والمشيرة إلى ما أفضت إليه مخالفة آدم عليه السلام وزوجه لما نهى الله عنه من هبوطهما المعنوي والمكني (إلى الأرض).

ومهما يكن من شيء فإنّ تلك الآيات لابّد ألاّ تدرس بمعزل عن سياق

(١) التبيان: ٤ / ٣٧٣.

السور القرآنية ووحدها البنائية وألاّ يعوّل المفسّر على ظاهر النصّ القرآني إذ إنّ لكثير من آيات الله وجوهاً يعزّ تبيّنها على المفسر والنّقيد فكيف بمن لا يتأمل الدلالة العميقة للنص القرآني.

عتابُ النبيّ يونس عليه السلام

قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (الصافات / ١٢٤).

في بادئ الأمر لابد لنا أنَّ نتبيّن معنى مفردة (يُلم) الواردة في النصّ الكريم لنقف موازنينس ومعقبين على ما ذكره مفسرو الآية بحسب اتجاهاتهم الفكرية ونزعاتهم العقلية.

في معجم مقاييس اللغة (المليم) الذي يستحق اللوم[١]، كما في لسان العرب: لامه على كذا يلومه لوماً... فهو ملوم ومليم استحق اللوم حكاه سيبويه[٢]،وكذلك في تهذيب اللغة للأزهري: ألام الرجل فهو مليم، إذا أتى ذنباً يلام عليه[٣]، وكذا في مجمع البحرين «مليم» من ألام الرجل أتى بما يلام عليه[٤].

وأمّا الراغب الاصفهاني فقد قال: ألام: استحق اللوم[٥].

وقال تعالى: ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (الذاريات / ٤٠).

---

(١) مقاييس اللغة: مادة (لوم).

(٢) لسان العرب: مادة (لوم).

(٣) ظ: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠ هـ) تهذيب اللغة ١٥: ٣٩٩، مادة لوم (د.ت).

(٤) الشيخ الطريحي (ت١٠٨٥ هـ) مجمع البحرين مادة «لوم تحقيق أحمد الحسيني مكتب نشر الثقافة الإسلامية ط٢، ١٤٠٨ هـ - ١٣٦٧ ش.

(٥) مفردات الراغب: مادة لوم تنظر الذاريات: ٤٠.

ومفسرو الإمامية ومنهم الطوسي رحمه الله الذي رأى أنّ يونس عليه السلام أتى بما يُلام عليه فقال في تفسير الآية الكريمة مادة الذكر المعنى: (أتى بما يلام عليه وإن وقع مُكفراً عنه من قال بتجويز الصغائر على الأنبياء عليهم السلام وعندنا قد يلام على ترك الذنب)[١]، والظاهر منه هنا هو ترك الأولى.

وقال الطبرسي رحمه الله مفسراً هذه الآية المباركة (مستحق للوم، لوم العتاب لا لوم العقاب على خروجه من بني قومه من غير أمر ربّه، وعندنا أنّ ذلك إنّما وقع منه تركاً للمندوب وقد يلام الإنسان على ذلك المندوب)[٢].

وذهب المفسران الكبيران الطوسي والطبرسي رحمهما الله إلى أنّ الظلم الذي نسبه يونس عليه السلام لنفسه كان من باب ترك الأولى فهو مستحق للوم من قبل الله عزّ وجلّ)[٣].

وإلى ما يشبه هذا التوجيه ذهب مفسرون آخرون منهم الفيض الكاشاني[٤] العاملي[٥] وعبد الله شبر[٦] والطباطبائي[٧] وأمثالهم وواضحٌ جلي أنّ مفسري الإمامية يذهبون إلى أنّ ما ورد في الآية الكريمة هو الملاطفة في العتاب بترك الأولى.

أما المفسرون من غير الإمامية فقد وقفوا عند هذه الآية دارسين سبب نزولها

---

(١) التبيان: ٨ / ٥٢٩.

(٢) مجمع البيان: ٨ / ٥٩١.

(٣) ظ: التبيان: ٧: ٤٧٤.

(٤) تفسير الصافي: ٤: ٢٨٣.

(٥) تفسير الوجيز: ٣: ٨٨.

(٦) السيد عبد الله شبر (ت ١٢٤٢ هـ) تفسير القرآن الكريم ص ٥٠٠، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م.

(٧) الميزان ١٧: ١٦٣.

ونـاظرين في المعـنى اللغـوي لكلمـة (مُلـيم) وارتباطهـا في سـياق الـنصّ القـرآني، فالطبري يرى قوله تعالى: { وَهُوَ مُلِيمٌ } (الـصافات/ ١٤٢) أي مكتـسب اللـوم، يقال ألام الرجل إذا أتى بما يُلام عليه مـن الأمـر وإن لم يُلَـم كما يقـال أصـبحت محمقاً معطشاً أي عندك الحمق والعطش ثم يستشهد بعد ذلك بقول لبيد(١).

مفهماً عذلتَ ولمت غير مليم وهـداك قبـل اليـوم غـير حكيم

فأمّا اللوم فهو الـذي يـلام باللـسان ويُعـذل بـالقول.. ثم بعـد هـذا يقـول: حدّثني يونس قال: أخبرنا وهب قال: قال أبي زيد في قوله وهو مليم مذنب، قال والمليم المذنب(٢).

والزمخشري قال معلقاً على الآية ((داخل في الملامة، يقال ربّ لائـم ملـيم، أي يلوم غيره وهو أحق منه باللوم ثم يقول: وقرئ (ملـيم) بفـتح المـيم، مـن لـيم فهو مليم(٣).

أمّا القرطبي فيرى أنّه عليه السلام ((أتى بما يلام عليه فأما الملوم فهـو الـذي يُلام استحق ذلـك أو لم يـستحق ثم يقـول: ((وقيـل: المليـم المعيـب، يُقـال: لام الرجل إذا عمل شيئاً مضاراً معيباً بذلك العمل(٤).

والبيضاوي يقـول مفـسراً الآيـة الكريمـة: داخـل في الملامـة أو آتٍ بمـا يـلام

---

(١) ظ: ديوان لبيد بن ربيعة تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، ظ تاج العروس، الزبيـدي ج١٧، ص ٦٦٢.

(٢) ابن جرير الطـبري (ت ٣١٠ هــ)، جـامع البيـان عـن تأويـل القـرآن ٢٣: ١١٧، تحقيـق خليـل الميس، دار الفكر، بيروت – لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

(٣) الكشاف ٤: ٦٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٨: ٨١.

عليها أو مليم نفسه[١] والبغوي يرى الرأي نفسه[٢].

ولا حاجة بنا إلى أنَّ نقول أنّ الآية المباركة حملت لوماً، ولاسيمّا أنّ أغلب المفسرين ذهبوا إلى هذا التوجيه، وأنّ المعنى اللغوي للمفردة (مليم) يشير إلى وقوع اللوم إثرَ ما ارتكبه النبيّ مما يُلام بسببه، كما أنّ لهذه المفردة استعمالات شتى في لغة العرب نثرهم وشعرهم تدل إلى هذا المعنى، والقرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليبهم من القول فلا ينبغي أنَّ نتأول ما كان واضحاً من دلالته وتسنده أسباب النزول ومقتضى الحال.

عتابُ النبيّ داود عليه السلام

ولعلّ أبرز ما يُثار في موضوع عتاب الله سبحانه وتعالى لنبيه داود عليه السلام ما ورد في سورة (ص) إذ قال جلّ ذكره:

{ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ } (ص /٢١-٢٥).

هذه الآيات ناطقات بالعتاب المنزّل وليس ثمة تأويل يقف حائلاً من دون

---

(١) البيضاوي: ٥: ٢٧.

(٢) البغوي: ٤: ٤٣.

دلالة هذا النص على العتاب الغليظ بدلالة قوله سبحانه: ﴿ ... فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ (ص/٢٤) إذ إنّ هذا النوع من الاستغفار المشفوع بالركوع والإنابة يأتي في سياق القصة القرآنية المتضمنة لما حدث للنبي داود عليه السلام من سلوك يُوجب هذا الاستغفار والندم وقد حصل هذا العتاب الشديد في إطار تنبيه النَّبي داود عليه السلام من خلال إرسال الملكين (المتخاصمين) على سبيل التجربة وكشف سريرته عليه السلام ومستوى ردوده على المتخاصمين وهل باستطاعته أنَّ يهديهما إلى سواء الصراط الذي حاد عنه هو؟ فما أروع هذه الصورة من العتاب المعبّر!

ولذا نكتفي بما ورد في تحليل بعض المفسرين القداماء وهم يعرضون لنا مضامين هذا الحوار القرآني من خلال قصة النَّبي داود عليه السلام مع (المتخاصمين) فالشريف المرتضى رحمه الله يذكر أنّ من ذهب إلى أنّ النَّبي داود عليه السلام قد عاتبه البارئ عزّ وجلّ فللأمور عدة أمور منها:

((إنّ أوريا بن حنّا لّما أخرجه في بعض ثغوره قُتل، وكان داود عليه السلام عالماً بجمال زوجته فمالت نفسه إلى نكاحها بعده، فقلّ غمّه بقتله لميل طبعه إلى نكاح زوجه، فعوتب على ذلك بنزول الملكين من إذ حمله ميل الطبع، على أنَّ قلّ غمّه بمؤمن قُتل من أصحابه[1] ونرى أنّ الطبرسي هنا ناقلٌ وليس بمتبنٍ لأنّه يدرك أنّ الإسرائيليات احتلت دوراً كبيراً في إمالة الحديث عن مساره الصحيح.

كما روي أنّ إمرأة خطبها أوريا بن حنّا ليتزوجها وبلغَ داود عليه السلام

---

(١) تنزيه الأنبياء: ١٣٠.

جمالها فخطبها أيضاً فزوجها أهلها بداود وقدّموه على أوريا وغيره، فعوتب عليه السلام على الحرص على الدنيا...[1].

ويورد المفسر الطبرسي رحمه الله وجوهاً منشؤها الاختلاف ذكر فيها سبب العتاب المتوجه منه سبحانه وتعالى إلى عبده ونبيه داود عليه السلام[2].

ويرى الزمخشري: أنّ هذه القصّة كانت بالغة التوبيخ بحقّ النبيّ داود عليه السلام[3].

(١) المصدر نفسه: ١٣١.
(٢) مجمع البيان: ٨: ٦٠٧.
(٣) الكشاف: ٤: ١٤.

المبحث الثاني: نماذج من آيات عتاب الله لسائر الناس

عتاب زوجات النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم

لقد ورد العتاب لزوجات النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم في أكثر من مورد وموقف وكان الخطاب في معظم الآيات ذوات المورد عتاباً شديداً وصل إلى مستوى التقريع والتوبيخ والتمثيل لهن بالكفر لما قمن به من أعمال لا تليق بهن كونهن زوجات المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أو لما قمن به من أعمال آذته صلى الله عليه وآله وسلم ومن هنا بدأ اللوّم والعتاب، عندما نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (التحريم / ٣).

وينقل المفسرون والرواة في سبب نزول الآية أنّه حينما أفضى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بعض أزواجه – حفصه بنت عمر بن الخطاب – حديثاً وأوصاها بكتمانه، فلما أخبرت به غيرها وأفشت السّر خلافاً لما وصاها به، وأعلم النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها أنبأت غيرها وأفشت السرّ عرفّ صلى الله عليه وآله وسلم بعضه وأعرض عن بعض آخر، فلما أنبأها الحديث قالت:

﴿ مَنْ أَنْبَأَكَ ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم: (نبأني وخبّرني العليم الخبير وهو الله العظيم)[١].

ويتأكد العتاب لزوجاته صلى الله عليه وآله وسلم عند قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ ﴾ (التحريم/٤) إذ يروى أَنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم قال لحفصة، ألم أقل لك اكتمي عليّ؟

قالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي[٢].

وهنا يقول الزمخشري معلقاً بقوله: قلت ليس الغرض بيان من المذاع إليه ومن المعرّف، وإنما هو ذكر جناية حفصة في وجوب الأنباء به وإفشائه من قبلها، ثم يرى أنّ العتاب جليٌّ عند قوله: ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ ﴾ (التحريم/٤) إذ أَنَّهُ خطاب لحفصه وعائشة على طريق الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما[٣].

ومما يشير إلى أنّ المعني بالعتاب هما زوجتا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حفصه وعائشة ما رواه البخاري بسنده عن عبد الله بن أبي ثور عن عبد الله بن عباس إذ قال: لم أزل حريصاً أنَّ أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم اللتين قال الله لهما ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ (التحريم/٤) فحججت معه، فعدل، وعدلت معه بالاداوة فتبرّز حتى جاء فسكبت على يديه من الإداوة فتوضأ فقلت: يا أمير المؤمنين مَنِ المرأتان من

(١) ظ: الطبرسي، مجمع البيان: ٩: ٤٠١، هاشم البحراني، البرهان ٩: ٥٦٧ الطباطبائي، الميزان ١٩: ٣٣١.

(٢) ظ: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨: ٣٣٨، صحيح البخاري ٩٠٠، الطوسي، الأمالي، ١٥١، الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل ٤: ١٣١ السيوطي، الدر المنثور ٦: ٢٣٨.

(٣) ظ: الزمخشري، الكشاف ٤: ٥٧٠، الرازي، مفاتيح الغيب ٣٠: ٤٠.

أزواج النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم اللتان قال لهما: { إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ } (التحريم/٤) فقال: وأعجباً لك يا ابن عباس: عائشة وحفصة[1].

واختلف في سبب نزول هذه الآية المؤدّية إلى هذا العتاب الشديد فمن قائل إنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا صلّى الغداة يدخل على أزواجه إمرأة إمرأة وكان قد اهديت لحفصة بنت عمر بن الخطاب عكّة من عسل، فكانت إذا دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حبسته وسقته منها وأنّ عائشة أنكرت احتباسه عندها، فقالت لجويّرية حبشيّة عندها، إذا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حفصة فادخلي عليها فانظري ماذا تصنع، فأخبرتها الخبر وشأن العسل، فغارت عائشة وأرسلت إلى صواحبها وأخبرتهن وقالت: إذا دخل عليكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلن إنّا نجد منك ريح المغافير – وهو صمغ كريه الرائحة – وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكره ويشق عليه أنَّ يوجد منه ريح غير طيبّة لأنّه يأتيه الملك، قال: فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على سودة، فقالت: فما أردت أنَّ أقول ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم إني فرقت ممن عائشة فقلت: يا رسول الله ما هذا الريح الذي أجد منك أكلت المغافير؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا ولكن حفصه سقتني عسلاً)) ثم دخل على أزواجه إمرأة إمرأة وهن يقلن له ذلك فدخل على عائشة فأخذت بأنفها فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أجد منك ريح المغافير، أكلتها يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا بل سقتني حفصة عسلاً))

---

(١) الهيثمي (٨٠٧ هـ) مجمع الزوائد ٥: ٨ دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م، العيني (ت ٨٥٥ هـ) عمدة القارئ ١٩: ٢٥٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان (د.ت).

فقالت: جرست أذن نحلها العرفط، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا والله لا أطعمه أبداً)) فحرّم على نفسه العسل(١).

ومن هذه المؤامرة المخجلة نشأ عتاب الأزواج.

وفي رواية البخاري أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصت حفصة وعائشة بشأن الرائحة(٢).

وقيل إنّ من مكث عندها وشرب العسل هي مارية القبطية فوقعت حفصة على ذلك فأفشته لعائشة(٣).

ولأجل ذلك عوتبت زوجات النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ما يراه الزمخشري وبعض المفسرين(٤).

ويصرح بعضهم بأن قوله تعالى: { فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ } (التحريم/٣) أي أعلمها وأخبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض الحديث الذي أفشته معاتباً لها، لأنّ من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات والتقصير في اللوم والعتاب، ثم يرى أنّ الخطاب كان لحفصة وعائشة بطريق الالتفات لهما كان ابلغ في معاتبتهما(٥).

---

(١) ظ: الطبرسي، مجمع البيان ١٠: ٣٩٨.

(٢) ظ: الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسن بن علي البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، السنن الكبرى ١١: ٢٥٤ تحقيق مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت – لبنان (د.ت).

(٣) ظ: الطوسي، التبيان ٤: ٤٣، الطبرسي، مجمع البيان ١٠: ٣٩٩، عبدوس بن أحمد السقاف العلوي الأندلسي المعروف بابن درويش، شواهد التنزيل ١٥٤، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم، ط ١، ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.

(٤) ظ: الزمخشري، الكشاف ٤: ١٢٧.

(٥) ظ: الميرزا محمد المشهدي بن محمد رمضان بن إسماعيل بن جمال الدين القميّ (ت ١١٢٥ هـ) ←

ويرى الكثير منهم أنّ العتاب فيها كان على السير من خطرات القلب، وعندما يصل إلى قوله ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ (التحريم/٤) يحصر العتاب الوارد هنا في زوجتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حفصة وعائشة ثم يؤكد زيادة العتاب لهن عند قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ (التحريم/٥)[1].

وموجب العتاب هو اتفاق هاتين المرأتين على إيذائه صلى الله عليه وآله وسلم والتظاهر عليه وحق عليها التوبة والرجوع إلى الخالق[2].

وتبين مما مر أنَّ هناك نوعاً من الاتفاق بين أغلب مفسري المذاهب الإسلامية على أنّ العتاب والتوبيخ قد ورد صريحاً تجاه زوجات النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وخصوصاً تجاه حفصة وعائشة.

→

كنز الدقائق، ١٣: ٣٢٨، مؤسسة الطباعة والنشر، إيران – قم، ط١، ١٣٦٦ هـ. ش، عبد علي بن جمعه الحويزي العروسي، نور الثقلين ٥: ٣٧٠ – ٣٧١ انتشارات اسماعيليان، قم، ط ٤، ١٣٧٣ ش - ١٤١٥ هـ، صفوة التفاسير ٣: ٣٨٣.

(١) ظ: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تفسير همام ٣: ٣٢٢، محمد بن عمر نووي الجاوي، تفسير مراح لبيد لكشف حصن القرآن المجيد، ٢: ٥٤١،تحقيق محمد أمين العتاوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ٢: ٣٦١، أبو الحسن علي بن محمّد بن حبيب الماوردي البصري (ت ٤٥٠ هـ)، النكت والعيون، ٦: ٤٠ تحقيق عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ١، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المالكي (ت ٨٧٥ هـ) تفسير الثعالبي ٥: ٥٤١ تحقيق الشيخ علي محمد معوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

(٢) ظ: أبو القسم فرات ابن إبراهيم الكوفي (ت ٣٥٢ هـ)، تفسير فرات الكوفي ٤٩١، تحقيق محمد كاظم المحمودي، إيران – طهران، ط١، ١٤١٠ هـ، الطوسي، التبيان ١٠: ٤٦، مجمع البيان ٩: ٤١٠، زبدة التفاسير ٧: ١١٠.

نماذج من آيات عتاب المسلمين

الآية الأولى

كثيرة هي الآيات البيّنات التي تضمنت عتاباً شمل المسلمين عامة، ونورد في هذا المبحث بعضاً منها للوقوف على المعاني التي تندرج في معنى العتاب وما يرادفه، ومن ذلك قوله جلّ ثناؤه في سورة البقرة مخاطباً المسلمين { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } (البقرة / ١٠٨).

ومما تُعيننا لباحث على الوقوف على الدلالة العميقة لهذه الآية المباركة وفهم قصد المسلمين وإرادتهم، هو السياق القرآني الواضح من الآية المرتبطة بها بالسياق نفسه والذي يشير إليه قوله سبحانه { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (البقرة / ١٠٩).

وواضحٌ من قصص القرآن الكريم أنّ موسى عليه السلام قد سُئل كثيراً من قومه بني إسرائيل، ولم تكن تلك الأسئلة إلاّ كفراً وتشكيكاً في الرسالة، فأذاقهم الله ألواناً من العذاب، وأرد الله جلّ وعلا أنْ يذكر المسلمين بما حصل لهؤلاءِ مع أنبيائهم فاستحقوا العذاب، فكان الإخبار في سياق العتاب والتنبيه والتذكير والله وحده أعلم بذلك.

وقد يكون سبب نزول هذه الآية المباركة مورداً مخصوصاً إلا أنّها مع ذلك ممكن أنَّ تشمل مصاديق أُخَر إذ يروي الكليني رحمه الله أنّها نزلت في عبد الله بن أمية المخزومي ورهط من قريش لّما سألوا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

وسلم أنَّ يفجّر لهم في الأرض ينبوعاً لكي يصدوا به ويسلموا فنزلت هذه الآية { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }[١].

في حين يرى بعض المفسرين أنّ الأداة (أم) في الآية المباركة جاءت بمعنى (بل) أي بل تريدون، وهذا توبيخ وتقريع[٢] وقد قال آخرون بذلك معتمدين على نصّ ورد عن الإمام الرضا عليه السلام إذ قال: { أَمْ تُرِيدُونَ } (البقرة/ ١٠٨) بل تريدون يا كفّار قريش واليهود { أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ } (البقرة/ ١٠٨) ما تقترحونه من الآيات التي لا تعلمون فيها صلاحكم أو فسادكم { كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ } (البقرة/ ١٠٨) واقترح عليه لما قيل له { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ } (البقرة / ٥٥)[٣].

وقيل: إنّ ((سياق الآية يدلّ على أنّ بعض المسلمين سأل النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أموراً على شاكلة سؤال اليهود نبيّهم موسى عليه السلام والله سبحانه وتعالى وبخّهم على ذلك ضمن ما وبخ اليهود بما فعلوا مع موسى والنبيين من بعده[٤].

وصفوة القول في مناقشة مضمون الآية أنّ سياقها يشير إلى عتابٍ من الله للمسلمين على عملٍ لم يكن يُستحسن لهم.

(١) ظ: محمد بن الحسن الشيباني: نهج البيان عن كشف معاني القرآن ١: ١٩٣، طهران، مؤسسة دار المعارف الإسلامية، ط ١، ١٤١٣ هـ وينظر كذلك: الوجيز: ٢: ١٣٢، تفسير عبد الله شبر ١: ١٦، بيان السعادة ١: ١٦، الصافي ١: ١٦٢.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢: ٤٩.

(٣) ظ: البرهان في تفسير القرآن: البحراني، ١: ٥١٢.

(٤) الميزان: ١: ٢٥٧ (مصدر سابق ذكره).

الآية الثانية

ومن مصاديق ذلك أيضاً قوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَمَا مُحَمَّد إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران / ١٤٤).

وقد نزلت هذه الآيةُ المباركة بعد ما حصل للمسلمين يومَ (أُحد) من انكسار إذ وسوس الشيطانُ في صدور المحاربين أنْ قُتل مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم؛ فنزلت الآية عتاباً للمسلمين المنهزمين الذين ظنّوا أنّ بموت مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم انتهى كُل شيء، متناسين أنّ قتل النّبي أو موته أمران لابد أنّ يحصل أحدهما[1].

وقيل في تفسيرها: ((أيّ كيف ترتّدون وتتركون دينه إذا مات أو قُتل مع علمكم أنّ أتباع الرّسل لابدّ أنّ يتمسكوا بما جاء به رُسل الله سبحانه[2].

ونرى أنّ التعبير القرآني جاء موحياً محيطاً بالفكرة ولاسيما في استعمال لفظة ﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ (آل عمران / ١٤٤) وهو كناية عن الارتداد والنكوث مما استوجب توجيه اللوم والتعنيف بأبلغ ما يكون التعبير لتسفيه ظنون المنهزمين الذين هيمن عليهم القلق وعصفت بهم الريبة فاستحقوا هذا التأنيب الرادع لهم وإظهار ما هم عليه من ضعف العقيدة وزعزعة إيمانهم بدينهم ونبيهم.

فالآية ميّزت بين فئتين فئة المنهزمين المنقلبين الذين لم يزيدهم انقلابهم إلاّ

---

(١) ظ: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٢٢.

(٢) الشوكاني: فتح القدير ١: ٣٨٥، وينظر كذلك جامع البيان ٣: ١٤٧، الدرّ المنثور ٢: ٣٣٤، كنز الدقائق ٣: ٢٣١.

كفراً {لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً} (آل عمران / ١٧٦) وبين الفئة الثانية الصابرة المحتسبة الشاكرة لنعمة الله الكبرى وهي الهداية لدينه الذي ارتضاه سبحانه وتعالى وهو الغنيُّ عن العالمين وكلٌّ يفتقرُ إليه.

وغني عن البيان أنّ مرادفات العتاب كاللوم والتهديد والتقريع واضحة من خلال سياق الآية والآيات المرتبطة بها بالمعنى نفسه[١].

الآية الثالثة

قال سبحانه وتعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} (آل عمران/١٤٦).

لا ريب أنّ هذه الآية المباركة تؤكد مضمون الآية التي مرّت مناقشتها وهو أنّ أتباع الرُسلِ والأنبياء قد قاتلوا معهم دونما ضعف أو وهن وهذا ما أراده الله سبحانه من المسلمين أنَّ يكونوا مع النَّبي مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم في قتاله للمشركين والمرتدين وإلاّ بم يتبعونه؟

إنّ وجود المسلمين صفاً إلى صف مع رسولهم الأكرم مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم بصبر وثبات يؤكّد إيمانهم وامتثالهم لأمر الله سبحانه لذا فما وقع في (أُحد) استوجب اللوم والعتاب منعاً لما قد يقع مثل ذلك.

وتحمل الآية في طياتها عتاباً ضمنياً ورد في صيغة الإخبار عمّا سبق الرسل والأنبياء ليكونوا لهم أسوة حسنة ففي الآية ((تنبيه للمنهزمين يوم أُحد)) بأنّ لكم

---

(١) التفاسير والبحوث كلها المتعلقة بهذه الآية تؤكد وقوع العتاب من الله سبحانه وتعالى للمسلمين وإن كان سبب نزولها واضحاً ومقترناً بحديث وقعة أُحد.

بالأنبياء المتقدمين وأتباعهم أسوة حسنة فكيف يليق بكم هذا الفرار والانهزام[١].

وفي نظر بعض المفسرين تعريض بما أصاب المسلمين من إرجاف وهزيمة بقتله صلى الله عليه وآله وسلم [٢].

ونطالع روايةً عن الإمام الباقر عليه السلام إذ قال: ((بيّن الله سبحانه أنّهُ لو كان قُتل عليه الصلاة والسلام كما أرجفت بذلك يوم (أُحد) لما أوجب ذلك إمّا يضعفوا أو يهنوا كما لم يهن من كان من الأنبياء بقتلهم والله يحبّ الصابرين فينصرهم في العاقبة ويعظمّ قدرهم))[٣].

وغني عن البيان أنّ العتاب حاصل من سياق الآية المباركة وليس هناك ثمة خلاف عن وقوع العتاب منه سبحانه بل الخلاف يقع في تأويل طبيعة الخطاب الكوني الموجه منه سبحانه إلى المسلمين والتعريض بالمنهزمين الذين آثروا الحياة الدنيا على تنفيذ أوامر الله والقتال مع الرسول جنباً إلى جنب.

الآية الرابعة

قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التوبة / ٣٩).

والآية المباركة في معرض الحث على القتال والتحذير من التخلف عن نصرته صلى الله عليه وآله وسلم وهناك إشارة عتاب في صورة تحذير واضحة ﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا... ﴾ ومورد العتاب جاء من الاستفهام الانكاري الدال على التوبيخ

---

(١) مقتنيات الدرر ١: ٢١٠.

(٢) ظ: الجوهر الثمين، ١: ٣٨٢ وينظر كذلك كنز الدقائق، ٣: ٢٤١، جوامع الجامع ١: ٢١٠.

(٣) ظ: الصافي، ١٠: ٣٦٠، وينظر كذلك بيان السعادة ١: ٣٠٥.

والعتاب في قوله تعالى: ﴿ أَرَضِيتُمْ ﴾ (التوبة/ ٣٨) فيما يراه عدد من المفسرين[١].

ويشترك العتاب والتنكير والتوبيخ في إرادة المسلمين والمنافقين منهم على وجه الخصوص كما يرى صاحب الميزان إذ يقول: (وفي الآية وما قبلها عتاب شديد للمؤمنين وتهديد عنيف وهي تقبل الانطباق على غزوة تبوك كما ورد ذلك في أسباب النزول[٢].

هذا ما عليه مفسرو الأمامية، أما مفسرو العامة فقد تعاملوا مع الآية المباركة بإبراز العتاب فيها بأنّ الداعي لذلك هو طيب الثمار وعذوبة الماء والهواء واشتداد الحر وكثرة الظلال والثمار كل هذا كان مدعاة للتثاقل وسبباً للتأخر عن الجهاد مما استحقوا اللوم والعتاب للرضا بالحياة الدنيا[٣].

ويؤكد ورود العتاب بحقهم ترك البدار عن توجه الأمر إليهم وانتهاز الرخصة في ذلك.

وهو أمر دعا القرطبي إلى أنَّ يصرّح بأنّ العتاب كان من أجلى مصاديق هذه الآية إذ يرى أنّها نزلت عتاباً لذلك التخلّف الحاصل منهم في غزوة تبوك[٤].

ويرى ابن كثير أنّ فيها شروعاً في عتاب من تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الغزوة للأسباب نفسها التي أشار إليها السمر قندي آنفاً[٥]

على أنّ الخازن يرى أنّ لغة العتاب واضحة فيمن يرى اشتغال الناس لتلك

---

(١) ظ: شبّر،الجوهر الثمين ٣: ٧٤، الكاشف ٤: ٤٤، الكرمي، المنير، ٤: ٨٧.

(٢) الطباطبائي، الميزان ٩: ٢٧٨ – ٢٧٨، الامثل: ٦: ٣٧ – ٣٨.

(٣) ظ: السمرقندي ٢: ٥٨.

(٤) ظ: القرطبي ٤: ١٢٠.

(٥) ظ: ابن كثير ٣: ٣٩٠، التبيان ٥: ٢١٨ – ٢١٩.

الغزوة مع النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم فعاتبهم الله بقوله: { أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ } (التوبة / ٣٨) والمعاتبة قد تكون في نظره لوجوب الجهاد ولو لم يكن كذلك لما عاتبهم[١].

ولذا نجد ابن هشام يجعل هذه الآيات من أسباب نزول سورة التوبة[٢]، المصاحب للندم واللوم والتقريع على صنيع فعلهم.

وهذا ما يعضده من يرى أنَّ الاستفهام للتقريع والتوبيخ على ترك الجهاد وأنّه عتاب لمن تخلّف عن غزوة تبوك[٣].

الآية الخامسة

قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } (المجادلة/٩).

حيث نزلت بعتاب جلّي ظاهر تحثّ المسلمين على التحليّ بمكارم الأخلاق والتي تمتد على مساحة كبيرة من الآيات تصل إلى قوله تعالى: { أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } (المجادلة /١٢).

فقد ذهب المفسرون إلى أنّ هذه الآيات نزلت في الأغنياء عندما كانوا يأتون

---

(١) ظ: علاء الدين البغدادي الخازن (ت ٧٢٥ هـ) تفسير الخازن (لباب التأويل) ٢: ٢٢٢، دار الفكر، بيروت– لبنان (د.ت).

(٢) ظ: ابن هشام، سيرة بن هشام ٤: ١١٤.

(٣) ظ: الصابوني، صفوة التفاسير ١: ٤٩٨.

النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم فيطيلون في مناجاته صلى الله عليه وآله وسلم بحيث يشتغل بهم ويأخذون أغلب وقته صلى الله عليه وآله وسلم مما يؤذي المؤمنين وخاصة المستضعفين منهم، إذ إنه مشعر بامتياز الأغنياء عنهم، فأمر سبحانه بالصدقة عند مناجاته، فلما رأوا ذلك، انتهوا عنه، فنزلت آية الرخصة التي عاتبت الأغنياء وعموم المؤمنين بعتاب لطيف[1].

ويستنطق بعضهم العتاب من الآية المباركة ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا﴾ (المجادلة/١٣) من جهة خوف الفقر والعيلة، إذ يكون الاستفهام هنا للتقرير، أي خفتم الفقر والعيلة لأن نقموا ذلك[2].

إذن كان هناك نوع من العتاب كما يصفه بعض المفسرين أنّه عتاب شديد لصحابة النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين إذ إنّهم تركوا مناجاته خوفاً من بذل المال بالصدقة[3].

ولكن بعضهم الآخر منهم يرجحّ أنَّ نوع العتاب هنا كان لطيفاً ورقيقاً[4].

وفي النتيجة أنَّ لهذه الآية وقعاً كبيراً فامتنع الأكثرون عن النجوى وتصدّق

---

(١) ظ: أبو الحسن علي بن محمد الواسطي الجلالي الشافعي، الشهير بابن المغازلي (ت ٤٨٣)، مناقب علي بن أبي طالب عليهما السلام ص ٢٥٥، تحقيق كاظم العزاوي، انتشارات سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إيران – قم، ط ١، ١٤٨٤ هـ. ش ١٤٢٦ هـ.ق، الطبرسي، مجمع البيان ٨: ٣١٨ – ٣١٩، شواهد التنزيل ٢٠٥ – ٢٠٦، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب، الطبرسي (ت ٦٢٠ هـ) الإحتجاج ١: ١٦٦، انتشارات الشريف الرضي رحمه الله إيران ط١، ١٣٨٠ هـ، الزمخشري، الكشاف ٤: ٤٩٣، القرطبي، الجامع ٩: ١٩٣.

(٢) ظ: الشوكاني، فتح القدير ٥: ١٩٠، تفسير الطبري ٢٨: ٢٩ ابن كثير ٦: ١٥٤.

(٣) ظ: محاسن التأويل، القاسمي ٧: ٥٥، الطباطبائي، الميزان ١٩: ١٨٩.

(٤) ظ: الصابوني، صفوة التفاسير ٣: ٢٣٣.

من تصدّق[١] وهو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام فسأل ووعى وعلم، وانتظم المناخ العقلي بين يدي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فكف الفضول وتحدّدت الأسئلة[٢].

الآية السادسة

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد/١٦).

كان سبب توجه العتاب بشدته للمسلمين في هذه الآية المباركة في ما نقله الطبرسي وغيره من المفسرين أنها نزلت بالمسلمين إذ يقول ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أنَّ عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً، وقيل: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن بهذه الآية[٣] وكيف ما كان فإن العتاب قد ورد في طيات الآية المباركة.

قال الثعالبي: إن في الآية معنى الحض والتقريع، ورأى ابن عباس أنّ المؤمنين عوتبوا بهذه الآية[٤].

---

(١) ظ: المجلسي، بحار الأنوار ١٧: ٢٨.

(٢) ظ: د. محمد حسين الصغير، المستشرقون، والدراسات القرآنية ص ٢٩، دار المؤرخ العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

(٣) ظ: تفسير أبي حاتم ١٠: ٣٣٨، تفسير عبد الرزاق ٣: ٢٨٦، الزمخشري الكشاف ٤: ٤٧٥، القرطبي، الجامع ٩: ١٦١، الطبرسي، مجمع البيان ٩: ٣٠١، زبدة التفاسير ٦: ٥٩٩، الشوكاني، فتح القدير ٥: ١٧٤.

(٤) ظ: الثعالبي، الجواهر الحسان: ٣: ٢٩٩.

ولا يبتعد الأعمش عن الثعالبي كما يرى مُحَمَّد بن عمر النووي عن ما كان سبباً لعتاب المؤمنين إذ يرى أنّ الصحابة لما قدموا المدينة أصابوا ليناً من العيش ورفاهية عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا(١).

في حين من حدد أنّ العتاب كان سببه ما عرض في قلوب المؤمنين من القوة وانتفاء خشوعها لذكر الله والحق النازل من عنده تعالى وتشبيه لحالهم بحال أهل الكتاب الذين نزل عليهم الكتاب وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم(٢).

نماذج من آيات عتاب اليهود والنصارى

توطئة

لا يكاد يمر المتدبر في آيات الذكر الحكيم إلا ويجد مساحة واسعة من العتاب واللوم الشديد والتوبيخ العنيف قد صدر بحق طوائف اليهود والنصارى، إذ زخر القرآن الكريم بكثير من الآيات الذاهبة إلى ذلك.

الآية الأولى

قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة/٤٤).

عاتب الله سبحانه وتعالى نبي إسرائيل على أوجه عدة: تارة يكون العتاب شديداً في لهجته، وأخرى ضعيفاً، وثالثة فيه نوع من التهديد والوعيد، وفي نظرة إلى مجمع البيان نرى أنّ الخطاب في هذه الآية - كما يرى الطبرسي - أنها موجهة إلى علماء اليهود؛ لأنهم كانوا يأمرون الناس بالإيمان بالنبيّ مُحَمَّد صلى الله عليه

(١) ظ: مراح لبيد، ٢: ٤٩٣.

(٢) ظ: الطباطبائي، الميزان ١٩: ١٦١.

وآله وسلم، ويتركون أنفسهم فقال فيرى أنَّ الاستفهام فيها للتوبيخ والمراد بالبرّ هو الإيمان بمُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم وبّخهم الله تعالى على ما كانوا يفعلون من أمر الناس بالإيمان بمُحَمَّد وترك أنفسهم عن ذلك[١].

وكذا نرى الزمخشري إذ يستشعر بأنّ التوبيخ والعتاب حال ظاهرة في بني إسرائيل بحيث تكون ((الهمزة)) في ((أتأمرون)) للتقرير والتوبيخ والتعجبّ من حالهم، ويجد كذلك التوبيخ عظيماً في قوله تعالى: { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } (البقرة/٤٤) بمعنى أفلا تفطنون لقبيح ما أقدمتهم عليه حتى يصدّكم استقباحه عن ارتكابه[٢].

وقال صاحب الميزان: (أخذ سبحانه في معاتبة اليهود وذلك في طي نيف ومئة آية يذكر فيها نعمه التي أفاضها عليهم وكراماته التي حباهم بها، وما قابلوها من الكفر والعصيان ونقص الميثاق والتمرد والجحود...)[٣].

لذا نرى أنّ الآيات توجّه الخطاب المتضمن للعتاب الشديد والتوبيخ واللوم والتقريع لبني إسرائيل نتيجة التنوّع في الأعمال المخالفة والخارجة عن خط السماء وتعاليم ما جاء به الأنبياء عليهم السلام وبالذات ما جاء به موسى لقومه إذ شاهد منهم ألوان الألم والأذى، فتارة توبيخ بني إسرائيل على ترك إلتزامهم بالميثاق الذي أخذ عليهم الالتزام به قال تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ } (البقرة / ٨٣).

ثم تولوا إلا قليلاً منهم كما يصفهم القرآن بذلك في الآية المباركة نفسها قال تعالى: { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ } (البقرة / ٨٣)، وتارة

(١) ظ: الطبرسي، مجمع البيان ١: ١٢٥.
(٢) ظ: الزمخشري، الكشّاف ١: ١٦٢، الأمثل ١: ١٢٩.
(٣) الطباطبائي: الميزان ١: ١٥١.

أخرى يوّبخهم الله تعالى ويعاتبهم على تركهم لبعض الأحكام الشرعية مع الالتزام ببعضها، قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [1] (البقرة / ٨٥).

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ (البقرة/٤٤) (وهذا استفهام معناه التوبيخ، والمراد في قوله: أهل التأويل علماء اليهود)[2].

قال ابن عباس: كان يهود المدينة يقول الرجل لصهره ولذي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين اثبت على الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل – يريدون مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم – فإن أمره حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه، وعن ابن عباس أيضاً كان الأحبار يأمرون مقلديهم وإتباعهم التوراة، وكانوا يخالفونها في جحدهم صفة مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم[3].

وفي المسألة الثانية يقول القرطبي: ((اعلم وَفقك الله تعالى أنَّ التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذم الله تعالى في كتابه قوماً كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها ووبخهم به توبيخاً يُتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ الآية (البقرة/٤٤)))[4].

ثم استشهد بعد ذلك بقول منصور الفقيه، إذ قال[5]:

إنَّ قوماً يأمرونا   بالذي لا يفعلونا

---

(١) ظ: حسن الصدر، التفسير النافع، ١: ٤٢، دار الكتب العلمية، العراق – بغداد ط ١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه ١: ٢٥٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٥٥.

(٥) تفسير القرطبي، القرطبي، ج١، ص٣٦٦.

لمجـــانين وإنْ هـــم لم يكونـــوا يُـــصرعونا

ثم بيّن عظمة التوبيخ والعتاب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ فيقول ((توبيخ عظيم لمن فَهِمْ))[1].

ويرى الكشّاف أنّ الآية فيها عتاب وتوبيخ على أعلى مراتبه؛ لأنَّ فيها تعريضاً بهم، وخصوصاً عند قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة / ٤٤).

يقول (الهمزة للتقريع مع التوبيخ والتعجب من حالهم)[2].

الآية الثانية

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة /١١٦).

في هذه الآية المباركة توبيخ وعتاب إلى النصارى؛ إذ إنهم جعلوا المسيح عيسى بن مريم وأمه عليهم السلام إلهين من دون الله، وهذا المعنى هو الظاهر من الآية المباركة لذا ذهب أغلب المفسرين إلى أنّ هذا السؤال سيكون يوم القيامة، وسيكون هناك نوع من التقريع والعتاب واللوم، لأنّ النَّبي عيسى عليه السلام سيثبت هذا المعنى بحقهم وسيدلي بشهادته أمام الله عزّ وجلّ بأنّه بريء من هذا

---

(١) المصدر نفسه ١: ٢٥٧، ظ: خليل ياسين، أضواء على متشابهات القرآن ١: ٥٢، انتشارات ذوي القربى، إيران – قم، ط١، ١٤٢٨ هـ.

(٢) الزمخشري: ١: ١٦٠ – ١٦٠.

القول مع اعترافه بوحدانية الخالق، قال تعالى: ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (المائدة / ١١٦).

ومن هنا نجد الطوسي يرى أنّ هذا وإنْ خرج مخرج الاستفهام فهو تقريع وتهديد لمن أدعى ذلك عليه من النصارى[١].

وما يقارب هذا المعنى من توجيه اللوم والعتاب لمن أدعى ذلك على النَّبي عيسى بن مريم عليهما السلام إذ كان هذا محط توبيخهم وتأنيبهم وتكذيبهم[٢].

وقال القرطبي (واختلف أهل التأويل في معنى السؤال وليس هو استفهام وإن خرج مخرج الاستفهام – على قولين: – أحدهما: إنّه سأله عن ذلك توبيخاً لمن أدعى عليه ذلك ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ[٣].

ويفترض مير سيد علي الطهراني أنّ هناك سؤالاً مقدراً (فلو قيل: إنّ الاستفهام كيف يليق به تعالى على أنّه تعالى كان عالماً بأن عيسى لم يقل ذلك فكيف بهذا الخطاب؟).

فالجواب: (أنّ هذا الاستفهام توبيخ للقائل، واستفهام لتعيين القائل حتى يجازى)[٤].

وفي بيان السعادة: (الخطاب لعيسى عليه السلام والمقصود تقريع أمته وتبكيتهم والمنظور التعريض بأُمّة مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم....)[٥].

---

(١) ظ: الطوسي، التبيان ٤: ٦٦، الطبرسي، مجمع البيان ٣: ٣٣٥.

(٢) ظ: الشريف المرتضى، تنزيه الأنبياء ص ١٤٥، الفخر الرازي، عصمة الأنبياء ص ٩٢.

(٣) ظ: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٣٦.

(٤) مقتنيات الدرر ٤: ١٢٣.

(٥) السلطان محمد الجنابذي الملقب بسلطان علي شاه (ت ١٣٢٧ هـ) بيان السعادة في مقامات ←

ثانيهما: من يرى أنّ محل الآية في الحياة الأخرة إذ يقول الله يوم القيامة ((يا عيسى)) وهو استفهام يراد به التقريع لمن ادعّى ذلك عليه من النصارى واستعظام لذلك القول[1].

ومما يؤيد نزول هذه الآية في عتاب النصارى وتوبيخهم ما ورد في عيون أخبار الرضا عليه السلام في أوجه دلائل الأئمة عليهم السلام والرد على الغلاة والمفوضة قوله عليه السلام: (قال الإمام علي عليه السلام يهلك فيّ اثنان ولا ذنب لي، محبّ مفرط ومبغض مفرط وأنا أبرأ إلى الله تبارك وتعالى ممن يغلوا فينا ويرفعنا فوق حدّنا كبراءة عيسى بن مريم عليهما السلام من النصارى، قال الله تعالى: { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }[2] (المائدة /١١٦).

ومن هنا نجد الإمام علي عليه السلام يوضح بصريح قوله: إنّ النصارى قد غالوا في عيسى عليه السلام إذ تبرأ من قولهم وفعلهم الذي استحقوا عليه اللوم والتقريع.

الآية الثالثة

قال تعالى: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً

العبادة ٢/١١٩، انتشارات مطبعة جامعة طهران، ط٢ / ١٣٤٤ ش – ١٣٨٥ ق.

(١) ظ: جوامع الجامع ١: ٣٦٣، ظ: كنز الدقائق ٤: ٢٦٧، المعين ١: ٣٢٢، الصافي ٢: ١٠١.

(٢) الصدوق، عيون أخبار الرضا ٢: ٢١٧.

وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } (آل عمران / ٩٨ - ٩٩).

ويقول في جامع البيان:

(وقد ذكر أنّ هاتين الآيتين من قوله: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ... } (آل عمران/٩٨) والآيات بعدهما إلى قوله: { وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (البقرة / ١٠٥) نزلت في رجل من اليهود حاول الإغراء بين الأوس والخزرج بعد الإسلام ليرجعوا إلى ما كانوا عليه في جاهليتهم من العداوة والبغضاء، فعنفّه الله بفعله ذلك وقبح له ما فعل ووبخّه عليه، ووعض أيضاً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، وأمرهم بالاجتماع والائتلاف)[١].

وقيل: إنّ قوله { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ } (آل عمران/٩٨) خطاب لليهود والنصارى، والاستفهام في قوله تعالى: { لِمَ تَكْفُرُونَ } (آل عمران/٩٨) للإنكار والتوبيخ، وقوله { وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ } (آل عمران/٩٨) جملة حالية مؤكدة للتوبيخ والإنكار، وهكذا المجيء بصيغة المبالغة في ((شهيد)) يفيد مزيد من التشديد والتهويل، والاستفهام في قوله: { لِمَ تَصُدُّونَ } (آل عمران/٩٩) يفيد فائدة الاستفهام الأول أي: التوبيخ والإنكار)[٢].

ثم أنّه سبحانه وتعالى حاجج أهل الكتاب فوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يأمره بخطاب اليهود والنصارى وقيل لليهود فقط.

فيكون (الإحتجاج عليهم بالكتاب لإقرارهم به فكأنّه قيل يا من يقر بأنّه

---

(١) ظ: الفيض الكاشاني ١: ٣٦٣.

(٢) الشوكاني ١: ٣٦٦.

من أهل كتاب الله لِـمَ تفكرون بآيات الله، واللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التوبيخ، وإنما جاز التوبيخ على لفظ الاستفهام من حيث إنّه سؤال يعجز عن إقامة العذر فكأنّه قال هاتوا العذر...)[١].

وذهب الطباطبائي إلى أنّ الآية المباركة (تشتمل على الإنكار والتوبيخ لليهود في إلقائهم الشبهات وتفتينهم المؤمنين في دينهم، وتحذير المؤمنين أنّ يطيعوهم فيما يدعون إليه فيكفروا بالدين...)[٢].

ويرى الشيرازي أنّ (المخاطب في هذه الآية هم أهل الكتاب ويقصد منهم هنا اليهود، فالله سبحانه يأمر نبيّه في هذه الآية يسألهم معاتباً عن علة كفرهم بآيات الله في حين أنّ الله يعلم أعمالهم..)[٣].

نماذج من آيات عتاب المشركين

توطئة

ويطالعنا القرآن الكريم بنوع من اللوم والتوبيخ الشديدين في أكثر من آية في سورة الزخرف.

الآية الأولى

قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ (الزخرف / ١٨) قال السمرقندي فيها: (قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ ﴾ بضم الياء،

---

(١) مجمع البيان ٢: ٦٠٩.

(٢) الميزان ٣: ٣٦٤.

(٣) الامثل ٢: ٣٦٨.

ونصب الشين ومعناه: أفمن يربى في الحليةِ، لفظه لفظ الاستفهام والمراد به التوبيخ)[١].

(وكذلك يرى التوبيخ والعتاب ظاهراً في قوله تعالى: {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ} (الزخرف/ ١٩) قال (هذا استفهام فيه نفي: يعني لم يشهدوا خلقهم على وجه التوبيخ والتقريع)[٢].

وأما الزمخشري فعندما يصل إلى قوله تعالى: {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ} يرى أنّ هذا تهكم بهم[٣].

وفي الكشّاف يرى أنّ (الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجّب من إعتراضهم وتحكمهم)[٤].

وقال في مجمع البيان عندما يقف على بيان عتاب وتوبيخ المشركين في قوله تعالى: {أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ} (الزخرف/١٦) (ثم انكر سبحانه عليهم قولهم فقال ((أم)) وهذا استفهام انكار وتوبيخ ومعناه بل)[٥] إلى أنَّ يقول (ثمّ وبخّهم بما افتروه فقال {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ} (الزخرف/١٨))[٦].

والسيوطي يرى في قوله تعالى من سورة الزخرف {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ} (الزخرف/٨٠) أنَّ الاستفهام هنا توبيخي.

---

(١) أبو نصر محمد بن مسعود بن عباس السمر قندي بحر الغرائب ٣: ٢٤١، منشورات الاعلمي، بيروت – لبنان ط١، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٢٤٢.

(٣) ظ: الكشاف ٤: ٢٤٨.

(٤) الزمخشري ٤: ٢٥٢.

(٥) مجمع البيان ٩: ٥٧.

(٦) المصدر نفسه ٩: ٥٧.

وفي هذا المراد عند ذكر قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ (الزخرف/٣٢) قال: (فيه توبيخ وتعجّب من جهلهم)[1].

وأما في أيسر التفاسير فإنّ (الاستفهام إنكاري يتضمن التوبيخ لهؤلاء الزاعمين اختيار من شاءوا للإصطفاء والرسالة فعلموا أنّه لاحق لهم...)[2].

الآية الثانية

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (التوبة /١٩) ذهب جمع من المفسرين إلى أنّ هذه الآية المباركة من الآيات التي نزلت في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام إذ أبرزت عمق إيمانه وجهاده وفضله على غيره وجاءت من جانب آخر موبخة ومعاتبة للمشركين إذ إنّ هناك من فاضل أو ماثل بين الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام وبين غيره من المشركين فجاءت موبخّة لهم ومقرّعة لأفعالهم فما كان من الإنصاف المساواة بين السقاية والعمارة وبين الجهاد والإيمان.

وما ورد في سبب نزول الآية أنّ الآيات نزلت في العباس وطلحه بن شيبه والإمام علي عليه السلام حين تفاخروا فذكر العباس سقاية الحاج، وشيبه عمارة المسجد الحرام، وعلي الإيمان والجهاد، في سبيل الله[3].

والطبري يرى أنّ هذا توبيخاً من الله لقومٍ افتخروا بالسقاية وسدانة البيت

---

(١) ابن حيان الأندلسي ٢: ٩١٣.

(٢) الجزائري ٤: ٦٣٨.

(٣) ظ: مجمع البيان ٤: ٤١٠، ابن كثير ٣: ٣٦٣ المراجعات، ٩٠، ابن المغازلي (ت ٤٨٣ هـ) مناقب علي بن أبي طالب عليهما السلام، انتشارات سبط النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، إيران – قم، ط ١، ١٤٢٦ هـ، الطباطبائي، الميزان ٩: ٣٠٥.

الحرام، أعلمهم أنَّ الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد من سبيله[١].

وفي صفوة التفاسير (الخطاب للمشركين، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى؛ أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله؟ وهو رد على العباس حين قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، فنزلت)[٢].

ويقول صاحب أيسر التفاسير في خطاب الآية: إنّه جاء التوبيخ وبيان الحال إذ يقول في معنى الآيات (ما زال السياق في الرد على من رأى تفضيل عمارة المسجد الحرام بالسقاية والحجاجة والسدانة على الإيمان والهجرة والجهاد فقال تعالى موبخاً لهم ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ ﴾ (التوبة: ١٩) في حكم الله وقضائه بحال من الأحوال، والمشركون ظالمون كيف يكون لعمارتهم للمسجد الحرام وزن أو قيمة تذكر ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة: ١٩) بعد هذا التوبيخ والبيان للحال أخبر تعالى أنّ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا ﴾[٣] (التوبة: ٢٠).

الآية الثالثة

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (القصص/٧٤).

---

(١) جامع البيان ١٠: ٩٤ عن صفوة التفاسير ١: ٤٨٨.

(٢) الصابوني ١: ٤٨٨.

(٣) الجزائري ٢: ٣٥٠ – ٣٥١، ظ: أبو حنيفة النعمان (ت ٣٦٢ هـ) المناقب والمثالب: ٢١١ تحقيق ماجد أحمد العطية، منشورات الأعلمي، بيروت – لبنان ط ١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م.

وهذه الآية كذلك من الآيات التي وردت بلسان العتاب للمشركين بأشدّ صورة، بحيث يرى الطوسي رحمه الله أنّ النداء قد كرّر بـ ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (القصص/ ٦٢)؛ لأنّ النداء الأول للتقرير بالإقرار على اليقين بالغيّ الذي كانوا عليه ودعوا إليه، والثاني للتعجيز عن إقامة البرهان لما طولبوا به بحضرة الإشهاد مع تقريع حاصل بالاشتراك بعد تقريع[١].

ويرى الطبري في تفسيره أنّ هذا نداءً على سبيل التقريع والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تبارك وتعالى على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[٢].

والبعض يرى أنّ هذا السؤال ونظائره هو سؤال تبكيت وتأنيب وتوبيخ وهو نوع من العذاب النفسي الذي هو أشد من العذاب الجسمي[٣].

في حين يرى البقاعي أنَّ الآيات جاءت بلسان الغضب والافتراء والتوبيخ[٤].

الآية الرابعة

قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ

---

(١) ظ: الطوسي، التبيان ٨: ١٧٣.

(٢) ظ: الطبري ٥: ٣٣.

(٣) ظ: الجزائري، أيسر التفاسير ٤: ٩٦.

(٤) ظ: نظم الدرر ٥: ٥١٥.

وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } (المؤمنون / ٨٤-٩٠).

ويستنتج الطباطبائي رحمه الله في ميزانه العتاب والتوبيخ للمشركين من خلال تفسير الآيات المباركات، فيقول في بيان الآية المباركة { قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } (المؤمنون / ٨٥) أمرٌ بعد تسجيل الجواب أنَّ يوبخهم على الابتعاد عن تذكر الحّجة الدالة على إمكان البعث وعند الوقوف على قوله تعالى: { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } (المؤمنون/ ٨٧) فيذكر المعنى فيقول (والمعنى: سيجيبونك بأنّها لله قل لهم تبكيتاً وتوبيخاً...)[١].

في حين يقول الشيرازي: (وهذه عبارات تنبيه شديدة للكفّار وإنكار لما هم عليه من باطل بشكل متدرّج ومرحلة بعد أخرى، وهو أسلوب متعارف ينسجم مع الأساليب المعروفة في التعليم والتربية المنطقية...)[٢].

وكذلك الحال عند بعض المفسرين إذ يرون أنّ فيها عتاباً وتوبيخاً واستهجاناً لهم وتأنيباً شديداً[٣].

الآية الخامسة

قوله تعالى: { أَاصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ } (الصافات / ١٥٣).

موضوع هذه الآية المباركة يرتبط بمشركي مكة إذ إنهم يبرزون لوناً آخر من ألوان الشرك الذي ينم عن سطحية أفكارهم وبساطتها إذ إنهم في هذه الآية المباركة يذهبون إلى قياس معرفة الخالق من خلال أنفسهم أي تصوروا أنّ الخالق كالبشر له

---

(١) الميزان: ١٥: ٥٦ – ٥٩.

(٢) الأمثل ١٠: ٣١٠.

(٣) ظ: المراغي ١٨: ٤٨ – ٤٩، أيسر التفاسير ٣: ٥٣١.

أولاد مثلما لهم تارة، وأخرى أنّ له زوجاً وربما كانت من الجنّ، وهذه الأوهام الخرافية دعتهم إلى الاعتقاد أنّ لله بنات وهم الملائكة وغيرها من الأوهام، فجاء القرآن الكريم راداً عليهم ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ (الصافات/١٥٠).

فلذا جاء هنا الاستفهام الإنكاري لهم مع ما يحمل من التوبيخ لهم. ففي الكشاف ذكر أنّ الهمزة في قوله تعالى ﴿ أَاصْطَفَى الْبَنَاتِ ﴾ (الصافات/ ١٥٣) فلذا يرى الطبرسي رحمه الله أنّ الهمزة على وجه التقريع لهم بذلك والتوبيخ[١].

وقيل (إنّها استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد)[٢].

وعلل أَنَّهُ ولما كان المراد تبكيتهم بكونهم جعلوا الأخس لله.... عدل التعبير بالإناث وعبّر بما ينص على المراد فقال: ((البنات))[٣].

وقيل أنَّ في الآية (استفهام إنكاري... ثم وبّخهم فقال: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[٤] (الصافات/١٥٤).

وفي قوله تعالى: ((﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ (الصافات/ ١١) فاسأل يا رسول الله مُحَمَّد أهل مكة، هو سؤال توبيخ))[٥].

وفي الجامع لأحكام القرآن أنَّ قوله تعالى (اصطفى) (على معنى التقريع والتوبيخ - وأما قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (الصافات/١٥٤) - فالكلام جار على التوبيخ...)[٦].

---

(١) ظ: مجمع البيان ٨: ٥٩٢، ظ: القاسمي، محاسن التأويل ٦: ٧٨.

(٢) الزمخشري، الكشاف ٤: ٦٤.

(٣) نظم الدرر ٦: ٣٤٦.

(٤) الجديد ٦: ٩٠، ظ: مقتنيات الدرر ٩: ١٣٨، الأمثل ١٤: ٢٧٢.

(٥) معالم التنزيل ٤: ٨٥٢.

(٦) القرطبي ٨: ٨٨.

المبحث الثالث: نماذج من آيات عتاب الله لغير البشر من مخلوقاته

المطلب الأول: نماذج من آيات عتاب الملائكة

لعل من ابرز مصاديق هذا النوع من ما ورد في قضية نبي الله آدم عليه السلام في سورة البقرة إذ ذكر القرآن الكريم ما جرى قبيل هبوط آدم عليه السلام وإخراجه من الجنة كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة / ٣٠) فتمضي الآيات بنا قدماً لتصل إلى بيان أسباب هذا التفضيل للنبي عليه السلام على سائر الملائكة وتعليمه ما لم يعلموا إذ ظهر ذلك جلياً حينما اختبروا بمعرفة الأسماء التي عرضها الله تعالى لهم حتى أنّ الملائكة قالوا: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة /٣٢).

ومن هنا بدأ عتابهم وتوبيخهم كما يراه بعض المفسرين وخصوصاً عند قول الملائكة كما يورده القرآن الكريم ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة / ٣٠).

ورد البارئ تعالى لهم الذي كان نقطة انطلاق العتاب واللوم عليهم إذ قال

تعالى: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة/٣٠).

ولذا ينقل الطبري (ت ٣١٠ هـ) رواية عن ابن عباس يَعْرض فيها ضعف الملائكة وعجزهم ولوم الله سبحانه لهم لأمر قد غابت مصلحته عنهم لتقصير علمهم وأحاطتهم به فيقول (وهذه الرواية عن ابن عباس تنبأ عن أنّ قول الله عزّ وجلّ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة / ٣٠) خطاب من الله تعالى جلّ ثناؤه لخاص من الملائكة من دون الجمع والذين قيل لهم ذلك من الملائكة كانوا قبيلة إبليس خاصة، الذين قاتلوا معه جن الأرض قبل خلق آدم عليه السلام وإنّ الله إنما خصهم بقيل ذلك، احتجاجاً منه لهم وابتلاءً ليعرفهم تقصير علمهم وفضل كثير ممن هو أضعف خلقاً منهم، ممن خلفّه عليهم وأنّ كرامته لا تنال بقوى الأبدان ولا بشدة الأجسام كما ظنه إبليس عدو الله عزّ وجلّ)[١].

والآية الكريمة تحوي استفهاماً ما يحمل بين طياته عتاباً يكشف عن انتفاء ميلهم إلى السجود لآدم عليه السلام.

ولذا يرى الطبري أنّ (هذه كانت هفوة منهم ورجماً بالغيب وأنّ الله جلّ ثناؤه اطلعهم على مكروه ما نطقوا به من ذلك ووقفهم عليه حتى تابوا وأنابوا إليه مما قالوا ونطقوا بهم من رجم الغيب بالظنون وتبرؤا إليه أنَّ يعلموا الغيب وغيره)[٢].

ولذا يرى بعض المفسرين أنَّ هذا عجباً من أنَّ يخلف لعمارة الأرض

---

(١) ظ: جامع البيان عن تأويل القرآن ١: ٢٩٢.

(٢) ظ: المصدر نفسه ١: ٢٩٢.

وإصلاحها من يفسد فيها أو يخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وكشف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت بتلك المفاسد والفتها واستخبار عما يرشدهم ويزيح شبههم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره وليس باعتراض على الله تعالى ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة)[١].

ولهذا نلاحظ أنّ ميزان استحقاق الملائكة للوم والعتاب أو من دونه مبنيّ على (أنّ مع إخبار الله للملائكة بأمر الإفساد في الأرض فلا وجه لتوبيخهم ولومهم وأما مع ظنهم بإدراك أنَّ بني آدم يفسدون في الأرض فإنّ التوبيخ حينئذٍ واقع بهم على ما ظنوا)[٢].

ويبدو لنا أنّ هذا واقع حالهم لأنّهم مأمورون بالاعتراف والإذعان وترك الاعتراض والاستفسار عن علة أمرٍ صادر لهم.

والذي يبدو من الفخر الرازي أنّ الملائكة وقعوا فيما من شأنه أنَّ يجلب لهم لوم البارئ وعتابه، إذ يرى أنّ خطاب الملائكة أما كان معصية أو ترك أولى فيصل إلى أنّه على التقديرين أنّ المقصود حاصل[٣].

ومنهم من يعلق كلما جرى على أنّه إشارة إلى تحدي يواجه الملائكة واختبار صعب يلاحظ في نهايته عجزهم عن اجتيازه والخوض فيه والذي يترتب عليه نهاية الأمر لومهم وعتابهم[٤].

ولكن الذي يبدو أنّ قول الملائكة: ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا ﴾ (البقرة/٣٢)

---

(١) ظ: الزمخشري، الكشاف ١: ١٥٤، القرطبي، الجامع ١: ٨٢.

(٢) ظ: الطبري، جامع البيان ١: ٢٩٥.

(٣) ظ: مفاتيح الغيب ٢: ١٥٧.

(٤) ظ: الشوكاني، فتح القدير ١: ٦٤.

يوحي بأنّه كان استفساراً لا اعتراضاً ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة/٣٠) وهم استحقوا اللوم والعتاب كما يرى المراغي[١].

ومع أدب الملائكة مع الله سبحانه يرى بعض المفسرين أنّ من باب الحق والإنصاف أنّ الصادر منهم أشبه بالتوبة ولكن لا عن ذنب مخل بالعصمة بل ناشئ من ترك أولى[٢].

وربما كان عجز الملائكة عن إدراك غاية الخلاف في الأرض هو مدعاة البارئ لعتابهمْ ولاسيما أنَّ إجابتهم ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ (البقرة/٣٢) دلت على نوع من الاعتذار والإقرار والعجز.

هذا ما يراه أتباع هذه المدرسة في نطاق هذا المقطع من هذه الآية المباركة.

وأما مفسرو الإمامية فقد اختلفوا قليلاً عن غيرهم في سعة قبول فكرة المعاتبة والتوبيخ من الله للملائكة إذ إنهم قالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة/٣٠) على الرغم من إظهار ندم الملائكة على ما قالوا، ومن ذلك ما نراه عند العياشي إذ يروي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: كنت مع أبي في الحجر فيما هو قائم يصلي وأتاه رجل فجلس إليه فلما انصرف سلم عليه ثم قال: إني أسألك عن ثلاث أشياء لا يعلمها إلا أنت ورجل آخر، قال ما هي؟ قال: اخبرني أي شيء كان سبب الطواف بهذا البيت؟ فقال: إنّ الله تعالى لما أمر الملائكة أنْ تسجد لآدم عليه السلام فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ

(١) ظ: أحمد مصطفى المراغي ١: ٨٤.

(٢) ظ: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغداد (ت ١٢٧٠هـ) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١: ٢٢٦ – ٢٢٧، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط ٤، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة/٣٠) قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/٣٠) فغضب عليهم ثم سألوا التوبة فأمرهم أنّ يطوفوا بالضراح وهو البيت المعمور ومكثوا يطوفون سبع سنين، ويستغفرون الله تعالى مما قالوا، ثم جعل الله البيت الحرام حذو الضراح توبة لمن أذنب من بني آدم وطهوراً لهم، فقال: صدقت[1].

وعندما نأتي إلى الشيخ الطوسي رحمه الله نجده يرى قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة/٣٠) قول من قال: إنّ الملائكة إنما قالت على وجه التعجب من هذا التدبير لا إنكاراً له ولكن على وجه التألم والتوجع والاغتمام والاستعلام لوجه التدبر فيها[2].

وعندما يصل الطبرسي رحمه الله إلى عرض قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة / ٣٠) ويعرض بعض الاشكالات حول ذلك ثم يجيب عليها، يروي بعد ذلك ما قالت الملائكة مما استوجب جلب اللوم والعتاب لهم، وهذا ما يفهم من نص الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام من (أنّ الملائكة سألت الله أنّ يجعل الخليفة منهم وقالوا نحن نقدسك ونطيعك ولا نعصيك كغيرنا، فقال أبو عبد الله عليه السلام فلما أجيبوا بما ذكر الله في القرآن علموا أنّهم قد تجاوزوا ما ليس لهم، فلاذوا بالعرش استغفاراً، فأمر الله آدم عليه السلام بعد هبوطه أنّ يبني لهم في

---

(١) ظ: أبو نصر محمد بن مسعود بن عباس السمر قندي، بحر الغرائب ١: ٤٨، عبد علي بن جمعه العروسي الحويزي، نور الثقلين ١: ٥١.

(٢) ظ: ابو جعفر الطوسي ١: ١٣٣، محمد رضا القمي، كنز الدقائق ١: ٣٢٣، عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن ١: ١٥٢، منشورات أهل البيت ط٢، بيروت – لبنان ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

الأرض بيتاً يلوذ به المخطئون كما لاذ بالعرش الملائكة المقربون، فقال تعالى: إنّي أعرف بالمصلحة منكم وهو معنى قوله تعالى: { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }[١] (البقرة / ٣٠) وفي مجمع البيان ينقل وجوه عدة في تحليل الآية المباركة منها أنّ الملائكة إنما قالت ذلك على سبيل الاستفهام وعلى وجه الاستخبار والاستعلام عن وجه المصلحة والحكمة على وجه الإنكار ولا على سبيل الإخبار فكأنّهم قالوا، يا الله إن كان هذا كما ظننا فعرفنا ما وجه الحكمة فيه[٢].

فكأنما طلب منهم أنَّ يقفوا ليدافعوا ويبرروا عما صرحوا به وهو نتاج لوم توجه لهم وهذا اللوم هو الذي طرأ عليهم لاستعظامهم أنفسهم واستصغارهم آدم عليه السلام وتفاخرهم عليه مما أدّى ذلك إلى سجودهم له ليعلموا أنّ البارئ مستغنٍ عن طاعتهم[٣].

المطلب الثاني: نماذج من آيات عتاب الجن

الآية الأولى

قال تعالى في معرض الحديث عن سجود الملائكة لآدم عليه السلام وامتناع إبليس: { قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ } (ص / ٧٥).

وهنا جاء العتاب في استفهام إنكار ظاهر يؤيده السياق اللاحق في الآية وهو

(١) ظ: التبيان ١: ١٣٦، البحراني، البرهان ١: ٣١٨، كنز الدقائق ١: ٣٢٥.

(٢) ظ: الطبرسي ١: ٩٣.

(٣) ظ: محمد بن إبراهيم الشيرازي، صدر المتألهين (ت ١٠٥٠ هـ) تفسير القرآن الكريم ٣: ٣٩٠ – ٣٩١، دار التعارف بيروت – لبنان، ط ٢، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

الجواب على لسان إبليس ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (الأعراف /١٢) وهذا الجواب - كما نرى – ينبئ عن قياس فاسدٍ أتى به إبليس ممّا أدّى إلى لومه وتوبيخه بل وتكفيره ((فلما أتى إبليس بقياسه الفاسد دلّ ذلك على أَنَّهُ إنما ذكر ذلك القياس ليتوسل به إلى القدح في أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر))[(١)].

ويرى البغوي أنّ التوبيخ واللوم إنما جاء لتكبره وامتناعه عن السجود لآدم عليه السلام فيقول في تفسيره لقوله تعالى ﴿ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ ﴾ (ص/٧٥) أي من المتكبرين استفهام توبيخ وإنكار يقول استكبرت بنفسك حتى أبيت السجود أم كنت من اللذين يتكبرون عن السجود لكونك منهم[(٢)].

ويرى بعض المفسرين أنّ التوبيخ جاء نتيجة الاستفهام في الآية الكريمة[(٣)].

ونحن نرى أنّ سياق الآية المباركة تجاوز العرض والعتاب والتحضيض إلى اللوم والتعنيف ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ ﴾ (ص / ٧٥) ثم يأتي جواب الاستفهام بالاستفهام فيه همزة تسوية المتلوة بأم المعادلة وكلا الطرفين (الاستكبار، العلو) يوجب اللوم والتقريع وصد

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٢٦: ٣٠٢ وقال بهذه الفكرة مفسرون كثيرون منهم: نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري القمي (ت ٧٢٨ هـ) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥: ٦٠٨ دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

(٢) أبو محمد الحسيني بن مسعود الفراء الشافعي (ت ٥١٤ هـ) معالم التنزيل ٤: ٦١٥، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

(٣) أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي (ت ٧٤١ هـ) التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٢١٣، تحقيق محمد هاشم سالم دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

النفس الاستكباري الذي طغى على روح إبليس فبانت نيته وظهر معدنه إذ بلس من طاعة الله سبحانه وتعالى.

ونجد أنَّ القاسم المشترك بين المفسرين هو تأكيدهم على وقوع اللوم والتقريع على إبليس بكونه عاصياً لما أمر به البارئ عزّ وجلّ والجدير بالذكر أنّ النتيجة التي انتهى إليها إبليس لعصيانه وتكبره هي خروجه من طاعة الله مذموماً مدحوراً وهذا يؤكد ويوجب تقريعه ولومه له لعنه الله(١).

الآية الثانية

قال تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (الأنعام / ١٣٠) إنّ محل الشاهد في هذا النص الكريم هو الخطاب الإلهي لمعشر الجن في خضم الخطاب الشامل للجن والإنس والأشرار منهم خاصة والآية حملت تأنيباً بيناً وتوبيخاً ظاهراً ليس على وجه الحقيقة لأنّ الله يعلم وهم لا يعلمون أنّه سبحانه قد أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين(٢).

ويرى بعض المفسرين أنّ النداء في الآية المباركة يتضمن توبيخاً للكفار من الجن والإنس يوم القيامة ويبيّن أنّه لا يكون إلى الجحود سبيل يشهدون على أنفسهم بأنّهم كانوا كافرين لذا يقول سبحانه وتعالى للثقلين الجن والإنس يوم

---

(١) ظ: الزمخشري، الكشاف ٤: ١٠٩، الصابوني، صفوة التفاسير ٣: ٦٠، شهاب الدين، روح المعاني ٨: ٨٨ وغيرها.

(٢) ظ: محمد جواد مغنية، تفسير الكاشف ٣: ٣٦٥.

القيامة ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ (الزمر/٧١) في الدنيا ﴿رُسُلٌ﴾ مكلفين من الله ﴿مِنْكُمْ﴾ من جنسكم[1].

كما يجد بعض المفسرين أنّ النداء في الآية المباركة نداء واستفهام توبيخي منه سبحانه وتعالى يعاتب فيه الإنس والجن، بأنّه قد أرسل عليهم رسلاً منهم وأنبياء يبينون لهم حرام الله وحلاله[2].

الآية الثالثة

قوله سبحانه وتعالى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ١٣).

وقد تكرر قوله تعالى في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة مما يشير إلى قوة توكيد المضمون الذي حملته الآية المباركة، وهو العتاب القوي الشامل الموجه لمعشر الإنس والجان بل إنّ مادة ألفاظ الآية ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يؤكد الاستفهام فيها بهذا التكرار المعبر على التقريع والتوبيخ الموجه للثقلين: الإنس والجن، أي فبأي نعمة من هذه النعم الظاهرة والباطنة التي أسبغها الله عليكم تكذبان؟

ويرى بعض المفسرين أنّ الوجه لتكرار هذه الآية من هذه السورة فإنما هو التقرير بالنعم المعدودة وتأكيد التذكير بها فكلما ذكر سبحانه نعمة من نعمه تحمد وبخ على التكذيب بها[3].

---

(١) ظ: مير سيد علي الحائري الطهراني (ت١٣٤٠ هـ) مقتنيات الدرر ٤: ٢٦٤ دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٧٣ ش.

(٢) ظ: التفسير الجديد، ٣: ٩١، صفوة التفاسير ١: ٢٧٧، الجوهر الثمين ٦: ١٥٧، تقريب القرآن ٨: ٢٥.

(٣) ظ: الطوسي ٩: ٣٥٣، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٩: ١٠٦.



الفَصْلُ الثَّالِثُ

عصمة الأنبياء عليهم السلام وإمكانية العتاب مع استلزامه المخالفة

المبحث الأول: القول بالعصمة المطلقة للأنبياء وأدلتهم

المبحث الثاني: القول بالعصمة الجزئية للأنبياء عليهم السلام وأدلتهم

توطئة

يقع الحديث عن العصمة في إطار مسائل النبوة، وهي مجموعة القضايا التي يشترك فيها الأنبياء عليهم السلام وتقف مسألة العصمة في الصف الأول من مسائل النبوّة العامة من إذ أهميتها لما لها من آثار مهمة وثمرات أساس في عقيدة الإنسان المسلم إزاء وظيفة النبوة وأثر وظيفتها في حياة المجتمع البشري ونظامه، فثبوت العصمة لإنسان ما يعني ثبوت مجموعة من الآثار واللوازم كأن تكون أفعاله وأقوالهُ حجة على الآخرين، أو إمكان اتخاذه قدوة وأسوة لهم في كل شيء وغير ذلك من الثمرات المتفرعة عن مسألة العصمة.

ونجد القرآن الكريم يقررّ ثبوت العصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام من خلال آيات عديدة سنقف عندها في مقام آخر من هذه الدراسة وفي غير مورد، ولابد لنا قبل ذلك من الوقوف على الدلالات اللغوية والاصطلاحية للعصمة قبل الإلمام في إطارها الموضوعي في ضوء المنظور القرآني.

العصمة في اللغة والاصطلاح

العصمة لغة

حينما يتعّرض اللغويون لبيان حقيقة العصمة فإنّهم يؤكدون في حقيقتها أصل الامتناع الذي نجده يتكرر في صيغها واستخداماتها المختلفة.

قال ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ): (عصم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمه، والمعنى في ذلك كله واحد، من ذلك [العصمة] أنَّ يعصم الله عبده من سوء يقع به، واعتصم العبد بالله تعالى إذا تمّنع)[١].

وعرّفها الراغب (أبو القاسم الحسين بن أحمد) (ت ٥٦٥ هـ): (العصم الإمساك، والاستعصام الاستمساك)[٢]. وجاءت العصمة في كلام العرب بمعنى المنع[٣].

ولذا قال (ابن منظور أبو الفضل جلال الدين) (ت ٧١١ هـ): (والعاصم المانع الحامي)[٤].

وعلى هذا فالأصل اللغوي في العصمةِ هو المنع والحفظ والوقاية من الوقوع في ما فيه مناف لتحقق الغرض.

العصمة اصطلاحاً

للمذاهب الإسلامية في المعنى الاصطلاحي للعصمة أقوال مختلفة وآراء متباينة وكل يعرّفها على وفق متبنياتهِ واعتقاده وسنقف هنا باختصار عند تلك الآراء.

---

(١) مقاييس اللغة، مادة (عصم) ٤: ٤٣٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة (عصم) ٥٦٨.

(٣) مختار الصحاح، مادة (عصم) ٤٣٧.

(٤) لسان العرب (مادة عصم) ١٢: ٤٠٣.

(أولاً) الإمامية

ذهب الشيخ المفيد رحمه الله (ت ٤١٣ هـ) إلى القول إنّها (لطف يفعله الله تعالى بالمكلف، بحيث تمنع وقوع المعصية، وترك الطاعة، مع قدرته عليها)[١].

وكذا هي لطف من الله يترتب عليه الوثوق بقول المعصوم عليه السلام ولذا اعتبرها العلامة ابن المطهّر الحلّي رحمه الله (ت ٧٢٦ هـ): (لطف خفي يفعل الله تعالى بالمكلف إذ لا يكون له داع إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية مع قدرته على ذلك، لأنّه لولا ذلك لم يحصل الوثوق بقوله فانتفت الفائدة من البعثة وهو محال)[٢].

وفي الصراط المستقيم أكدّ الشيخ زين الدين العاملي على اتصافهم عليهم السلام بالعصمة عن كل نقيصة من أول عمرهم[٣].

ومن هنا قالوا: (وليس معنى العصمة أنَّ الله يجبره على ترك المعصية بل يفعل به ألطافاً، يترك معها المعصية، باختياره مع قدرته عليها[٤].

ويضيف السيد الشهيد مُحَمَّد باقر الصدر أبعاد أُخَر مهمة على معنى

---

(١) النكت الاعتقادية ١٠: ٣٧ مصنفات الشيخ المفيد، المؤتمر العالمي (د.ت).

(٢) الفاضل المقداد، شرح الباب الحادي عشر: ٦٣، تحقيق محسن الصدر الرضواني مطبعة سلمان الفارسي ط١، ١٤١٢ هـ - ١٣٧٠.

(٣) ظ: العلامة الشيخ زين الدين أبو محمّد علي بن يونس العاملي النياطي (ت ٨٧٧ هـ)، الصراط المستقيم ١: ٥٠، تحقيق محمد الباقر العبودي، المكتبة المركزية لإحياء الآثار الجعفرية ط ١، ١٣٨٤ هـ. ش.

(٤) السيد عبد الله شبر (ت ١٢٤٢ هـ)، حق اليقين ١: ٩٠ مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٥٢ هـ.

العصمة من خلال ارتباطها بالرسالة في إطارها الشمولي فيقول: (العصمة تعبير عن الانفعال الكامل بالرسالة والتجسيد الكامل لكل معطيات تلك الرسالة في النطاقات الروحية والفكرية والعملية)[١].

وهذه التعريفات والدلالات التي اعتمدها متكلمو الإمامية نجد أنّها اشتقت من الأصول والآثار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام [٢].

ومن ذلك ما رواه الشيخ الصدوق رحمه الله بإسناده إلى الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام عن أبيه عن جده عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: الإمام منا لا يكون إلاّ معصوماً.. فقيل يا ابن رسول الله فما معنى المعصوم؟ فقال: هو المعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة: والإمام يهدي إلى القرآن، والقرآن يهدي إلى الإمام، وذلك قول الله عزّ وجلّ: { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } (الإسراء / ٩).

وكذلك بإسناده إلى هشام بن الحكم قال:

سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك (أي معنى الإمام لا يكون إلاّ معصوماً) فقال: المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله، وقد قال الله تعالى: { وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } (آل عمران / ١٠١)[٣].

---

(١) محمد باقر الصدر، تنوع أدوار ووحدة هدف ٤٧.

(٢) ظ: الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمّي (ت ٣٨١ هـ) معاني الأخبار ١٣٢، تحقيق علي أكبر غفاري، انتشارات إسلامي ١٣٦١ هـ.

(٣) المصدر نفسه ١٣٢.

(ثانياً) المعتزلة

يرى بعض المعتزلة أنّ العصمة راجعة إلى اللطف فيكون المعنى، عصمةُ حين يمنع معه وقوع فعل المعصية على وجه الحكم وهذا النوع من اللفظ خاص بالأنبياء عليهم السلام يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت ٤١٥ هـ) (والأسامي تختلف عليه فربما يسمى توفيقاً وربما يسمى عصمة إلى غير ذلك)(١).

لذلك فهو يُعرّف العصمة فيقول: إنّها (تعبير عن لطف يقع معه الملطوف فهي لا محالة حتى يكون المرء معه كالمدفوع إلى أنَّ لا يرتكب الكبائر ولهذا لا يطلق إلا على الأنبياء أو من يجري مجراهم)(٢).

ولما كانت البعثة لطفاً للمكلفين فيما يراه المعتزلة فيجب أنَّ تحصل في أتم صورة من صور الكمال، وهذا يقتضي أنَّ تتحقق في المبعوث صفات معينة كالنزاهة عن جميع المنفرات سواء الصغير منها أو الكبير.

ولذا يقرر المعتزلة أنّه لابد له تعالى من (ان يجنّب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ما ينفر عن القبول منه لأنّه لو لم يجنّبه عن مثل هذه الحال لم يقع القبول منه، ولأنّ المكلّف لا يكون أقرب إلى ذلك إلاّ على ما قلناه، فيجب أنَّ يجنبهم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عن الغلظة والفضاضة وذكر علته قال تعالى: { وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ } (٣) (آل عمران / ٥٩).

---

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت ٤١٥ هـ)، شرح الأصول الخمسة: ٥١٩ تحقيق د. عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة ط ١، ١٩٦٥ م.

(٢) المصدر نفسه: ٧٨٠، ظ القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، المغني ١٣: ١٢ تحقيق د. محمود محمد قاسم.

(٣) شرح الأصول، مصدر سابق ١٠٥.

(ثالثاً) الأشاعرة

وأما الأشاعرة فيرى العلامة ابن المطهر الحلّي أنّهم يجوّزون على الأنبياء الصغائر والكبائر إلا الكفر والكذب[1].

فلذا تكون العصمة ثابتة عندهم بعد البعثة من دون قبلها ومن الذنوب كلها ما عدا السهو والخطأ، وجائز عليهم الذنب قبل البعثة.

يقول البغدادي: فقد سها نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في صلاته حين سلّم في الركعتين ثم بنى عليها وسجد سجدتي السهو، فقال النظام:[2] إن ذنوبهم على السهو والخطأ مأخوذة لما وقع منهم من هذه الجهة وإن كان ذلك موضوعاً عن أممهم وإنما يصح عصمتهم على أصولنا إذا قلنا إنّ الله أقدرهم على الطاعة من دون المعاصي وصاروا بذلك معصومين عن المعاصي[3] فقد كان الأنبياء جميعاً قبل بعثتهم مؤمنين بالله موحدين، أما بالأدلة العقلية أو على شريعة من قبلهم ولقد كان الرسول قبل بعثته متابعاً ملة إبراهيم عليه السلام [4].

---

(١) ظ: جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي المطهّر العلامة الحلي (ت ٧٢٦ هـ) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ص ٣٧٦، تعليق إبراهيم الموسوي الزنجاني منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٢ م، مفلح بن الحسن بن راشد ابن صلاح البحراني، من أعلام القرن التاسع، إلزام النواصب ص ١١٩ تحقيق، عبد الرضا النجفي ط ١ ١٤٢٠ هـ.

(٢) ظ: الخياط المعتزلي، أبو الحسن عبد الرحيم، الانتصار ص ٩٣، تحقيق د. نيبرج، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ١٩٢٥ م.

(٣) ظ: البغدادي،عبد القاهر بن طاهر، أصول الدين ص ١٦٩ مدرسة الإلهيات دار الفنون التركية، استنبول ط ١، ١٩٨٢ م.

(٤) ظ: أحمد صبحي، في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية ص ٥٥١ مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٧ م.

وعند التأمل قد نجد المذهب عند محققي الأشاعرة منع الكبائر والصغائر الخسيسة بعد البعثة مطلقاً، والصغائر غير الخسيسة عمداً لا سهواً[١]، مثبت أنّ العصمة عند الأشاعرة صدور المعصية كبيرة أو صغيرة عمداً أي أنّ صدورها سهواً لا ينافي العصمة[٢].

ويذهب البغدادي إلى أنّ الأنبياء جميعهم معصومون من الذنوب كلها بعد البعثة لا قبلها، وأما السهو والخطأ فجائز عليهم[٣].

وعليه فيرى أحمد صبحي أنّ المعتزلة أشد نزاهة من الأشاعرة في الموقف تجاه عصمة الأنبياء ويستغرب من انتقاد البغدادي لهم مع أنّهم لم يثبتوا للنبي أي ذنبٍ على سبيل الخطأ في التأويل، فينكر عليهم القول: إنّ الله قد حصنهم من الذنوب[٤].

---

(١) ظ: الشريف علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦ هـ)، شرح المواقف ٨: ٢٦٥ مطبعة السعادة مصر ط ١، ١٣٢٥ هـ ١٩٧٠ م.

(٢) ظ: أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي (ت ٣٨٠ هـ) التعرّف لمذهب التصوّف تحقيق أحمد شمس الدين طه، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣، محيي الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي (ت ٦٦٠ هـ)، معالم أصول الدين، تحقيق طه عبد الرزاق، دار الكتب العربية، بيروت – لبنان ط ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

(٣) ظ: البغدادي عبد القاهر، أصول الدين ص ١٦٥.

(٤) أحمد صبحي، في علم الكلام ص ٥٥١.

المطلب الأول: الأدلة النقلية على القول بالعصمة المطلقة

أولاً: الأدلة القرآنية

قبل محاولة عرض نماذج من الأدلة القرآنية الدامغة للعصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام لابد من بيان أمر، فقد يدّعى أنّ العصمة والبحث فيها ليست من الأفكار التي عرضها القرآن الكريم، بل هي مسألة ترجع في جذورها إلى الاختلافات التي نشبت بين علماء الكلام في المسائل الاعتقادية، وفي ضوء هذه الدعوة نستطيع أنَّ نقرر أنَّ الأمر ليس كما ذُكر، إذ يكفي في ردها القول إنّ القرآن الكريم قد صرّح بمسألة العصمة ونص عليها في غير مورد، وهنا ما نحن بصدد بيانه بعرض نماذج من الآيات الداعمة لذلك.

الآية الأولى

قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف / ١٨١).

الآية المباركة واضحة الدلالة على الملازمة بين الحق وبين الهادي إليه وهي (تدل على أنّه لا يخلو زمان ألبتة عمن يقوم بالحق، ويعمل به ويهدي إليه، وأنّهم لا يجتمعون في شيء من الأزمنة على الباطل...)[1].

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ١٥: ٦٠ ،

ومن كان بهذه الصفات لابد أنَّ يكون معصوماً مخلصاً كي يكون أهلاً للإقتداء.

ولذا نجد القرطبي يوافق الرازي في دلالة الآية على الهادي للحق فقال: (دلت الآية على أنّ الله عزّ وجلّ لا يخلي الدنيا في وقت من الأوقات من داعٍ يدعو إلى الحق..)[1].

ونستطيع أنَّ نستنتج من هذا بأنّ هذه الأمة هي آخر الأُمم وأنّه لابد أنَّ يبقى منها من يقوم بأوامر الله مع قيام الدنيا وأنّه الهادي والداعي إلى الحق.

وقال السيد الطباطبائي رحمه الله: إنّها (تدل على أنّ النوع الإنساني يتضمن طائفة قليلة أو كثيرة مهتدية حقيقية، إذ الكلام في الاهتداء والضلال الحقيقيين المستندين إلى صنع الله ومن يهدي الله فهو المهتدي، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون، والاهتداء الحقيقي لا يكون إلاّ عن هداية حقيقية، وهي التي لله سبحانه)[2].

ثم يقول: (إنّ الهداية الحقيقية الإلهية لا تختلف عن مقتضاها بوجه وتوجب العصمة من الضلال)[3].

فالذي يهدي بالحق وبه يعدل لابد أنَّ يكون معصوماً في الأزمنة جميعها ولا يمكن بناءً على هذا أنَّ يظهر المصداق لهذهِ الآية المباركة إلاّ على ما نقول في وجود الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٥٥.

(٢) الميزان ٨: ٣٤٥.

(٣) المصدر نفسه ٨: ٣٤٥.

الآية الثانية

قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } (آل عمران / ٣٣).

يستطيع المتتبع لألفاظ الآية المباركة وخصوصاً عند الوقوف على مفردة (اصطفى) أنَّ يستنتج من خلالها عصمة الأنبياء ونفي عنهم كل لون من ألوان العتب واللوم –كما هو واضح عند أغلب مفسري المذاهب الإسلامية بعد الانطلاق من المعنى اللغوي لذلك.

وجاء كل هذا موافقاً لما ذهب إليه الشيخ الطوسي رحمه الله مُحَمَّد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ) من فهم الآية المباركة ودلالتها على الاصطفاء لهم عليهم السلام)[١].

وهذا ما وجدناه عند الشيخ الطبرسي رحمه الله، إذ قال: (الاصطفاء والاجتباء والاختيار نظائر، وهو افتعال من الصفوة وهذا من أحسن البيان الذي يمثل به المعلوم المرئي، وذلك أنّ الصافي هو النقي من شوائب الأدناس)[٢].

ثم ينتقل إلى تحديد المعنى المراد من الآية انطلاقاً من هذه الدلالة اللغوية فيقول (ويجب أنَّ يكون الذين اصطفاهم الله تعالى مطهرّين معصومين منزهين عن القبائح لأنّه تعالى لا يختار ولا يصطفي إلاّ من كان كذلك ويكون ظاهره مثل باطنه في الطهارة والعصمة فعلى هذا يختص الاصطفاء بمن كان معصوماً من آل إبراهيم وآل عمران سواء كان نبياً أو إماماً)[٣].

(١) ظ: التبيان ٢: ٤٤١.

(٢) مجمع البيان ٢: ٤٥٤.

(٣) المصدر نفسه ٢: ٥٥٥.

وما يقارب هذا المعنى من دلالة الآية على العصمة المطلقة لهم عليهم السلام ما ذكره في جوامع الجامع[١].

ويرى بعد ذلك أنَّ دلالة الآية على الاصطفاء ذات وجهين فيقول: («إحداها» أنَّهُ اصطفاه لنفسه أي جعله خالصاً له يختص به و«الثاني» أنّه اصطفاه على غيره أي اختصّه بالتفضيل على غيره)[٢].

ومن الإمامية من يرى أنّ المائز بين الأنبياء والأئمة عليهم السلام وبين سائر الخلق هي العصمة، فقال: (ومن البداهة بمكان أنّ وجه الاصطفاء، هذا وسببه يكمن في العصمة الذاتية المتواجدة في الأنبياء والأئمة عليهم السلام وبها امتازوا عن الخلق فهم يتمتعون بحصانةٍ تجاه كل أنواع الكفر والشرك والذنوب الكبيرة والصغيرة والخطأ العمدي أو السهوي أو النسيان، لأنّهم يسقطون من مزيّة الاصطفاء الإلهي بمجرّد صدور الذنب عنهم ولأنّ العقل السليم لا يقبل أنَّ يصدق أنّ فرداً يذنب ويعصي الله عزّ وجلّ ويكون مصطفاً ومقرباً إليه)[٣].

وفي كلامه هذا دلالة واضحة على إطلاق العصمة للأنبياء عليهم السلام وتنزيههم عن غيرهم بعدم إمكان صدور مطلق الذنب عنهم عليهم السلام.

وأشار السيد عبد الله شبر رحمه الله إلى عصمتهم عليهم السلام من خلال الاصطفاء في الآية المباركة إذ يرى أنّ الله تعالى اصطفاهم (بالنبوة والإمامة والعصمة...)[٤].

---

(١) ظ: أبو الفضل بن الحسن الطبرسي ١: ١٦٩.

(٢) مجمع البيان ٢: ٥٥٥.

(٣) الاحقاقي ميرزا عبد الرسول الحائري بحث حول الولاية من وحي القرآن ٢: ٢٣١ تحقيق علي العبسي العاملي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

(٤) السيد عبد الله شبّر تفسير القرآن الكريم ١: ٥٤.

وهذه واضحة الدلالة على كون المراد في الآية الكريمة هي عصمتهم عليهم السلام إذ كانوا مبرئين من كل عيب ونقص وذنب.

ويرى من هو في إطار البحث الكلامي أنّ معنى الاصطفاء في الآية اختيار وانتخاب للنبوّة والإمامة وما فيها من الخصائص الروحانية والعصمة والكمالات والفضائل، وما يلازمها من الصفات الخيرة الجسمانية والروحية والخلقية[(١)].

ثم يستخلص منها بعد ذلك إيجاب أنَّ يكون الاصطفاء محصوراً بمن كان معصوماً من آل إبراهيم وآل عمران بلا فرق بين كونهم أنبياء أو أئمة.

فمن كانت هذه صفاته كيف يتصوّر أنَّ يكون غافلاً عن ذكر الله مائلاً إلى شهواته أضف إلى ذلك أنّ التسديد الإلهي لأنبيائه ورسله مانعاً باختيار منهم من الاقتراب من كل ذنب وخطيئة مهما كان حجمه ونوعه وهو عين إطلاق العصمة لهم عليهم السلام.

وذهب بعض متكلمي العامة ومفسرّيهم إلى أنّ الآية فيها دلالة على عصمتهم عليهم السلام فمنشأه ذلك الاختيار والاجتباء والاصطفاء لهم، وهذا ما نجده عند الطبري (أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)) إذ يروي بسلسلة الإسناد إلى الحسن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران/ ٣٣-٣٤) قال: (فضلهم الله على العالمين بالنبوّة على الناس كلهم كانوا هم الأنبياء الأتقياء المطيعين لربهم)[(٢)].

---

(١) ظ: السبزواري الخطيّ (ت ١٤١٠ هـ) التفسير الجديد ٢: ٤٤–٤٥ دار التعارف للمطبوعات بيروت – لبنان، ط١، ظ: مير سيد علي الحائري مقتنيات الدرر ٢: ١٨٥، السيد عبد الله شبر، الجوهر الثمين ٣: ٣١٣.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن ٣: ٢١٧.

والتفضيل بالنبوة هو من ملازمات العصمة وهذا مما لا خلاف فيه على إطلاقه وإن اختلفوا في تحديد السعة العصمة.

ويستدل الفخر الرازي على عصمتهم بانتفاء صدور الذنب عنهم لدخولهم في صفة (المصطفين) و(الاختيار) المشتملة على جملة الأفعال والتروك)[١].

ويرى القرطبي أنّ الله اختارهم واشتقهم وجعلهم الصفوة ثم بيّن مراتبهم ذاكراً (فأما مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم فقد جازت مرتبته الاصطفاء لأنّه حبيب ورحمة، قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء/١٠٧).

وهذا في غاية المدح والثناء وهو قمة الاصطفاء إذ جعله رحمة لجميع العالمين مع الاستغراق التام لهم فكيف يتصوّر أنَّ يلام أو يُعاتب (صلوات الله عليه)[٢].

وأما البيضاوي (ت ٧٩١ هـ) فيذهب إلى أنّ منشأ العصمة كذلك في الآية المباركة هو حيازة بعض الخصائص والميزات الداعية الآخر لأتباعهم والإقتداء بهم عليهم السلام فيرى أنّ الله اصطفاهم (بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية ولذلك قووا على ما لم يقو عليه غيرهم لما أوجب طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويتبين أنّها الجالبة لمحبّة الله عقب ذلك بيان مناقبهم تحريضاً عليها وبه استدل على فضلهم على الملائكة وآل إبراهيم وآل إسماعيل وإسحاق وأولادهما وقد دخل فيهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآل عمران...)[٣].

نستفيد من هذا كلّه أنّ الأنبياء عليهم السلام قد اختارهم الله وهذا يعني أنّه تعالى جمعهم لنفسه عن طريق الاصطفاء وما داموا عليهم السلام قد أدرجوا في

(١) عصمة الأنبياء ١١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢: ٤٥ – ٤٦.

(٣) تفسير البيضاوي ٢: ٢٩.

المخلصين والمصطفين فلا سلطان إذن لإبليس عليهم لأنهم أولياء الله وأحباؤه كانوا محفوظين من العوامل جميعها التي تنشأ منها المعصية ويُرتكب بسببها الذنب سواء الخارجية منها أم الداخلية وبذلك تثبت عصمتهم المطلقة لا محالة.

الآية الثالثة

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة / ١٢٤).

تدل الآية المباركة على إطلاق العصمة وإن أخذ سياقها القرآني منحى الإمامة باعتبار العهد الذي لا يناله من وسمّ بالظُلمِ، إذ إنّها جاءت بعد مرتبة النبوة المصاحبة للعصمة قطعاً.

وهذا المعنى نجده عند الطبرسي رحمه الله إذ اثبت العصمة لانتفاء توفر أي نوع من أنواع الظلم عند الأنبياء والرسل عليهم السلام، فيرى أنّ سبيل الرشاد وطريق الهداية لابد أنَّ يؤخذ من المعصوم قال: (واستدل أصحابنا بهذه الآية على أنّ الإمام لا يكون إلا معصوماً عن القبائح، لأنّ الله سبحانه نفى أنَّ ينال عهده الذي هو الإمامة ظالم ومن هو ليس بمعصوم)[1].

ويبدو لنا أنّ مفردة الظالم أو الظالمين تمثل التعدي لحدود الله تعالى سواء كان عن عمد أو سهو وهذا المعنى لا نجده عند المصطفين الأخيار من الأنبياء المرسلين والأئمة عليهم السلام وعليه فلا يمكن أنَّ ينال عهد الله فيجب أنَّ يكون معصوماً.

ولذا يذهب إلى أنّ الخطاب كأنما يقول (أي من كان ظالماً من ذريتك لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة وأن ينال من لا يفعل ظلماً، وهذا يدل على وجوب

---

(١) مجمع البيان ١: ٢٥٨.

العصمة للإمام وأنّ مَنْ ليس بمعصوم فقد يكون ظالماً أما لنفسه أو لغيره)[(١)].

وذهب السيد هاشم البحراني رحمه الله إلى دلالة الآية على إثبات العصمة لهم عليهم السلام كما يلاحظ ذلك في طي تفسيره قال: (وقول إبراهيم عليه السلام ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ (إبراهيم/ ٤٠) من حرف تبعيض ليعلم أنّ من الذرّية من يستحق الإمامة ومنهم من لا يستحقها هذا من جملة المسلمين، وذلك يستحيل أنَّ يدعو إبراهيم عليه السلام بالإمامة للكافر أو المسلم الذي ليس بمعصوم، فصح أنّ من باب التبعيض وقع على خواص المؤمنين جملة الخواص الأخص، ثم المعصوم هو الخاص الأخص)[(٢)].

وإلاّ غير الأنبياء والرسل والأئمة لم يكن هناك من له صفة الخاصية هذه فيكون الإتباع لهم فقط لوجوب عصمتهم.

وبناءً على ضرورة الهداية والإرشاد والقيادة أنَّ تكون بيد المعصوم يرى السيد عبد الله شبر أنّ السفيه لا يكون إمام التقيّ فيستنتج أنّ الآية (دلت على وجوب عصمة النبيّ والإمام لصدق الظالم على العاصي سواء فسر بانتقاص الحق أو وضع الشيء في غير موقعه)[(٣)].

وعنى السيد الطباطبائي رحمه الله بضرورة أنَّ يكون الهادي للحق معصوماً في نفسه إذ قال: (ثم أنّ هذا المعنى – أعني الإمامة – على شرافته وعظمته لا يقوم الا بمن كان سيد الذات بنفسه إذ الذي ربما يتلبس بالظلم والشقاء، فإنما سعادته

---

(١) الطبرسي، جوامع الجامع ١: ٧٧.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ١: ٥٣٨، ظ: شبر، الجوهر الثمين ١: ١٤٢، الشيخ محمد بن محمد رضا الهندي، كنز الدقائق ٢: ١٣٦، محمد جواد مغنية، الكاشف ١: ١٩٦.

(٣) تفسير شبر ١: ١٨.

بداية من غيره وقد قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (يونس / ٣٥).

وقد قوبل في هذه الآية بين الهادي إلى الحق وبين غير المهتدي إلا بغيره أعني المهتدي بغيره وهذه المقابلة تقتضي أنَّ يكون الهادي إلى الحق مهتدياً بنفسه وان المهتدي بغيره لا يكون هادياً إلى الحق[1].

هذا ما ذهب إليه الإمامية في معالجة هذه الآية المباركة إذ اثبتوا أنّ الإمام (المعصوم) لا يمكن أنَّ يكون مخطئاً أصلاً، وإلاّ لكان ظلماً في ذلك المصداق بالذات، فيشمله أنّه من الظالمين، فلا يمكن أنَّ ينال عهد الله تعالى فيجب أنَّ يكون معصوماً، فإذا كان الإمام كذلك فالنبيّ أو الرسول يكون من باب أولى مصداق لذلك لأنّه حاز ملاكات القيادة والهداية بما حوته النبوة من خصائص أسماها مرتبة هي العصمة التي جاءت متقدمة رتبة وزمناً على الإمامة، فالظالم سيكون في جهة مغايرة لجهة الأنبياء والرسل والأئمة ومعه لا يمكن أنَّ يكونا في مصداق واحد جزماً ومنه نستشف أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون مطهرّون من كل عيب مهما كان حجمه.

وأما مذهب العامة في التعامل مع هذه الآية المباركة في إثبات عصمة الأنبياء عليهم السلام فما يراه الزمخشري (ت ٥٣٨) من أنَّ هذا المنصب مختص بمن خوطب به أي الأصفياء ممن اختارهم لرسالته وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام والظالم بعيد عن هذا الاستخلاف قال: (من كان ظالماً من ذريتك لا يناله استخلافي وعهدي له بالإمامة وإنما نال من كان عادلاً بريئاً من الظلم)[2].

---

(١) ظ: الطباطبائي الميزان ١: ٢٧٣.

(٢) الكشاف ١: ٢١١.

ويمكن أنَّ نضيف أنّ الاستخلاف والعهد ملازم للهداية التي هي سنة إلهية أعطيت للأنبياء عليهم السلام لما امتازوا به عن غيرهم، فبالاستخلاف والهداية يكون هناك نوع من الاقتران بين وضيفة النبوة ووظيفة الإمامة وهما داخلان في إطار نظام التكوين الذي سنّهُ الله تعالى لهداية خلقة.

وأول دليل على ذلك ما ذكره الفخر الرازي، إذ قال: (الآية تدل على عصمة الأنبياء عليهم السلام من وجهين: «الأول» أنَّهُ قد ثبت أنَّ المراد من هذا العهد (الإمامة) ولا ريب أنّ كل نبيّ إمام فالإمام هو الذي يؤتم به والنبيّ أولى بالناس، وإذا دلت الآية على أنّ الإمام لا يكون فاسقاً وفاعلاً للذنب والمعصية فالنبي أولى، «الثاني»: ((قال: (({ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } (البقرة/١٢٤) فهذا العهد إن كان هو النبوة، وجب أنَّ تكون لا ينالها أحد من الظالمين، وأن كان هو الإمامة فكذلك لأنّ كل نبي لابد وأن يكون إماماً يؤتم به، وكل فاسق ظالم لنفسه، توجب أنَّ لا تحصل النبوّة لأحد من الفاسقين))[1].

واستدل كذلك على عصمة الأنبياء بهذه الآية باعتبار العهد سواء كان عهد النبوة أو الإمامة فهو يراه عهد النبوة أظهر في المقصود من العهد لأنّ عنده عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوّة[2].

وهذا بخلاف ما تراه الإمامية من أنّ الإمامة امتداد طبيعي للنبوّة ولا يوجد هناك تعارضٌ بينهما من جهة الهداية أو غيرها إلاّ في مسألة الوحي وما يترتب عليه.

ويبدو أنّ قوله ((عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوّة)) فيه نوع تحفّظ وإن كان أصل الاستدلال صحيحاً، بناءً على أنّ المراد بالظالمين ما يشمل الظالم

(١) مفاتيح الغيب ٤: ٤٠.

(٢) عصمة الأنبياء : ١٤.

لنفسه، وإلا لما احتاج مرتكب الصغيرة إلى التوبة لتغفر لـه، ولمـا تحوّلـت إلى كـبيرة بعد التوبة عنها والإصرار على العودة إليها، إلاّ أنَّ بعض الروايات فسرّت الظلـم هنا بعبادة الأصنام[١] وربما لا تنافي بين هـذا التفـسير وعمـوم اللفـظ بنـاءً علـى أنّ ذلك التفسير من باب التطبيق لا الحصر.

الآية الرابعة

قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء/٥٩).

في الآية المباركة دلالة واضحة على عصمة الأنبياء ونفي إمكان الخطأ الـذي يستتبع لوماً وعتاباً في حقهم عليهم الـسلام – مـن اشـتمالها علـى مـسائل أخـرى ضبطها أصحاب التفسير فيما يتعلق بأولي الأمر وسعة شمولها لهـم علـيهم الـسلام، والغرض الذي تتوخاه منها هـو إثباتهـا لعـصمة الأنبيـاء علـيهم الـسلام مـن جهـة الإطاعة الواجبة التي قرنها الله سبحانه وتعالى للأنبياء علـيهم الـسلام وأولي الأمـر بطاعته جل ذكره لثبوت عصمتهم عليهم السلام.

قال الطوسي رحمه الله: (ولا يجوز أنَّ يوجب الله طاعة أحد مطلقاً إلاّ من كان معصوماً مأموناً من السهو والغلط، وليس ذلك بحاصل في الأمراء ولا في العلماء)[٢].

وما يقارب من هذا اللفظ والمعنى ما نجده عنـد الطبرسـي رحمـه الله إذ ذكـر: (ولا يجوز أنّ يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلاّ من ثبتت عصمته وعلـم أنَّ باطنه لظاهره وأمن منه الغلط والأمر بالقبيح)[٣].

---

(١) ظ: الكليني: أصول الكافي ١: ١٧٥.

(٢) التبيان ٣: ٢٣٧.

(٣) مجمع البيان ٣: ٨٣.

ويستفيد السيد الطباطبائي رحمه الله من إطلاق الآية دليلاً على عصمتهم عليهم السلام، إذ قال: (على أنّ الآية جمع فيها بين الرسول وأُولي الأمر، وذكر لها معاً طاعةً واحدة فقال: { وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ } (النساء/٥٩) وما يجوز على الرسول أنَّ يأمر بمعصية أو بغلط في حكم، فلو جاز في شيء من ذلك على أُولي الأمر لم يسع إلاّ أنَّ يذكر القيد الوارد عليهم فلا مناص من أخذ الآية مطلقة من غير تقيد ولازمه اعتبار العصمة في جانب أُولي الأمر كما اعتبر في جانب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير فرق)[1].

وعند التدبر بكلمات أعلام التفسير من غير المدرسة الإمامية نجد أنّ العصمة هي السمة الغالبة لمن قرن الله طاعتهم بطاعته ولسان الفخر الرازي في إثبات عصمة الأنبياء عليهم السلام من إذ كونهم في مقدمة أولي الأمر المذكورين في الآية المباركة خير شاهد على ذلك إذ ذكروا الدليل على ذلك أنّ الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابد أنَّ يكون معصوماً عن الخطأ إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ فهي عنه فهذا يقضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد وأنه محال، فثبت أنَّ الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أنَّ يكون معصوماً عن الخطأ فثبت قطعاً أنّ ولي الأمر المذكور في الآية لابد وأن يكون معصوماً)[2].

---

(١) الميزان ٤: ٣٩١.

(٢) مفاتيح الغيب ١٠: ١١٦، ظ: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٣: ١٨١ – ١٨٢.

وعلى هذا فإذا ثبت العصمة لأولي الأمر عليهم السلام بغض النظر عمن حمل الرازي وغيره بنسبة الآية بهم، فإنّها تكون ثابتة للأنبياء بطريق أولي لأنّهم من مصاديق أُولي الأمر المأمورون باتباعهم.

ويمكن أنَّ نستوحي من هذه الآية المباركة إفادات عدة أهمها:

الأولى

بما أنّ الله سبحانه وتعالى منبع العصمة، إذاً يجب أنَّ يكون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم معصوماً وإلاّ لاختلّت الإطاعة الثانية لما عُطفت على الإطاعة الأولى.

الثانية

قوله تعالى في نهاية الآية المباركة ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء / ٦٠).

يظهر منها وجوب كون الرسول معصوماً وإلاّ لطلب منهم أنَّ يردوه إلى الله فقط لئلا يحدث الخطأ بخطأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولما قال في نهاية الآية ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء/٥٩) لأنّه أنّ لم يكن معصوماً لأغرانا الله بالباطل جلّ عن ذلك.

الثالثة

لقد عطفت الآية أولي الأمر على طاعة الله ورسوله من إذ إنهما مطلقتان فتكون طاعة أولي الأمر مطلقة أيضاً وهذا يعني أنّ من يطع أولي الأمر فقد أطاع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن يطع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

فقد أطاع الله تعالى، ثم أنّه من تجب له الطاعة المطلقة يجب أنَّ يكون معصوماً بالعصمة المطلقة ومن ثم فمن غير المعقول أنَّ يكون المراد بأُولي الأمر في الآية الكريمة حكام العدل غير المعصومين، فضلاً عن حكّام الجور والظلم، فإنّ حكام العدل غير المعصومين إنّما تجب طاعتهم في حدود معيّنة لا مطلقاً كما هو معلوم، ومن ذلك نستنتج أنّ المراد من أُولي الأمر في الآية المباركة هو خصوص الأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام وثبوتها للأنبياء عليهم السلام يكون من باب أولى لأنّهم مصداق حي لهذه الآية المباركة.

الآية الخامسة

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (النساء / ١١٣).

هذه الآية الكريمة كذلك تدل على عصمة الأنبياء مع أبعاد ممن يريد أنَّ يلحق الضرر بهم لما زودوا به من الله من امكانات علمية خاصة جعلتهم عليهم السلام في حصانة تامة من الضلال، فضرب لهم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً.

فالمنشأ الرئيس لعصمتهم عليهم السلام هو العلم الذي زودوا به.

يستفيد الطبرسي من عصمة الأنبياء عليهم السلام في هذه الآية المباركة من جهة رعاية الله للنبي وألطافه به إذ قال: (ثم بين سبحانه لطفه برسوله وفضله عليه إذ صرف كيدهم عنه وعصمه من الميل اليهم)[1].

---

(١) مجمع البيان ٣: ١٣٧.

أما المجلسي رحمه الله فيرى أنّ الفضل هو النبوّة وأنّ الرحمة هي العصمة فقال: (أي لولا أنّ الله خصّك بالفضل وهو النبوّة وبالرحمة وهي العصمة)[1] ثم أَنَّهُ يثبت العصمة من خلال تفسيره لقوله تعالى: { وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ } (النساء/١١٣) قال: (فيه وجهان أحدهما ما يضرونك من شيء في المستقبل فوعده الله تعالى في هذه الآية إدامة العصمة لما يريدون من إيقاعه بالباطل)[2].

ويرى الطباطبائي رحمه الله أنّ (ظاهر الآية الذي تحقق به العصمة نوع من العلم يمتع صاحبه عن التلبس بالمعصية والخطأ)[3]، ثم يقول: إشارة على موهبة العلم الذي عبر عنه بالعصمة (إنّ هذه الموهبة الإلهية التي نسمّيها قوّة العصمة نوع من القوى الشعورية البتّة، بل هي الغالبة القاهرة عليها المستخدمة إياها، ولذلك كانت تصون صاحبها من الضلال والخطيئة مطلقاً)[4].

وذهب أتباع المدارس الأخرى إلى ما ذهبت إليه الإمامية من إثبات العصمة من خلال دلالة الآية المباركة.

ومنهم من قرأ: { وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ } (النساء/١١٣) (أي عصمته وألطافه)[5].

فجعل الفضل الذي مَنَّ الله به على نبيّه هو العصمة، وهكذا الحال عند

(١) بحار الأنوار ١٧: ٣٩.

(٢) المصدر نفسه ١٧ ٣٩.

(٣) الميزان ٥: ٧٨.

(٤) المصدر نفسه ٥: ٨٠.

(٥) ظ: الكشاف ١: ٥٩٧، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١: ٥٥٥ البيضاوي، تفسير البيضاوي ٢: ٢٥٤.

القرطبي إذ أفاد الاستدلال على عصمة الأنبياء بعد أنَّ استند في ذلك إلى أحد الأقوال فقال: (والمعنى: ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ (النساء/١١٣) بأن ينبهّك على الحق وقيل بالنبوّة والعصمة)[1].

الآية السادسة

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء/ ٦٤).

هذه من الآيات المباركات التي استدل بها علماء التفسير وعلماء الكلام على عصمة الأنبياء عليهم السلام ونزاهتهم.

قال الطبرسي رحمه الله (ثم لامهم سبحانه على ردّهم أمره وذكر أنّ غرضه من البعثة الطاعة، فقال ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ﴾ (إبراهيم/٤) أي لم نرسل رسولاً من رسلنا ﴿ إِلاَّ لِيُطَاعَ ﴾ (النساء/٦٤) عني به أنّ الغرض من الإرسال أنَّ يطاع الرسول ويتمثّل بما يأمر به ثم أنّه يرى قوله تعالى ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء/٦٤) أي بأمر الله الذي دل على وجوب طاعتهم[2].

قال العلامة الطباطبائي رحمه الله: (ومما يدل على عصمتهم عليهم السلام قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء/ ٦٤) إذ جعل كون الرسول مطاعاً غاية الإرسال، وقصر العناية فيه، وذلك يستدعي بالملازمة البيّنة تعلق إرادته تعالى بكل ما يطاع فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو قوله أو فعله؛ لأنّ كل منهما وسيلة معمولة متداولة في التبليغ، فلو تحقق من الرسول خطأً في فهم الوحي أو في التبليغ كان ذلك إرادة منه تعالى للباطل والله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٦٢.

(٢) مجمع البيان ٣: ٨٧.

سبحانه لا يريد إلا الحق)[١].

أما الرازي فنجده يؤكد هذا المعنى باستدلال واضح لعصمة الأنبياء عليهم السلام إذ كتب (الآية دالة على أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون عن المعاصي والذنوب لأنّها دلّت على وجوب طاعتهم مطلقاً، فلو أتوا بمعصيةٍ لوجب علينا الاقتداء بهم في تلك المعصية واجبة علينا، وكونها معصية يوجب كونها محرّمة علينا، فيلزم توارد الإيجاب والتحريم على الشيء الواحد وأنه محال)[٢].

الآية السابعة

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة/١١٩).

استدل كل من ابن شهر اشوب رحمه الله (ت ٨٥٣) من علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام والفخر الرازي على عصمة من اتصف بالصدق في الآية.

قال ابن شهر اشوب رحمه الله قوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة/١١٩) (فأمرنا سبحانه بالكون مع الصادقين، والأمر بالكون معهم في المكان لا فائدة فيه، فتقتضي الآية وجوب الاقتداء بهم، لأنه أمر مطلق من غير تخصيص، وذلك يقتضي عصمتهم، لقبح الأمر على هذا الوجه بإتباع من لا يؤمن منه القبيح، من إذ يؤدي ذلك إلى الأمر بالقبح وإذا ثبت ذلك في الآية ثبت تخصيصها بالأئمة المعصومين)[٣].

---

(١) الميزان ٢: ١٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب ١٠: ١٢٩.

(٣) ظ: القاضي عبد الجبّار: متشابه القرآن ٢: ٤٩، تحقيق، عدنان محمّد زرزور، دار التراث، القاهرة.

وهذا الكلام في العصمة يمكن تعديه إلى جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام لكونهم من أجلى مصاديق الصادقين هذا بالإضافة إلى إطلاق الآية الشامل لهم.

وأما الفخر الرزاي فيرى (أمر لهم بالتقوى وهذا الأمر انما يتناول من يصح منه أنَّ لا يكون متقياً، وإنما يكون كذلك لو كان جائز الخطأ، فكانت الآية دالة على أنَّ من كان جائز الخطأ وجب كونه مقتدياً بمن كان واجب العصمة وهم الذي حكم الله بكونهم صادقين)[1].

وبعد تقصيّ هذه الآيات المباركات الدالة على عصمة الأنبياء عليهم السلام نجد أنَّ دلالاتها تقتضي أنَّ الأنبياء عليهم السلام مصطفون لله، مختارون له تعالى خيّرون ومن الضرورة إن ذلك ينافي صدور العصيان عنهم سهواً مع أنَّ الآيات تصرح بلزوم متابعتهم والاقتداء بهم والاقتباس من أنوارهم ووجوب التأسي بهم كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ (الأحزاب/٢١).

ولو صدرت المعصية عنهم ولو سهواً لما جاز الاقتداء والتأسي بهم، مع أنَّ صدورها عنهم ولو في بعض الأحيان يوجب تنفر الناس منهم فلا يطمأن إلى قولهم وفعلهم وهذا ينافي الغرض الأقصى من بعثتهم.

ثانياً: أدلة العصمة من السنّة المطهرة

وردت في أحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام، طائفة كبيرة من النصوص التي تدل دلالة صريحة على عصمة

---

(١) مفاتيح الغيب ١٦: ١٧٥ – ١٧٦.

الأنبياء والأئمة عليهم السلام مع استبعاد أنَّ يصدر أي لون من ألوان اللوم والعتاب بحقهم عليهم السلام اعتمدنا نماذج منها بحسب ما تستوعبه الدراسة.

الدليل الأول

ما رواه سليم بن قيس الهلالي (ت ٧٦ هـ) عن الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ حذّر من ثلاثة رجال وأخذ يصفهم إلى أنَّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((ورجل أتاه الله عزّ وجلّ سلطاناً فزعم أنّ طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، وكذب لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لا طاعة لمن عصى، إنّما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر الذين قرنهم الله بنفسه ونبيّه فقال: { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} (النساء / ٥٩).

لأنّ الله إنّما أمر بطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه معصوم مطهرّ لا يأمر بمعصية الله وإنّما أمر بطاعة أولي الأمر لأنّهم معصومون مطهرّون لا يأمرون بمعصية))[1].

وفي هذا دلالة واضحة على ضرورة كون الرسول أو النَّبي والإمام معصوماً كي تجب طاعته ومتابعته لأنّه الهادي إلى الحق.

الدليل الثاني

في طهارة الأنبياء عليهم السلام وعصمتهم، ما يروى عن أبي ذر الغفاري رحمه الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

---

(١) ظ: كتاب سليم بن قيس ٤٠٦، تحقيق محمد باقر الأنصاري، مطبعة نگارش، ط ٢، قم ١٤٢٤ هـ.

((خلقت أنا وعلي بن أبي طالب من نور واحد، نسبّح الله تعالى عند العرش قبل أنَّ يخلق آدم بألفي عام، فلمّا أنَّ خلق الله آدم عليه السلام جعل ذلك النور في صلبه، فلم يزل ينقلنا الله عزّ وجلّ من أصلاب طاهرة إلى أرحام مطهرة حتى انتهى إلى عبد المطلب فقسمنا نصفين، فجعلني في صلب عبد الله وجعل عليّاً في صلب أبي طالب))(١).

وهذه الرواية، وإن لم يرد فيها لفظ العصمة صراحة، لكن متنها كافٍ في الدلالة على العصمة للأنبياء والأئمة عليهم السلام وعلى طهارتهم وليس أدل على عصمتهم من أنَّ يطهرّهم الله من كل رجس ويبعد عنهم كل ذنب ومعصية.

الدليل الثالث

وفيه دلالة واضحة على عصمة الأنبياء عليهم السلام مع ما تحويه من ذكر القضايا الواردة في القرآن الكريم التي اعتبرها بعضهم موهمة بصدور القضايا منهم مع جملة الإشكالات والجواب عنها.

أبو الصلت الهروي قال: لمّا جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا عليه السلام أهل المقالات من أهل الإسلام والديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئيين وسائر أهل المقالات فلم يقم أحد إلاّ وألزمه حجته كأنّه قد ألقم حجراً، فقام إليه علي بن مُحَمَّد بن الجهم، فقال له: يا ابن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء؟ قال: بلى، قال: فما تعمل في قول الله عزّ وجلّ **{ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى }** (طه / ١٢١)، وقوله عزّ وجلّ: **{ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَن نَقْدِرَ عَلَيْهِ }** (الأنبياء / ٨٧)، وقوله في يوسف **{ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا }** (يوسف / ٢٤) وقوله

(١) ظ: هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن ٢: ١٩٢.

عزّ وجلّ في داود { وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ } (ص / ٢٤).

وقوله في نبيه مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم: { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } (الأحزاب / ٣٧).

فقال مولانا الرضا عليه السلام: ويحك يا عليّ، اتق الله ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش ولا تأول كتاب الله برأيك، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } (آل عمران / ٧).

وأما قوله عزّ وجلّ في آدم عليه السلام: { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } (طه/ ١٢١) فأن الله عزّ وجلّ خلق آدم حجة في أرضه وخليفته في بلاده ولم يخلق للجنّة، وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض لتتم مقادير أمر الله عزّ وجلّ فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجته وخليفته عصم بقوله عزّ وجلّ { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } (آل عمران / ٣٣).

وأما قوله عزّ وجلّ: { وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ } (الأنبياء/٨٧) إنما ظنّ أنّ الله عزّ وجلّ لا يضيق عليه رزقه ألا تسمع قول الله عزّ وجلّ { وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ } (الفجر / ١٦)، أي ضيق عليه ولو ظنّ أنّ الله لا يقدر عليه لكان قد كفر.

وأما قوله عزّ وجلّ في يوسف { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا } (يوسف/٢٤) فإنّها همّت بالمعصية وهم يوسف بقتلها إن أجبرته لعظم ما داخله، فصرف الله عنه قتلها والفاحشة وهو قوله { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ } (يوسف / ٢٤) يعني القتل { وَالْفَحْشَاءَ } (يوسف/٢٤).

وأما داود فما يقول مَنْ قبلكم فيه؟ فقال علي بن الجهم: يقولون: إنّ داود

كان في محرابه يصلّي إذ تصوّر لـه إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطيور، فقطع صلاته وقام ليأخذ الطير، فخرج الطير إلى الدار فخرج في أثره، فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه، فسقط الطير في دار أوريا بن حنان، فاطلّع داود في أثر الطير فإذا بإمرأة اوريا تغتسل، فلّما نظر إليها هويها، وكان قد أخرج أوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أنَّ قدّمه في أمام الحرب، فقدّم فظفر أوريا بالمشركين، فصعب ذلك على داود، فكتب ثانية أنَّ قدّمه أمام الحرب فقدّم فقتل أوريا فتزوّج داود بامرأته.

فضرب الرضا عليه السلام بيده على جبينه وقال: { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } (البقرة/١٥٦) لقد نسبتم نبيّاً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتى خرج في أثر الطير ثم بالفاحشة ثم بالقتل، فقال يا ابن رسول الله فما كانت خطيئته؟ فقال عليه السلام: ويحك إنّ داود عليه السلام إنّما ظنّ أنّ ما خلق الله خلقاً هو أعلم منه فبعث الله عزّ وجلّ إليه الملكين فتسورا المحراب فقالا: { خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ } (ص ٢٢-٢٣) فجعل داود عليه السلام على المدعي عليه فقال: { لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ } (ص / ٢٦) فلم يسأل المدعيّ البينة على ذلك، ولم يقبل على المدعي عليه، فيقول: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة حكمه، لا ما ذهبتم إليه، إلاّ تسمع قول الله عزّ وجلّ { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } (ص / ٢٦).

فقال ابن الجهم: يا ابن رسول الله فما قصته مع أوريا؟ فقال الرضا عليه

السلام أنَّ المرأة في أيام داود عليه السلام كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج أبداً، وأول من أباح الله عزّ وجلّ له أنَّ يتزوج بامرأة قتل بعلها داود عليه السلام فذلك الذي شق على الناس من قبل اوريا.

وأما مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم وقول الله عزّ وجلّ له ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (الأحزاب/٣٧) فإنَّ الله عرّف نبيّه أسماء أزواجه في دار الدنيا وأسماء أزواجه في الآخرة وأنّهن أمهات المؤمنين، وكانت إحداهن زينب بنت جحش وهي يومئذٍ تحت زيد بن حارثة فأخفى صلى الله عليه وآله وسلم في نفسه، ولم يبده لكي لا يقول أحد من المنافقين إنّه قال في امرأةٍ في بيت رجل أنها إحدى أزواجه من أمهات المؤمنين، وخشي قول المنافقين، فقال الله عزّ وجلّ ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (الأحزاب/٣٧) يعني في نفسك وأنّ الله عزّ وجلّ ما تولّى تزويج أحد من خلقه إلاّ تزويج حواء من آدم وزينب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفاطمة من علي عليهم السلام قال: فبكى علي بن الجهم، وقال: يا ابن رسول الله: أنا تائب إلى الله عزّ وجلّ أنَّ أنطق أنبياء الله عزّ وجلّ يومي هذا إلا بما ذكرته[1].

الدليل الرابع

وفي عيون أخبار الرضا عليه السلام ما يثبت عصمة الأنبياء صراحة من خلال جواب الإمام عليه السلام حينما سأله المأمون العباسي قائلاً: لله درّك يا أبا الحسن فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى

---

(١) ظ: أبو جعفر محمد بن الحسن بن بابويه القمي الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، الأمالي: ١٨٢ - ١٨٤ نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ط٥، ١٤٠٠ هـ.

بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (يوسف/٢٤).

قال الرضا عليه السلام: (لقد همت به ولولا أنَّ رأى برهان ربه، لهم بها كما همت به، لكنّه كان معصوماً، والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه، ولقد حدّثني أبي عن أبيه الصادق عليهما السلام أَنَّهُ قال: همت بأن تفعل،وهم بأن لا يفعل)[1].

والرواية هذه لا تحتاج إلى أدنى تأمل في توجيه العصمة فيها وإنما هي واضحة الدلالة والهدف.

الدليل الخامس

ويطالعنا الصافي (المولى محسن الكاشاني) (ت ١٠٩١ هـ) في تفسيره على عصمة الأنبياء عليهم السلام بما ذكره (أن أيوب ابتلي بغير ذنب سبع سنين، وأن الأنبياء معصومون لا يذنبون ولا يزيغون، ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً)[2].

الدليل السادس

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: (أنّ بعض قريش قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بأي شيء سبقت الأنبياء عليهم السلام وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم، فقال:

((إنّي كنت أول من آمن بربي، وأول من أجاب إذ أخذ الله ميثاق النبيّين وأشهدهم على أنفسهم (الستُ ربكم) فكنت أنا أول نبيّ قال (بلى) فسبقتهم بالإقرار بالله عزّ وجلّ[3].

---

(١) ظ: عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٧٠ – ١٧٣.

(٢) تفسير الصافي ٤٥٠.

(٣) الكليني، الاصول من الكافي ٢: ١٠.

الدليل السابع

حديث عبد الله بن طلحة، قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

أخبرني يا ابن رسول الله عن العلم الذي تحدّثونا به، أمن صحف عندكم؟ أم من رواية يرد بها بعضكم عن بعض؟ أو كيف حال العلم عندكم.

قال: ((يا عبد الله الأمر أعظم من ذلك وأجل، أما تقرأ كتاب الله؟!)).

قلت: بلى.

قال: (أما تقرأ): { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ } (الشورى/ ٥٢) أفاترون أنّه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان؟)).

قال: هكذا نقرأ.

قال: (نعم قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، حتى بعث الله تلك الروح فعلمه بها العلم والفهم، كذلك تجري تلك الروح إذ بعثها الله على عبدٍ علمه بها العلم والفهم[1].

قال العلامة المجلسي رحمه الله تعليقاً على قوله عليه السلام: (الأمر أعظم من ذلك وأوجب).

(قيل أنما كان الأمر أوجب من ذلك لأن الأمرين المذكورين مما يشترك فيه سائر الناس، فلابد في الحجّة من أمر يمتاز به عن سائر الناس لا يحتمل الخطأ والشك)[2].

---

(١) أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروّخ الصفّار (٢٩٠٢ هـ)، ٤٥٨، تعليق ميرزا محسن التبريزي، منشورات مكتبة المرعشي النجفي قم – إيران، ط ١، ١٤٠٤ هـ.

(٢) محمد باقر المجلسي، مرآة العقول ٣: ١٧٣، دار الكتب الإسلامية، إيران ط ٢، ١٤٠٤ هـ.

وقال المازندراني (الميرزا مُحَمَّد صالح) (ت ١٠٨٦).

((أي: أمر علمنا أعظم وأوجب)) يعني: ألزم وأتم، وأحق أنَّ يكون مأخوذاً من أفواه الرجال، أو مخرجاً من الكتاب، بل هو من الروح الذي معنا[١].

وهذا دليل على أنّ المعصوم مسدد ومؤيد عن ارتكاب مطلق الخطأ.

الدليل الثامن

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (والله ما ترك أرضاً منذ قبض آدم عليه السلام إلاّ وفيها إمام يهتدى به إلى الله، وهو محجّة على عباده ولا تبقى الأرض بغير إمام حجّة لله على عباده)[٢].

والرواية صريحة جداً إذ إن القضيّة ليست قيادة سياسية وإدارة حكم بل هي مرتبطة بنظام التكوين ووضيعة الإمام هنا إيصال الناس إلى محل الهداية وطريق الصواب ولو لم يكن معصوماً لما كان أهلاً لهذا المنصب الإلهي.

---

(١) شرح أصول الكافي والروضة ٦: ٦٨ تعليق علي أكبر الغفاري، منشورات المكتبة الإسلامية، طهران – إيران ١٣٨٤ هـ.

(٢) ظ: الكليني، أصول الكافي ١: ١٧٩ ج ٨ كتاب الحجة.

المطلب الثاني: الأدلة العقلية للقول بالعصمةِ المطلقة

انفرد الإمامية من دون غيرهم من المذاهب الإسلامية الأُخَر بالقول بالعصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام واستدلوا، على ذلك بجملة من الأدلة العقلية تتوقف الدراسة عندها.

الدليل الأول: دلالة المعجز

فإنّ من الأدلة العقلية ومن الضرورات الشرعية أنَّ يكون النبيّ معصوماً لأنّه لو لم يكن كذلك لم يحصل لنا الوثوق بقوله، إذ جاز أنَّ يصدر منه الكذب عمداً أو نسياناً، ولا يجوز على الله أنَّ يرسل إلى خلقه أنبياء كاذبين، لأنّه قبيح ويستحيل على الله تعالى فعل ذلك، فوجب أنَّ يكون النَّبي معصوماً، ذكره المحقق نصير الدين الطوسي رحمه الله في شرح التجريد للعلامة الحليّ رحمه الله فقال: وبيان ذلك أنّ المبعوث إليهم لو جوّزوا الكذب على الأنبياء والمعصية جوزوا في أمرهم ونهيهم وأفعالهم التي أمروهم بإتباعهم فيها ذلك وحينئذٍ لا ينقادون إلى إفشال أوامرهم وذلك نقض للغرض من البعثة[1].

---

(١) ظ: العلامة جمال الدين الحسن بن يوسف ابن المطهر الحلي (ت ٦٧٢ هـ)، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ٣٧٦ مؤسسة الأعلمي بيروت – لبنان ط ١، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

وذكـر الفاضـل المقـداد في شـرح البـاب الحـادي عـشر مثـل هـذا الوجـه في الاستدلال على وجوب العصمة من أنّه: لـو لم يكـن الأنبيـاء معـصومين لانتفـت فائدة البعثة واللازم باطل فـالملزوم مثلـه، بيـان الملازمـة: أنّـه إذا جـازت المعـصية عليهم لم يحصل الوثوق بصحة قولهم بجواز الكـذب حينئـذٍ علـيهم وإذا لم يحـصل الوثوق لم يحصل الانقياد لأمرهم ونهيهم فينتفي فائدة بعثهم وهو محال[١].

وإلى هذا الوجه يرجع من استدل على العـصمة مـن الـذنوب إلى أنّـه ينـافي دلالة المعجز القاطعة، فإن المراد من الإعجاز القرآني إثبـات اسـتناد القـرآن الكـريم إلى الله سبحانه وأنه ليس من صنع البشر، فلو كان النَّبي فمن يمكن أنَّ يتبـع هـواه ويرتكب المعاصي لم يؤمن منه أنَّ يبلغ كل ما جاء به القرآن أو لا ينقص منه.

وإلى هذا المعنى يشير السيد المرتضى رحمه الله في بعض كتبـه إذ قـال مـستدلاً على عصمة النَّبي عن الكبائر والصغائر، بـأنّ العلـم المعجـز إذا كـان واقعـاً موقـع التصديق لمدعي النبوّة والرسالة، وجارياً مجرى قوله تعالى: صدقت في أنّ رسـولي ومؤدي عني، فلابد أنَّ يكون هذا المعجز مانعاً من كذبه عن الله فيما يؤديـه عنـه، لأنّه تعالى لا يجوز أنَّ يصدق الكذاب، لأنّ تصديق الكذاب قبيح[٢].

ومن هنا استدل قطب الدين النيسابوري على العصمة عقلاً فقال: (والذي يدل على عصمة الرسل أنَّ العلم المعجز يؤمننا عن وقوع الكذب منه فيمـا يـؤدي عن الله تعالى إلينا وهذا لا خلاف فيـه بـين الأمـة لأن تجـويز الكـذب يرفـع الثقـة ويعدم الأمان)[٣].

---

(١) النافع في شرح الباب الحادي عشر: ٦٣، مطبعة سلمان الفارسي، ط ١، ١٤١٢ هـ.

(٢) تنزيه الأنبياء: ١٧.

(٣) التعليق في علم الكلام ١٧٢ تحقيق د. محمود يزدي مطلق،قسم الدراسات الفلسفية والكلامية ←

لأن تـرك ذلـك يُعُّـد قـدحاً في الرسـالة وطعنـاً في النبـوّة هـذا فيمـا يتعلّـق بالكذب، أما في ما يتعلق بسائر القبائحَ ولو كانت صغيرة فإنّها توجب النفرة منهم وانتفاء تلقي أقوالهم وقبولها، (ولا يجوز أنَّ يبعث الله تعالى من يوجب علينا اتباعه وتصديقه وهو على صفة تنفر عنه، فقد جنب الله الفظاظة والغلظة والخلق المشينة وكثيراً من العلل القبيحة لأجل التنفير فأولى أنَّ يجنب القبائح كذلك)[1].

ومما يعاضد هذا القول، هو: (وأما القبائح الأخرى فإنّ دليل التنفير يـؤمن عن جميعها، لأنّ من يجوز وقوع القبائح منه، فلا يرغب في القبـول عنـه ولا تميـل نفوسنا إلى الإقتداء به ولما كان الغرض في إرسال الرسـل والاقتـداء بهـم والقبـول عنهم والتأسي بفعلهم وقولهم وجب أنَّ يكون الرسول منزهاً عن كل ما ينفر عنـه ويتعذّر منه)[2].

وعليه فكـان المعجـز قـد وقـع وأيـد مـدعي النبـوّة والرسـالة علـى أتم وجـه وأكمل صورة، إذ يقبح عقلاً أنَّ يبعث الله تعالى أو يوسط بنيه وبين خلقه من هـو كاذب غير أمين.

ومما اتفـق عليـه المفيـد والطوسـي والمرتـضى رحمهـم الله في وجـوب عـصمة الأنبياء عليهم السلام من القبائح جميعها صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها عملاً وسهواً[3]، إذ إنّه اسـتدل بجماليـة العقـل وكمالـه في أنَّ القبـيح إذا كـان كـذباً فإنّـه

للجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية،إيران – مشهد، ط ١، ١٤٢٧ ق – ١٣٨٥٠ ش.

(١) ظ: الحلّي: كشف المراد ٣٧٥، المجلسي بحار الأنوار ١٧: ١٠٩.

(٢) قطب الدين النيشابوري، التعليق في علم الكلام ١٧٢.

(٣) ظ: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقـاد ٢٦٠، دار الأضـواء، بـيروت – لبنـان، ط ٢، ١٤٠٩ هــ - ١٩٨٦ م.

سيؤدي إلى أنّ الله تعالى سيصدق الكذابين، وتصديق الكذابين قبيح ولا يجوز على الله تعالى وأما جميع القبائح الأخرى غير الكذب، فإنّنا لو جوّزناها عليهم فهذا يعني جواز أنَّ يبعث الله نبياً يأمرنا باتباعه، في حين هو على صفة تنفر الناس عنه ثم أنّه استعار عبارات المرتضى رحمه الله نفسها التي قال فيها: ولهذا جنب الله تعالى الأنبياء عليهم السلام الفظاظة والخلق المشينة والأمراض المنفرة لما كانت هذه الأشياء منفرة بالعادة[1].

من هنا نكشف أنّ كل ما يقدح في صاحب هذا المقام، يقدح في الامتثال ويزحزحه، فلابد أنَّ يكون المعصوم مؤيداً بالبعد عن جميع ما يكون منفراً عنه مبعداً، ولعلّ هذا أقرب للوقوع من إظهار المعجز.

الدليل الثاني: امتناع إيذاء المعصوم عليه السلام

إنّه لو جاز للمعصوم أنَّ يعصي لوجب إيذاؤه والتبرؤ منه، لأنّه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن الله تعالى نص على تحريم إيذاء المعصوم عليه السلام فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (الأحزاب / ٥٧).

وفي ذلك يقول العلامة الحلي رحمه الله (إنّه إذا فعل معصية وجب الإنكار عليه لعموم وجوب النهي عن المنكر وذلك يستلزم إيذاءه وهو منهي عنه وكل ذلك محال)[2].

---

(١) المصدر نفسه ٢٦٠ – ٢٦١ ظ: ظ: العلاّمة الحلّي أبو منصور الحسن بن يوسف المطهرّ (ت ٧٢٦ هـ)، مناهج اليقين ٤٤٧، تحقيق يوسف الجعفري، انتشارات دار الأسوة ط١، ١٤١٥ هـ.

(٢) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ٣٧٦، ظ: العلامة الحلي، مناهج اليقين ٤٢٦.

وما نلاحظهُ كذلك عند نور الله التستري (ت ١٠١٩ هـ) من ردّه على أدلة منكري عصمة الأنبياء عليهم السلام دليل على عصمتهم عليهم السلام من خلال انتفاء صدور الذنب عنهم فهو يرى (إن صدر عنهم ذنب وجب زجرهم وتعنيفهم لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيذائهم حرام إجماعاً ولو أذنبوا لدخلوا أيضاً تحت قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ (الجن / ٢٣).

وتحت قوله تعالى: ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (هود / ١٨).

وتحت قوله تعالى لوماً وذمةً ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف / ٢).

وقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة / ٤٤).

فيلزم كونهم موعودين بعذاب جهنم وملومين ومذمومين، وكل ذلك باطل إجماعاً وهذا الدليل يدل على عصمتهم من كل الذنوب وغيرها أيضاً)[1].

وينطلق الفخر الرازي في إثبات العصمة لهم عليهم السلام من مبدأ انتفاء جواز زجر الأنبياء عليهم السلام إذ قال: (لو صدر الذنب عنهم لوجب زجرهم، لأنّ الدلائل دالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكن زجر الأنبياء عليهم السلام غير جائز لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (الأحزاب/٥٧) فكان صدور الذنب عنهم ممتنعاً)[2].

---

(١) ظ: نور الله الحسيني المرعشي التُستري (ت ١٠١٩ هـ) تحقيق شهاب الدين النجفي المرعشي ٢: ٢٠٢ منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، إيران – قم (ب ت ط).

(٢) عصمة الأنبياء ١٠.

ولا يبتعد السيد عبد الله شبر رحمه الله عمن سبقه في امتناع إيذاء النَّبي لانتفاء جواز ذلك فانطلق بهذا لإثبات العصمة لهم عليهم السلام قال: (إنّه لو جاز أنَّ يعصي لوجب إيذاؤه والتبرؤ منه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكن الله تعالى نص على تحريم إيذاء النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً } [1] (الأحزاب/٥٧).

الدليل الثالث: الاحتياج للمعصوم

من الأدلة العقلية التي تثبت بحق عصمة الأنبياء عليهم السلام هو احتياج الأمة ووجود المعصوم فالعلة التي أحوجنا إلى وجود النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأرض هي نفي عصمة الخلق لأنّهم لو كانوا معصومين لم يحتاجوا إلى الأنبياء عليهم السلام فلو كان الأنبياء عليهم السلام غير معصومين لكانوا محتاجين إلى غيرهم لوجود علة الحاجة فيهم، فيكون الكلام في غيرهم كالكلام فيهم فيؤدي إلى وجود أنبياء لا نهاية لهم فيبطل، فثبت وجوب عصمتهم، وهذا المعنى ما يفهم من خلال التدبرّ في شرح العلاّمة الحلي لكلام الطوسي رحمهما الله المستدل على وجوب العصمة بامتناع التسلسل[2].

وإن كان كلامه في الإمام إلاّ أنّ هذا يمكن تسريه إلى الأنبياء عليهم السلام لاشتراكهم في صفة (العصمة) وللوقوف على شرح ذلك ما نجده عند العلامة

---

(١) حق اليقين ض١: ٩١.

(٢) ظ: كشف المراد ٣٩٠، ظ: العلامة الحلي رحمه الله مناهج اليقين ٤٢٦.

الحلي رحمه الله إذ يقول: (إنّ الإمام لو لم يكن معصوماً للزم التسلسل ومن ثم باطل فالمقدم مثله، بيان الشرطية، إن المقتضي لوجوب نصب الإمام هو تجويز الخطأ على الرعية فلو كان هذا المقتضي ثابتاً في حق الإمام وجب أنَّ يكون له إمام آخر وبتسلسل أو ينتهي إلى إمام لا يجوز عليه الخطأ فيكون هو الإمام الأصلي)[١].

وأما وجوب العصمة عند السيد شبر رحمه الله فيبررها بنفي خطأ المعصوم (لأنه لو كان يخطأ لاحتاج إلى من يسدّده ويمنعه عن خطأ وينبهه على نسيانه، فأما أنَّ يكون معصوماً فيثبت المطلوب أو غير معصوم فيتسلسل)[٢].

فيكون بذلك معصوماً لانتفاء ثبوت الخطأ بحقّه ولأنّه ممّن وثق بإتباعه وانتهاج مسلكه، وهذا هو الذي دعى السيد إبراهيم الحجازي (ت ١٢٢٣ هـ) إلى الاستدلال بذلك لإثبات العصمة، إذ رأى (أنّ وجه الحاجة إلى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام هو جواز الخطأ وصدور المعصية عن الأمة، فلو جاز عليهم ذلك لاحتاجوا إلى مرشد آخر، لاشتراك العلة ولزوم الترجيح بلا مرجّح في دور أو بتسلسل)[٣].

وهذا يدل على إنتفاء عروض الخطأ عليهم (صلوات الله عليهم) وجوازه في حق الأمة الأمر الذي دعا إلى وجوب الاقتداء بهم واتباعهم لأنّهم معصومون مطهرون وهداة مهديون.

---

(١) المصدر نفسه ٣٩٠.

(٢) حق اليقين ١: ٩٢.

(٣) آيات العقائد ١٨٦ تحقيق رامين الـگمـگـاني، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد ط ١، ١٤٢٤هـ.

الدليل الرابع: وجوب متابعة المعصوم عليه السلام

يساق هذا الدليل للزوم العصمة للأنبياء عليهم السلام، وضرورة نفي صدور الذنب عنهم كي يكون نافياً لاجتماع الضدين أي الإتباع وتركه بتقرير، لو صدر ذنب منه عليه السلام لزم طاعته لأنّ مقامه يقتضي هذا، ويجب عصيانه لأنّ ما جاء به ذنب بل يجب منعه والإنكار عليه فيلزم من ذلك اجتماع الضدين وهو باطل لا محالة.

لذا يرى أبو الصلاح الحلبي (ت ٣٧٤ هـ) أنّ العصمة من الصفات التي يجب أنّ يتحلّى بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما يؤدي (لأنّ تمنع الخطأ عليه في الأداء تجويز من الثقة به ويسقط فرض إتباعه وذلك ينقض جملة الغرض من إرساله، وأن يكون معصوماً من القبائح لكونه رئيساً وملطوفاً برئاسة غيره)[1].

إذن فرض إتباعه نفي تجويز الخطأ عليه وجوب الثقة به لتنزهه عن القبائح وسائر ما تخل بعصمته عليه السلام فيكون اجتماع الضدين غير وارد هنا لاحتياج غيره إليه فتكون العصمة حاصلة له.

ويرى العلامة الحلي رحمه الله لزوم عصمته عليه السلام (أنّه حافظ للشرع ولوجوب الإنكار عليه لو أقدم على المعصية فيضاد أمر الطاعة ويفوت الغرض من نصبه[2]، وبهذا تكون عصمة ثابتة لانتفاء إقدامه على المعصية لأنّه ممن وقع عليه الاختيار والاصطفاء وأُيد بروح القدس.

---

(١) أبو الصلاح الحلبي، تقريب المعارف: ١٥٣، تحقيق فارس تبريزيان الحسون انتشارات/ المحقق، ١٤١٧ هـ.

(٢) كشف المراد ٣٩٠ – ٣٩١، ظ: العلامة الحلي مناهج اليقين ٤٢٦.

ويستدل التستري أيضاً على عصمتهم بإتباعهم عليهم السلام (لأنّ لو صدر عنهم ذنب لحرّم إتباعهم فيما صدر عنهم ضرورة أنّه يحرم ارتكاب الذنب، وإتباعهم واجب للإجماع عليه، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (آل عمران / ٣١) وهذا الدليل يوجب عصمتهم عن الصغائر والكبائر)[١].

فتكون نتيجة ذلك أنّهم معصومون فيجب إتباعهم والاقتداء بهم ولا يكاد يبتعد السيد شبر رحمه الله عمّن سبقه في الاستدلال على عصمتهم عليهم السلام بما يقابل النقيض، لأنّه يرى أنّ المعصوم (إن فعل المعصية فإمّا أنَّ يجب علينا إتباعه فيها فيكون قد وجب علينا فعل ما وجب تركه واجتمع الضدان وإن لم يجب انتفت فائدة البعثة)[٢].

ومن هنا وجب كونه معصوماً لأنّه لا يمكن أنَّ تكون بعثته عبثاً وبلا فائدة - تعالى الله عن ذلك -.

ويؤكد السيد إبراهيم الحجازي وجوب عصمتهم لاستبعاد جواز الخطأ والنسيان عليهم عليهم السلام فيرى (أنا مأمورون باتباعهم وترك الاعتراض عليهم فلو جاز الخطأ والنسيان لوجب متابعتهم فيها للأمر بها والأمر بإتباع الخطأ قبيح)[٣].

ولهذا يقول المظفر رحمه الله: (إنّه لو جاز أنَّ يفعل النَّبي المعصية، أو يخطأ وينسى وصدر منه شيء من هذا القبيل، فأما أنَّ يجب علينا اتباعه في فعله الصادر

(١) إحقاق الحق وإزهاق الباطل ٢: ٢٠٢.

(٢) حق اليقين: ٩١.

(٣) آيات العقائد: ١٨٥.

منه عصياناً أو خطأ أو لا يجب، فإن وجب اتباعه فقد جوزنا فعل المعاصي برخصةٍ من الله تعالى، بل أوجبنا ذلك وهذا باطل بضرورة الدين والعقل، وإن لم يجب اتباعه فذلك ينافي النبوّة التي لابد أنَّ تقترن بوجوب الطاعة أبداً)[1].

ومن هذا يظهر أنّ النّبي لا تنفك عنه العصمة لضرورة الاتباع والإقتداء به لأنّه الهادي للحق ولأنّ غايته الرسالة والغرض منها هو حفظ الأمة وصونها من الإنحراف وهذا لا يكون إلاّ بكون حامل الرسالة منزهاً عن كل ما يورث الريب والشك في صدقه والابتعاد عن دعواه، فلم يبق إلاّ أنَّ يكون معصوماً من دون غيره الذي هو محط لحدوث المنكرات صغيرها وكبيرها.

الدليل الخامس

ما ذُكر من أنّ الأنبياء لو أذنبوا لردت شهادتهم إذ لا شهادة للفاسق بالإجماع واللازم باطل بالإجماع، لأنّ ما لا تقبل شهادته في القليل الزائد من متاع الدنيا كيف تسمع شهادته في الدين القيّم إلى يوم القيامة[2].

---

(١) ظ: الشيخ محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية: ٥٤، مؤسسة أنصاريان، ط ٦، إيران – قم ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

(٢) ظ: إحقاق الحق ٢: ٢٠٠، ظ: الفخر الرازي، عصمة الأنبياء ٩، عبد الله شبر،حق اليقين ١: ٩٢.

المبحث الثاني: القول بالعصمة الجزئية للأنبياء عليهم السلام وأدلتهم

المطلب الأول: الأدلة النقلية

أولاً: الأدلة القرآنية

هناك طوائف من الآيات المباركات تمسك بها عدد من المخطئة لعصمة الأنبياء عليهم السلام بما يوهم بادئ النظر أنّها تخالف آيات العصمة تذرّعت بها بعض الفرق الإسلامية التي جوّزت المعصية على الأنبياء بصورها المختلفة، وهي على طوائف عدّة، نكتفي بإيراد نماذج من هذه الآيات الكريمات.

الأولى: ما يمس ظاهرها عصمة جميع الأنبياء عليهم السلام.

الثانية: ما يمس عصمة عدد منهم عليهم السلام.

الثالثة: ما يمس ظاهرها عصمة نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

الطائفة الأولى: ما يمس ظاهرها عصمة الأنبياء جميعهم عليهم السلام

منها: قوله تعالى: { حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } (يوسف / ١١٠).

استدل القائل بنفي وجود العصمة في الأنبياء عليهم السلام بظاهر الآية بأنّ الضمائر الثلاثة في قوله تعالى: ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ (يوسف/١١٠) ترجع إلى الرسل ومفاد الآية أنّ رسل الله سبحانه وتعالى وأنبياءه عليهم السلام كانوا ينذرون قومهم، وكان القوم يخالفونهم أشد المخالفة، وكان الرسل يعدون المؤمنين بالنصر عن الله والغلبة ويوعدون الكفّار بالهلاك والإبادة لكن لما تأخر النصر الموعود وعقاب الكافرين ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ (يوسف/١١٠) فيما وعدوا به من جانب الله من نصر المؤمنين وإهلاك الكافرين، ومن المعلوم أنّ هذا الظن سواء أكان بصورة الإذعان واليقين أم بصورة الزعم والميل إلى ذلك الجانب، اعتقاد باطل لا يجتمع مع العصمة، التي هي خلاف الظن وفوق كل شبهة.

درس الزمخشري هذه الآية المباركة بعرض رواية عن ابن عباس رحمه الله إذ روي عنه من أنّ الرسل لما ضعفوا وغلبوا ظنّوا أنّهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، وقال كانوا بشراً، وتلا قوله: ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (البقرة / ٢١٤).

فيرى الزمخشري أنّ صح هذا القول عن ابن عباس، فقد أراد بالظن ما يخطر بالخلد ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجائزين على الآخر، فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم، وأنّه متعال عن خلف الميعاد منزه عن كل قبيح[1].

ورؤية الزمخشري هذه مجانبة للحقيقة بعض الشيء، لأنّ في كلامه هذا ما لا

---

(١) ظ: الكشاف ٢: ٤٨٠.

يناسب مقام الأنبياء عليهم السلام إذ فسرّ الظن بما خطر في الذهن من تلك الحاجة وحديث النفس الذي يعرض لكل بشر.

وأما الفخر الرازي فقد قرأ في الآية بوجهين، تارة بتخفيف (كذبوا) وأخرى بتشديدها.

أما الأول: أنّ الظن واقع بالقوم، أي حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم فظن القوم أنَّ الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر.

أما الثاني: أنَّ يكون المعنى أنّ الرسل ظنوا أنّهم قد كذبوا فيما وعدوا وأما القراءة بالتشديد فكذلك تحمل وجهين:

(١) أنّ الظن بمعنى اليقين، أي وأيقنوا أنّ الأمم كذبوهم تكذيباً لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك فحينئذٍ دعوا عليهم.

(٢) أنَّ يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم فظن الرسل أنّ الذين آمنوا بهم كذبوهم، وهذا التأويل منقول عن عائشة وهو من أحسن الوجوه المذكورين في الآية [1].

ومنها: قوله تعالى: **{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** (الحج / ٥٢).

تمسك القائلون بنفي العصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام بدلالة هذه الآية على إلقاء الشيطان في أُمنية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو النبيّ بالتدخل في الوحي النازل عليه فيغيره إلى غير ما نزل به، مستندين في ذلك إلى رواية واهية

(١) ظ: مفاتيح الغيب ٨: ٢٢٦، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٨٦ ،

في سبب نزولها أظلت كثيراً من المفسرين. فالأمنية في القرآن قد تأتي ويراد منها التلاوة والقراءة، على ما أشار إليه الراغب الأصفهاني في قوله: ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ (الحج/ ٥٢) أي: في تلاوته(١).

ومن مدخل الأمنية هذا يلج بعض المفسرين ليطعن في خلاله بعصمة الأنبياء عليهم السلام وقالوا إن المراد من الآية هو أنّ ما من رسول ولا نبي إلاّ إذا تمنى وتلا الآيات النازلة عليه، تدخل الشيطان في قراءته فأدخل فيها ما ليس منها، واستشهدوا لذلك بما رواه الطبري عن مُحَمَّد بن كعب القرضي، ومُحَمَّد بن قيس قالا: جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نادٍ من أندية قريش كثير أهله فتمنى يومئذ أنَّ لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه، فأنزل الله عليه: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ (النجم / ١-٢).

فقرأها صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ (النجم ١٩-٢٠).

ألقى عليه الشيطان كلمتين: ((تلك الغرانقة العلى، وأن شفاعتهن لترتجى)) فتكلم بها ثم مضى فقرأ السورة كلها فسجد في آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود فرضوا بما تكلم به وقالوا قد عرفنا: أنّ الله يحيي ويميت وهو الذي يخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده إذا جعلت لها نصيباً فنحن معك، قالا: فلما أمسى أتاه جبرائيل عليه السلام فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين، فقال رسول الله صلى

---

(١) ظ: المفردات في غريب القرآن، مادة (منى) ٨٧٠.

الله عليه وآله وسلم افتريت على الله وقلت على الله ما لم يقل فأوحى الله عليه { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً } (الإسراء/ ٧٣-٧٥)، فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (الحج / ٥٢)، قال فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أنّ أهل مكة قد أسلموا كلهم فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا: هم أحب إلينا فوجدوا قد ارتكوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان[1].

ومع وهن الرواية وانتفاء لياقتها بنبي الله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وضعفها إلاّ أنّ الزمخشري أخذ بها مع علمه بمنافاتها لصريح القرآن الكريم وهو ينصّ { وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى } (النجم ٣-٤) يرى أنّ الشيطان وسوس إليه بما يشيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أنّ قال (تلك الغرانيق العلى، وأن شفاعتهن لترتجى)[2].

ثم أنّه بعد ذلك يرى أنّ كل هذا كان تمكين الشيطان من ذلك محنة وابتلاء من الله له، لأنّ الرسل والأنبياء من قبله كانوا كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنى، مكن الله الشيطان ليلقي في أمانيهم مثل ما ألقى في أمنيته[3].

ولكن الفخر الرازي يرى أنّ الرواية عند أهل التحقيق باطلة وموضوعة

---

(١) ظ: تفسير الطبري ١٧: ١٣١، مختصر تفسير ابن كثير ٢: ٥٦٢.

(٢) الكشاف ٣: ١٦٧.

(٣) المصدر نفسه ٣: ١٦٧.

بحيث احتجوا عليها بالقرآن والسنّة المعقول[1].

ولكنه يقول بعد ذلك (لا يبعد أنّه إذا قوى التمنيّ اشتغل الخاطر به فيحصل السهو في الأفعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار[2].

وبعد أنَّ ينقل القرطبي التجاذبات عن الحديث بين مؤيد ورافض له يستحسن ما أوردهُ القاضي عياضّ في شفائه بعد أنَّ ذكر الدليل على صدق النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وإجماع الأمة على عصمته في التبليغ،حيث إنّه يشكل على الحديث بمأخذين: أحدهما في توهين أصل الحديث، والثاني: على فرض صحته فيرى في الجانب الأول أنّ الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا روي بسند صحيح سليم متصل وإنّما أولع به المولع بكل غريب من المفسرين.

وأما المأخذ الثاني المبني على تسليم الحديث لو صح أجاب عنه أئمة المسلمين بجوابات أرجحها أنّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أمره ربه بترتيل القرآن ترتيلاً وتفصيل الآي تفصيلاً في قراءته، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكنات ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً نغمة النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم بحيث يسمعه من دنى إليه من الكفار، فظنوها من قول النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأشاعوها[3].

وهذا في الواقع ضرب من الخيال أنَّ يأتي الشيطان ويتحدث ويسمعه الناس فيمتزج صوته مع صوت النَّبي حتى يظنون أنّ القائل هو النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) التفسير الكبير ٢٣: ٤٤.

(٢) المصدر نفسه ٢٣: ٤٨.

(٣) ظ: الجامع لأحكام القرآن ٦: ٥٨.

الطائفة الثانية: ما يمس ظاهرها عصمة بعض الأنبياء عليهم السلام

نحاول هنا أنَّ ندرس نماذج من الآيات التي استدل بها المخطئة لعصمة الأنبياء عليهم السلام وإلاّ فالآيات كثيرة ونحن في غنى عن ذكرها للاختصار.

الأول: ما يتعلق بنبي الله آدم عليه السلام

(١) قوله تعالى: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (طه / ١٢١).

قالوا هذا تصريح بوقوع المعصية المستتبعة للعتاب واللوم، والتي لا تكون إلاّ قبيحة، وأكده تعالى بقوله ﴿فَغَوَى﴾ والغيّ ضد الرشد، واستدلوا بها على أنّ آدم عليه السلام قد عصى ربّه وأطاع إبليس، وهذا خطأ منه كان سبباً في إخراجه من الجنة، وأنّ الله قد تعهد تخطئة آدم لحكمة من أجل إخراجه من الجنة حتى يعمر الأرض لأنّ الله قد خلقه لذلك.

ينقل الزمخشري في تفسيره رواية عن ابن عباس جاء فيها أنّ آدم لم يتمثّل ما رسم الله له، وتخطى في ساحة الطاعة، وذلك هو العصيان وبعصيانه هذا خرج عن حد الرشد إلى مستوى الغي لا محالة لأنّه خلاف الرشد، ثم يسترسل الزمخشري في بيان العصيان إذ إنّه تعالى لم يقل أنَّ أدم عليه السلام أنزل أو أخطأ وإنما قال بصريح العبارة أنَّهُ ﴿عصى﴾ فيرى في هذا اللطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة وكأنّه قيل لهم انظروا واعتبروا كيف نعيت على النَّبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه اقتراف إلاّ الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلطة[١].

والفخر الرازي يرى في العصيان إقترافاً كبيراً استوجب معها آدم عليه

(١) الكشاف ٣: ٩٤.

السلام أنَّ يكون عاصياً استحق لوماً وتعنيفاً بل عقوبةً إذ يرى أنّ آدم عليه السلام:

(١) (كان عاصياً والعاصي لابد أنَّ يكون صاحب كبيرة، وإنّما قلنا: إنّه عاصي لقوله تعالى: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (طه / ١٢١) – ثم قال – وإنّما قلنا إنَّ العاصي صاحب الكبيرة لوجهين:

«**احدهما**»: إنّ النص يقتضي كونه معاقباً وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (النساء/١٤) ولا معنى لصاحب الكبيرة إلاّ من فعل فعلاً يعاقب عليه.

«**ثانيهما**»: إنّ العصيان اسم ذم فلا يطلق إلاّ على صاحب الكبيرة).

(٢) إنه تائب والتائب مذنب، وإنّما قلنا إنه تائب لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾[1] (طه ١٢٢) والظاهر أنَّ التوبة هنا من الله على عبده أي أنَّ الله رجع عليه بالرحمة واللطف لأنّ التوبة إذا نسبت إلى الله تعالى تتعدى بكلمة «على» كما في قوله تعالى ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ وهذا المعنى تجاوزه الرازي ونسب التوبة إلى آدم فيكون هذا خلاف صريح الآية.

ويعرض القرطبي للآية المباركة «ست مسائل» نقف عند موضع الحاجة إليها إذ نسب في المسألة الأولى القول إنّ الله تعالى قد أخبر بوقوع الذنب من بعض الأنبياء عليهم السلام ونسبها إليهم وعاتبهم عليها وهم بدورهم أخبروا بذلك عن نفوسهم وتنصلوا منها واستغفروا منها وتابوا[2].

---

(١) عصمة الأنبياء ١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦: ١٧٦.

فكأنّما أراد القرطبي ومن سبقه أنَّ يثبتوا ويبرّروا لآدم عليه السلام خطأ ارتكبه وذنباً اقترفه إذ أنَّهُ كسائر الأنبياء في اقتراف الذنب والخطأ والاستغفار منه الإطلاع عنه يستحق معه اللوم والعتاب والتأنيب.

فلا يمكن القبول بالقول: إنَّ آدم قد أخطأ، أو أنَّ الله تعالى قد تعمد تخطئته لحكمة منه، فإذا كان الله عزّ وجلّ هو الذي خطأ آدم، فما ذنبه حتى يعاقبه أو يعاتبه ويجعله من أهل الغواية على فعله هو مجبر فيها، أليس هذا منافياً للعدل الإلهي والعصمة النبوية.

(٢) قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ } (الأعراف/١٨٩-١٩٢).

استدل المخطئة لعصمة الأنبياء عليهم السلام بقوله تعالى: { فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ } (الأعراف/١٩٠)، إذ قالوا: إن ضمير التثنية في كلا الموردين يرجع إلى آدم وحوّاء المشار لهما في صدر الآية المباركة.

ولذا نرى أنَّ الزمخشري يستحسن الرأي الذي يذهب إلى أنَّ الضمير يعود إليهما ولأعقابهما الذين – بحسب ما يرى الزمخشري – اقتدوا بهما في الشرك، إذ أنَّ صنيع الشرك في الآية هو تسمية أولادهم الأربعة بعد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار مكان عبد الله وبعد الرحمن وعبد الرحيم[1].

(١) ظ: الكشّاف ٢: ١٧٧، مختصر تفسير ابن كثير ٢: ٧٥ مصدر سابق.

ولا أدري من أين جاء وجه الاستحسان بجعل النبيّ آدم عليه السلام مشركاً، فهذا توجيه بعيد عن حقيقة النبوة والعصمة والاصطفاء كما يقول تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } (آل عمران/٣٣).

ولا يكاد يختلف الرازي عن الزمخشري وغيره من القائلين بجزئية العصمة، عندما يذهب إلى أنّ مراد الآية يقتضي صدور الشرك عنها، ثم زاد في الطين بلّة باعتماده نصوص روائية[1] في دفع الآية باتجاه معنى يؤكد الفهم القائم على ظاهرها والموصي بوقوع الخطأ إذ يقول: (ثم قالوا إنّ إبليس لما أنَّ حملت حواء عرض لها ولد فقال لها: إن أحببت أنَّ يعيش ولدك فسميه بعبد الحارث، كان إبليس يسمى الحارث فلما ولدت سمته بهذه التسمية، فلذا قال الله تعالى: { فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }[2] (الأعراف/١٩٠).

(٣) قوله تعالى: { فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى

(١) ظ: القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٦٠.

(٢) عصمة الأنبياء ٢٢.

حِينٍ ﴾ (الأعراف / ١٩-٢٤).

هذه واحدة من الآيات التي استدل بها المخطئون لعصمة الأنبياء إذ قالوا إن النَّبي آدم عليه السلام استحق اللوم والعتاب والتوبيخ هنا لمخالفته أمر منهي عنه وهذا نوع من الإخلال بالعصمة.

قال الزمخشري (عتاب عن الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ حين لم يتحذرا مما حذرهما الله من عداوة إبليس، وروي أنّه قال لآدم عليه السلام ألم يكن لك فيما منحتك من شجر اللجنة مندوحة من هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك ولكن ما ظننت أنَّ أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً، قال: بعزّتي لأحبطنك إلى الأرض ثم لا تتناول العيش إلاّ نكداً)[1].

ويذهب مُحَمَّد رشيد رضا إلى إثبات وقوع ما يوجب العتاب من آدم عليه السلام إذ إنّه قد ارتكب ما يوجب عتابه ولومه إذ يرى أنَّ الاستفهام في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا ﴾ (الأعراف/٢٢) للعتاب والتوبيخ، أي وقال لهما ربهما الذي يربيها في طور المخالفة والعصيان كما يربيها في حال الطاعة والإذعان ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾[2] (الأعراف/٢٢).

وزعم البيضاوي أنَّ الآية بصدد إثبات أنَّ آدم عليه السلام لم يلتزم بما نُهي عنه وانجر وراء قول إبليس فالآية (عتاب على مخالفة المنهي عنه، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو، وفيه دليل على أنَّ مطلق النهي للتحريم)[3].

---

(١) الكشاف ٢: ٩٩.

(٢) تفسير المنار ٨: ٣٥٠.

(٣) تفسير البيضاوي ٢: ٧٣.

ويبدو لنا أنَّ هذا لا يصحّ في حق الأنبياء عليهم السلام وهم عقلاء البشر وأصحهم إدراكاً وأصفاهم نفساً، فلا يمكن أنَّ يكونوا – ومنهم آدم عليه السلام – عاجزين عن إدراك ما يفعله ويدركه سائر الناس ولاسيما فيما له مساس بإدراك جهات الحسن والقبح، فعليه لا يمكن أنَّ يكون آدم عليه السلام قد إرتكب نهياً تحريمياً استحق بموجبه صفة العصيان.

الثاني: ما يتعلق بنبي الله نوح عليه السلام

قال تعالى: **{ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ }** (هود /٤٢ – ٤٦).

استدل الذاهبون إلى نفي عصمة نوح عليه السلام بهذه الآية المباركة من خلال الخطاب القرآني المتوجه له عليه السلام إذ أنَّهُ عليه السلام خاطب ربه في قضيّة ابنه الذي أصبح من المغرقين، ومنهم الزمخشري إذ ذهب إلى أنَّ نوح عليه السلام إنما عوتب في الآية المباركة لأنّه أشتبه عليه ما يجب أنَّ لا يشتبه عليه[1].

ولذا فإنَّ ظاهر قوله تعالى: **{ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ }**

---

(١) ظ: الكشاف ٣: ٣٧٩.

(هود/٤٦) يدل على أنّه لم يكن ابناً، وإذا كان كذلك كان قوله ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ (هود/٤٥) كذباً فهو معصية.

الثاني: أنَّ سؤال نوح عليه السلام كان معصية لثلاث آيات:

(أ) قوله: ﴿ لاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ (هود/٤٦).

(ب) قوله خبراً عن نوح ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ (هود/٤٧).

(ج) قوله: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾[1] (هود/٤٦).

والظاهر أنَّ في قوله ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنِي ﴾ (هود/٤٦) نهياً عمّا لم يقع بعد قول نوح بعد استماع خطابه سبحانه ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ (هود/ ٤٧) ولو كان سأل شيئاً من قبل لكان عليه أنَّ يقول: أعوذ بك مما سألت، وأما طلب الغفران في قوله: ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ (هود/٤٧)، فمحصله أنَّ هذا كلاماً صورته التوبة وحقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعلم والتأدب.

فلا يكون هذا خطأ منه عليه السلام أو يكون ما فيه موجب لعتابه ولومه.

والقرطبي يرى أنَّ ما ذهب إليه نوح عليه السلام هو جزء من ذنوب الأنبياء عليه السلام فيقول (وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام فشكر الله تذلله وتواضعه)[2].

---

(١) ظ: عصمة الأنبياء ٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٤.

الثالث: الآيات التي تتعلّق بنبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام

إنّ المتتبع لآيات الذكر الحكيم يرى أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أثنى على نبيّه إبراهيم الخليل عليه السلام في كثير من الآيات التي ورد فيها ذكره ومع هذا الثناء نجد أنَّ بعض المخطئة للأنبياء عليهم السلام يريد أنَّ ينسب إليه ما لا يليق بشأنه مستدلاً بآيات توهم بأنّها في مورد العتاب واللوم له عليه السلام نورد هنا أُنموذجاً فيها:

منها: قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ } (الأنعام / ٧٥-٧٦).

قال الرازي: تمسكوا بالآية من وجوه نورد هنا الوجه الأول منها اختصاراً على موضع الحاجة:

الشبهة الأولى: قوله تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام { قَالَ هَذَا رَبِّي } (الأنعام/٧٦)، فلا يخلوا إما أنَّ يقال: إنّه قال هذا الكلام في النظر والاستدلال، أو بعده، فإن كان الأول كان قطعه بذلك مع تجويزه أنَّ يكون الأمر بخلافه إخباراً عما يجوز المخبر كونه كاذباً فيه، وذلك غير جائز وإن كان الثاني كان ذلك كذباً قطعاً، بل كفر قطعاً، ثم يجيب عليه بعد ذلك قيل إنّه من كلام إبراهيم قبل البلوغ، فإنّه لما خطر بباله، قبل بلوغه حد التكليف، إثبات الصانع فتفكر فرأى النجوم، فقال: { هَذَا رَبِّي } فلما شاهد حركتها قال: لابد أنَّ تكون ربّاً، وكذا الشمس والقمر فبلغه الله تعالى في ذلك حد التكليف، فقال: { إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } (الأنعام/٧٨) وإنما بلغ ذلك في النجوم والشمس والقمر لما

فيه من العلوم والنور[١].

ثم إنّ الرازي يرجح أنَّ يكون قول إبراهيم عليه السلام هذا كان على وجه الاعتبار والاستدلال لا على وجه الإخبار ولذلك فإنّ الله تعالى لم يذم إبراهيم عليه السلام [٢].

ويرى البيضاوي أنَّ قوله هذا كان باعث الاستدلال على قومه لإرشادهم للحق وإبعادهم عن الظلام لأنّ البيضاوي يرى أنّ أباه وقومه كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أنَّ ينبههم عن ضلالتهم ثم أنّه يرى أنَّ ما وقع من إبراهيم عليه السلام كان زمان المراهقة أو أبان البلوغ[٣].

ويبدو أنَّ هذا وإن كان فيه نوع تنزيه للنّبي عليه السلام إلاّ أنّه من جانب آخر يطعن في عصمته من جهة كفر أبيه أنَّ ثبت أنّه أبوه وفي جانب آخر يكيل الطعن من أنَّ النّبي زمن المراهقة ليس له سيطرة على فكره وعقيدته وهذا باطل لأنّ إبراهيم عليه السلام من المصطفين الأخيار والمجتبين الأبرار المصونين قبل النبوة وخلالها.

وفي التسهيل يرى أحد الوجهين أمّا أنَّ يكون ما صدر منه قبل التكليف أو بعده والثاني يكون معه قوله على سبيل الرد عليهم والتوبيخ لهم[٤].

وكلا الوجهين قد لا يصح لأنّه لا فرق في كونه مسدداً بالوحي سواء قبل البلوغ أو بعده فهو لا ينطق عن هوى.

---

(١) ظ: عصمة الأنبياء ٢٨ – ٢٩.

(٢) المصدر نفسه ٢٩.

(٣) ظ: تفسير البيضاوي ٧: ٢٩.

(٤) ظ: محمد بن أحمد جزي الغرناطي (ت ٧٤١ هـ) ١: ٢٦٦.

ومثله ما يحكيه في الجواهر الحسان عن ابن عباس إذ يرى أنَّ هذا واقع حال صباه وقيل بلوغه سنّ التكليف ويحتمل كذلك أنّها وقعت بعد بلوغه وكونه مكلفاً[١].

في حين يرى صاحب مراح لبيد أنَّ هذا منه كان على وجه المجاراة مع قومه لأنّهم كانوا يعبدون الأصنام والكواكب[٢].

وهذا غير لائق بساحته عليه السلام لأنّه لا يجاري أحد على حساب الهدى فالأنبياء مسلكهم واضح وطريقهم قويم لا اعوجاج فيه ولا مهادنه لأنّهم يمثلون الصراط القويم والموقف الحق.

الرابع: الآيات التي تتعلّق بنبي الله موسى عليه السلام

قال تعالى: { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ } (القصص / ١٥-١٧).

استدل المخطئون لعصمة الأنبياء بهذه الآية المباركة فذهبوا بها مذاهب شتى قاصدين من وراء ذلك إظهار النقص للأنبياء عليهم السلام وإنّه ليس من المستبعد أنَّ يظهر منهم جرائم وآثام تصل إلى مستوى القتل بحيث يجرّ ذلك لهم اللوم والعتاب من الله تعالى.

---

(١) ظ: عبد الرحمن الثعالبي ١: ٤٩٤.

(٢) ظ: محمد بن عمر الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ١: ٣٢٨.

وهذا المعنى نقرأه عند الزمخشري إذ ذهب إلى أنَّ موسى عليه السلام عندما نسب قتل الكافر إلى عمل الشيطان وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه؟ لأنّه قتل قبل أنَّ يؤذن له في القتل فكان ذنباً يستغفر منه، ثم أنّه يؤيد ما ذهب إليه بقول ابن جريح من أنّه ليس لنبي أنَّ يقتل ما لم يُؤمر(١).

وأما الفخر الرازي فنقل أَنَّهُ قد احتج بهذه الآية من طعن في عصمة الأنبياء عليهم السلام من وجوه(٢):

(أحدها): إنّ ذلك القبطي أمّا أنَّ يقال إنّه كان مستحق القتل أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول فلم قال **{ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ }** (القصص/١٥) ولم قال: **{ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ }** (القصص/١٦) ولِمَ قال في سورة أخرى **{ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنْ الضَّالِّينَ }** (الشعراء / ٢٠)، وإن كان الثانيَ وهو أنَّ ذلك القبطي لم يستحق القتلِ كان قتله معصية وذنباً.

(ثانيها): إنَّ قوله: **{ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ }** (القصص/١٥) يدل على أنّه كان كافراً حربياً فكان دمه مباحاً فلِمَ استغفر عنه، والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز لأنّه يوهم في المباح كونه حراماً.

(ثالثها): إنّ الوكز لا يقصد به القتل ظاهراً فكان ذلك القتل قتل خطأ، فلِمَ استغفر منه.

وأجاب الرازي عن ذلك:

أمّا الأول: فلا يجوز أنَّ يقال إنّه كان لكفره مباح الدم، أما قوله: **{ هَذَا**

---

(١) الكشاف ٣: ٤٠٢، ظ: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٧٠.

(٢) عصمة الأنبياء ص ٨٩.

مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } (القصص/١٥) ففيه وجوه: أحدها: لعلّ الله تعالى وأن أباح قتل الكافر إلاّ أنّه قال الأولى تأخير قتلهم إلى زمان آخر، فلمّا ترك المندوب من عمل الشيطان[1].

وهذا الوجه ضعيف سواء بصيغة الرازي أم ما نقل عن ابن جريج، لأنّه مبني على كون القتل عمداً وهو لم يثبت وعلى فرض العمد فالعدو كان مستحقاً للقتل وليس في الآيات أيُّ إشارة إلى أنّه عليه السلام قد عمل في ذلك ليكون الاستعمال من عمل الشيطان كما أنّه على فرض استحقاق القتل فهذا يعني أنَّ الأمر موجود فكيف ذهبوا إلى أنّه لم يؤمر بذلك.

الخامس: النّبي الأكرم مُحَمّد صلى الله عليه وآله وسلم

وكما هي الحال مع باقي الأنبياء عليهم السلام نجد هؤلاء المفسرين يستندون إلى كثير من الآيات القرآنية يستدلون بها على أنَّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قد جاز عليه الخطأ والسهو والنسيان والذنب الصغير، ومن تلك الآيات:

(الآية الأولى) قوله تعالى: { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلاَ كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (الأنفال / ٦٧-٦٨).

قالوا: إنّ الآية تدل على عتاب الله لنبيه مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم وتكون على استبقاء الأسرى وأخذ الفداء بدلاً عن قتلهم، واعتبروا ذلك من أخطائه صلى الله عليه وآله وسلم الذي يرونه إخلالاً في العصمة المطلقة له.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٤: ٢٠٠ – ٢٠١، ظ: الفخر الرازي عصمة الأنبياء ٨٩، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الايجي (ت ٦٥٦ هـ) المواقف: ٨: ٢٩٧، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

ذكر البغوي في تفسيره حديثاً عن عمر بن ميمون قوله: اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يؤمر بهما: إذْنُه للمنافقين، وأخذه الفدية من أسارى بدر؛ فعاتبه الله[1].

ويبدو أنَّ هذا مخالفاً لقوله تعالى في حق نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم: **{ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى }** (النجم/٣) أما الزمخشري فيرى أنَّ ذلك خطأً في الاجتهاد؛ لأنهم نظروا في أنَّ استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم، وأن فداءهم يتقوّى به على الجهاد في سبيل الله وخفي عليهم أنَّ قتلهم أعز للإسلام واهيب لمن وراءهم وأقل لشوكتهم[2].

وهنا الزمخشري لم ينزّه في هذه القضية غير أبي بكر وسعد بن معاذ كما هو في تفسيره الكشّاف، فخطّئ النَّبي كأحد الصحابة ثم أنّه أبلغ في تخطئة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: (فخفي عليهم) وهل يخفى على رسول الله خافية وهو مسدد بروح القدس في كل آن.

ويرى الفخر الرازي أنّهم تمسكوا بالاستدلال على خطأ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم من ثلاث أوجه:

(الأول) قوله تعالى: **{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى }** (الأنفال/٦٧) وذلك يقتضي استبقاء الأسرى محرماً.

(الثاني) قوله تعالى: **{ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا }** (الأنفال/٦٧) وذلك مذكور

---

(١) ظ: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي (ت٥١٤ هـ) تفسير البغوي أو معالم التنزيل ٢: ٢٥١، ظ: أبو بكر جابر الجزائري أيسر التفاسير ٤: ٣٢٩، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ظ: الصابوني صفوة التفاسير ١: ٤٧٧.

(٢) ظ: الكشاف ٢: ٢٢٥.

في معرض الذم.

(الثالث) قوله تعالى: ﴿ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال/٦٨).

وفي معرض الرد يرى الرازي أنَّ العتاب كما يأتي على ترك الواجب فقد يأتي على ترك الأولى أيضاً والأولى في ذلك الوقت الاثخان وترك الفداء قطعاً للاطماع وحسماً للنزاع ولولا أنَّ ذلك من باب الأولى لما فوض النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك على الأصحاب، وهذا هو العذر عن قوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾ (الأنفال/٦٧).

فأما قوله: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ (الأنفال/٦٧) فهو خطاب جمع فيصرف ذلك إلى القوم الذين رغبوا في المال، وأما قوله: ﴿ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ ﴾ (الأنفال/٦٨) فمعناه لولا ما سبق من تحليل الغنائم لعذّبكم بسبب أخذكم هذا الفداء[1].

وبعد أنَّ يرى القرطبي أنَّ الآية نزلت عتاباً وتوبيخاً لأصحابه صلى الله عليه وآله وسلم ويرى أنَّ ذكر النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها جاء نتيجة ترك تنبيهه عن ذلك في حين كره ذلك سعد بن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحه، ولكنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهي عن الاستبقاء[2].

ويبدو لنا أنَّ هذا تجنياً سافراً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ

---

(١) ظ: عصمة الأنبياء ١٠٥ – ١٠٦.

(٢) ظ: الجامع لأحكام القرآن ٤: ٦٢.

إنَّ الصحابة ترى الصواب في الأمر ولا يراه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه شغله النصر وزهوه من دونهم سفدفعه زهو الدنيا أنَّ ينسى ما به حياة أمته وبقاؤها.

(الآية الثانية) قوله تعالى: { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } (التوبة/٤٣).

استدلوا بهذه الآية المباركة على أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم لو لم يصدر منه الذنب لما كان هناك نوع من العفو الذي أشار إليه قوله تعالى: { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } (التوبة/٤٣) فهو ظاهر في العتاب[١].

ونقل الطوسي رحمه الله عن أبي علي الجبائي قوله: (إنّ في الآية دلالة على أنَّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان وقع منه ذنب في هذا الإذن..)[٢].

ويرى البيضاوي أنَّ العفو في الآية المباركة كناية عن خطائه صلى الله عليه وآله وسلم في الإذن، فإنّ العفو من روادفه ثم أَنَّهُ يرى أنَّ الله سبحانه وتعالى عاتب نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم صراحة في قوله { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } (التوبة/٤٣) بيان لما كنى عنه بالعفو ومعاتبته عليه[٣].

ويرى الرازي أنَّ هذا تلطفاً في المخاطبة بعد أنَّ يَعْرض استدلال المخطئون للأنبياء عليهم السلام بأنّ العفو في { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ } (التوبة/٤٣) لا يكون إلاّ بعد الذنب[٤].

---

(١) ظ: تفسير البغوي ٢: ٢٥١.

(٢) ظ: التبيان ٢: ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) تفسير البيضاوي ٣: ١٤٨.

(٤) عصمة الأنبياء ١٠٦ – ١٠٧.

ثانياً: الأدلة النقلية من السنة للقول بالعصمة الجزئية

يختلف أصحاب المذاهب الأُخَر عن الشيعة الأمامية في عصمة الأنبياء فترى أنَّ الشيعة قاطبة تذهب إلى عصمتهم عليهم السلام وأنّهم منزهون عن الصغائر والكبائر منذ الصغر وهذا ما أثبتوه في كتبهم المعتبرة نقلاً وعقلاً[1]، في حين نرى أتباع المذاهب والفرق الأخرى اتجهوا اتجاهاً معاكساً لمذهب أهل البيت عليهم السلام بالقول بنفي عصمة الأنبياء عندهم وتجويز الخطأ والسهو والنسيان وغيرها من صغائر الذنوب مما جاء في صحاحهم وكتبهم المعتبرة من روايات عدة نشير هنا إلى بعض منها تماشياً مع استيعاب الدراسة لذلك.

الأول: تكذيب الأنبياء عليهم السلام

إنّ ما أخرجته الصحاح من أنَّ الأنبياء عليهم السلام يكذبون فهو ثابت عندهم، فهذا شيخ الحديث البخاري، وإمام الحديث مسلم في كتابيهما وهما أصحّ الكتب بعد القرآن عندهم، واللفظ للبخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتين منها في ذات الله عزّ وجلّ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (الصافات/٨٩) وقوله: ((بل فعله كبيرهم هذا وأن هذا سألني فأخبرته بأنّك أختي فلا تكذبيني))[2] ومما يروى من أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: في صفة الخلق يوم القيامة: وإنهم يأتون آدم عليه السلام يسألونه الشفاعة فيعتذر إليهم، فيأتون نوحاً عليه السلام

(١) ظ: الصدوق محمد بن علي بن بابويه (ت ٣٨١ هـ) الإعتقادات في دين الإمامية ٢: ٩٦ تحقيق، عصام محمد حسين، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

(٢) ظ: البخاري ٥٩٧، صحيح مسلم شرح النووي ٨: ١٠٤.

فيعتذر إليهم، فيأتون إبراهيم عليه السلام، فيقولون: يا إبراهيم أنت نبيّ الله وخليله اشفع لنا إلى ربّك، أما ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم إنَّ ربي قد غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولم يغضب بعده مثله وإنّي قد كذبت ثلاث كذبات، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري)[١].

وهذا دليل على أنَّ الأنبياء عليهم السلام في معتقدهم يكذبون والذي يصدر منه الكذب لا يكون معصوماً، فكيف يجوز على الله تعالى أنَّ يرسل رسلاً كذابين، وروى الفخر الرازي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، قوله: إنّي سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله لساره: إنّكِ أختي وهو كذب))[٢].

ولهذا ورد في الجامع الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لم يكذب إبراهيم عليه السلام في شيء قط إلا ثلاث: قوله: (إني سقيم) ولم يكن سقيماً، وقوله لساره (أختي) وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا)[٣].

ومما يدل على كذب الأنبياء عليهم السلام عندهم أيضاً ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: (((مررت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوم على رؤوس النخل فقال: ما يصنع هؤلاء، فقالوا يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح فقال رسول الله صلى الله عليه

(١) نهج الحق وكشف الصدق ١٥٢ – ١٥٣.

(٢) ظ: عصمة الأنبياء ٧١.

(٣) ظ: الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سور (ت ٢٧٩ هـ)، الجامع الصحيح ٥: ٣٠١ نشر دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٧٩م.

وآله وسلم: ما أظن يغني ذلك شيئاً، قال: فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني الا ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لن أكذب على الله عزّ وجلّ[١].

والذي يبدو في ذلك أنَّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عندهم جائز أنَّ يكذب على غير الله عزّ وجلّ.

ولهذا أخذ منها القصاصون فانتشر الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [٢].

الثاني: نسيان النّبي للصلاة وصدور السب والشتم منه صلى الله عليه وآله وسلم

منها: روى المخطئون لعصمة الأنبياء عليهم السلام أنَّ النّبي ينسى ويسهو في صلاته، قال أبو هريرة؛ صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إحدى صلاتي العشيّ، قال فصلىّ بنا ركعتين ثم خرج سرعان الناس، وهم يقولون قصرت الصلاة وفي الناس أبو بكر وعمر فهابا أنَّ يكلمّاه، فقال رجل، كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسميه ذو اليدين، فقال يا رسول الله: أنسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: لم أنسَ ولم تقصر الصلاة، قال: بل نسيت يا رسول الله، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على القوم فقال: أصدق ذو اليدين؟ فأومأوا أي نعم... فرجع إلى مقامه فصلّى الركعتين الباقيتين ثم

---

(١) ظ: مسلم ٨: ٩٨.

(٢) ظ: سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت ١٢٩٤) ينابيع المودة ١: ١٧، انتشارات الشريف الرضي قم، مكي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت ١٠٤٤ هـ) السيرة الحلبية ٣: ١١.

سلّم))[١].

ومنها: ما تشير إلى أعراضه صلى الله عليه وآله وسلم عن عبادة رَبِّه وإهمالها والاشتغال عنها بغيرها من أمور الدنيا.

روى في الصحيحين أَنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم صلى بالناس صلاة ركعتين ودخل حجرته ثم خرج لبعض حوائجه، فذكرّه بعض فأتمها[٢].

وذهبوا إلى أبعد من ذلك حين جوّزوا صدور السب والشتم منه صلى الله عليه وآله وسلم إلى بعض أصحابه، أخرج السيوطي في حديث صحيح قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

((إنّما أَنَا بشر، وأني اشترطت على رَبِّي عَزّ وجلّ: أي عبد من المسلمين شتمته أو سببته أنَّ يكون ذلك له زكاة وأجراً))[٣] فكيف يجوز على الله أنَّ يرسل للناس أنبياء لا يتورعون عن السب والكذب.

الثالث: النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ومزامير الشيّطان

روى النافون لعصمة الأنبياء عليهم السلام المطلقة أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم يتلذذ بسماع ما مصدره الحرام ويتهاون معه ويغضّ الطرف عنه ولم يردعه.

وما يروى عن عائشة أنها قالت: دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) ظ: النسائي ٢١٢، صحيح مسلم بشرح النووي ٣: ٥٦.

(٢) ظ: صحيح مسلم ١: ٢١٦ باب السهو في الصلاة والسجود له.

(٣) جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) الجامع الصغير ١: ٣٩٣، دار الفكر بيروت – ط ١، ١٩٨١م.

وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: دعها، فلما غفل، غمزتهما فخرجتا[١].

وكذا ما يروى عنها قالت – أي عائشة – وكان يوم عيد إلى قوله... تشتهين تنظرين، فقالت: نعم، فأقامني وراءه خدي على خده)[٢].

هذا ما يروى في أصح الكتب عند أهل السنة من أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم يتلذذ بسماع مزامير الشيطان حتى أنَّهُ يضع خدّه على خد عائشة وأنّ أبا بكر ينكر ذلك عليهم أليست هذه المزامير من عمل الشيطان؟ وإن كانت كذلك فكيف يرضى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم بعمل الشيطان، وفي هذا دلالة واضحة على انتقاصهم للأنبياء عليهم السلام ونفي تماميّة عصمتهم.

ومنها: ما روي عن بريد قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء، فقالت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني نذرت إن ردّك الله سالماً، أنَّ أضرب بين يديك بالدف وأتغنّى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن كنت نذرت فاضربي وإلاّ فلا، فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل علي وهي تضرب ثم دخل عثمان وهي تضرب ثم دخل عمر، فألقت الدف تحت إستها ثم قعدت عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الشيطان ليخاف منك يا عمر إنّي

---

(١) ظ: صحيح البخاري ١٧٩ كتاب العيدين ح ٩٤٩، صحيح مسلم: ٣: ١٥٤.

(٢) ظ: المصدر نفسه ١٧٩، صحيح مسلم ٣: ١٥٥.

كنت جالساً وهي تضرب، فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل عليٌّ وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، ثم دخلت أنت يا عمر فألقت الدف[١].

ويبدو لنا أنَّ الرواية لا تحتاج إلى عناية في كشف زيفها وفضح أمرها إذ ليس من المعقول أنَّ يكون صاحب الشريعة والمأمور على حفظها أنَّ يخالف ما أمر به أو يناقض نفسه إذ إنّهُ صلى الله عليه وآله وسلم بيّن حرمة النذر الحرام وأنه غير معتقد هذا من جهة ومن جهة أخرى أيعقل أنَّ يخشى الشيطان صحابياً مجرداً ويهرب منه ولا يخشى النَّبي الأعظم ويتجنبه بل كيف يعقل أنَّ يرضى النَّبي بالاستماع إلى المحرم الذي نهى عنه – أي الغناء – فلا يبقى إلاّ أنَّ هذه الرواية من الموضوعات للإخلال بعصمة الأنبياء عليهم السلام.

الرابع: النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وصلاة الصبح

ومما نسبه المخالفون إلى العصمة المطلقة أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم قد فاتته صلاة الصبح فلم يستيقظ لها وزيادة على ذلك أنَّهُ صلى بلا وضوء، وهذا ينافي خلق القرآن وأحكامه، وهذه مثلبة عظيمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عمران بن الحصين قال: كنت مع نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسير له فأدلجنا ليلتنا حتى إذا كان وجه الصبح عرّسنا فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس، قال: فكان أول من استيقظ منا أبو بكر، وكنا لا نوقظ نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم من منامه إذا نام حتى

(١) ظ: الترمذي في الجامع ٥: ٣٨٤، ظ: الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) مسند أحمد ٥: ٣٥٣، دار صادر، بيروت – لبنان، العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤: ٦٤ دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.

يستيقظ، ثم استيقظ عمر، فقام عند نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يكبر ويرفع صوته حتى استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت، قال: ارتحلوا فسار بنا حتى ابيضت الشمس نزل فصلّى بنا الغداة[1] أي الصبح.

والرواية لا تزيد عن سابقاتها في فداحة كذبها وافترائها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ إنّها في معرض بيان فضائل الصحابة على رسول الله وأَنَّهُ بشر عادي ليس له فضل على غيره إذ يكون عمر وأبو بكر أحرص منه على صلاة الصبح متغافلين عن إحاطة الوحي به وتسديده له.

والأنكى من ذلك أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى إحدى صلواته من دون وضوء وعن نومٍ في رواية ابن عباس كما في الصحيح، قال:

(إِنَّهُ بات عند خالته ميمونه، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الليل فتوضأ، ثم صلّى، ثم اضطجع فنام حتى نفخ - أي حتى غط في النوم — ثم أتاه بلال فأذنه بالصلاة فخرج فصلّى الصبح ولم يتوضأ، قال: سفيان وهذا للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خاصة[2].

ويبدو من خلال النص أنّهم نسبوا إلى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم النسيان باعتبار أَنَّهُ صلّى عن نوم وكذا هم أرادوا منه صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّهُ قد تلاعب في التشريع إذ إنه تجاهل الطهارة وباعتبار أنَّ الصلاة مشروطة بها فعمله هذا بحسب زعمهم منافٍ للتشريع الذي يكون منافياً للعصمة.

(١) صحيح مسلم ٥: ١٩٤.

(٢) ظ: صحيح مسلم ٦: ٢٩٥، البخاري ١: ١٧٩.

وذلك مما تمنع منه الأدلة القاطعة على أَنَّهُ لا يجوز عليه السهو والغلط[١].

الخامس: صلاة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم جنباً

نسب المخالفون للعصمة إلى أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم قد خرج للصلاة بالناس وهو جنب روى البخاري في صحيحه في باب إذا ذكر في المسجد أَنَّهُ جنب، عن أبي هريرة قال: أقيمت الصلاة وعدلت الصفوف قياماً فخرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما قام في مصلاه ذكر أَنَّهُ جنب فقال لنا مكانكم ثم رجع فاغتسل...)[٢].

ومثله ما رواه الإمام مسلم في صحيحه في باب متى يقوم الناس للصلاة، عن أبي هريرة قال: أقيمت الصلاة فقمنا فعدلنا الصفوف قبل أنَّ يخرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا قام في مصلاه قبل أنَّ يكبّر ذكر فانصرف، قال لنا مكانكم فلم نزل قياماً ننتظره حتى خرج إلينا وقد اغتسل ينظف رأسه ماء فكبّر فصلّى بنا[٣].

والظاهر أنَّ أبا هريرة ومن سلك مسلكه وروى حديثه أراد بذلك أنَّ يحط من مكانة النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ ما يريد أنَّ يصل إليه هو دعوى نسيان النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك نفي اهتمامه بالأحكام الشرعية التي يكون الغسل واجباً فيها.

---

(١) ظ: الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ) الاستبصار، ١: ٣٧١ دار الكتب الإسلامية ط ١٣٩٠ هـ، الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن، التهذيب ٢: ١٨١، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط ١٣٦٤ ش.

(٢) ظ: صحيح البخاري: ٧٢ كتاب الغسل ح ٢٧٥.

(٣) ظ: صحيح مسلم شرح النووي ٥: ١٠٦.

السادس: الأنبياء عليهم السلام وحُبُّ النساء

ومما ينسب إلى أنبياء الله سبحانه في معتقد النافين للعصمة المطلقة لهم عليهم السلام ما لا يدركه العقل، فقد جاء في صحيح البخاري عن انس بن مالك قال: كان النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يومئذٍ تسع نسوةٍ[1].

وأما ما جاء عن نبيّ الله سليمان عليه السلام فأعظم من ذلك، روى البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: قال سليمان بن داود عليه السلام لأطوفن الليلة بمئة إمرأةٍ، تلدُ كلٌّ إمرأةٍ غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقال له الملك قل: إن شاء الله، فلم يقل ونسي، فأطاف بهن، ولم تلد منهم إلا امرأةً نصف إنسان قال النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((لو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان أرجى لحاجته))[2].

هذا ما نسبه المخالفون لعصمة الأنبياء إلى أنَّهم – الأنبياء عليهم السلام – كانوا حديث القوم وكانوا يخبروهم بأخص ما يفعلونه مع نسائهم وهو من شؤون حياتهم التي أمرنا الله بالتستر فيها فأي عاقل يستسيغ لنفسه أنَّ ينسب إلى أنبياء الله هذه الأفعال التي تحط من مكانتهم (صلوات الله عليهم).

السابع: موسى عليه السلام وملك الموت

وممّا استدل به المخطئة لعصمة الأنبياء عليهم السلام على ما نسبوه إلى نبي

---

(١) ظ: صحيح البخاري ٩٥٩ كتاب النكاح، ح ٦٢١٥، صحيح مسلم بشرح النووي، ٦: ١٠٠ باختلاف يسير.

(٢) المصدر نفسه: ٩٦٣، ظ: سنن النسائي: ٦٥٦ كتاب الإيمان والنذور.

الله موسى عليه السلام من أَنَّهُ لطم ملك الموت لما جاء لقبض روحه عليه السلام ففقأ عينه، فكيف يجوز أنَّ ينسب هذا إلى موسى عليه السلام مع علو مكانته وشرافته ثم أَنَّهُ كيف لنبيّ الله أنَّ يوقع الأذى بملك الموت وهو مأمور من الله سبحانه بقبض روحه.

عن أبي هريرة أَنَّهُ قال: (أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكّه، فرجع إلى ربّه، فقال أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: أَرْجِع إليه، فقل له يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يدهُ بكل شعرة سنة، قال: أي رَبّ، ثم ماذا؟ قال ثم الموت، قال: فالآن، قال: فاسأل الله أنَّ يُدنيهُ من الأرض المقدسة، رمية بحجر).

قال أبو هريرة: ((قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو كنت ثمّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر))[١].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة... قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له أجب ربّك. قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، قال: فرّد الله إليه عينه[٢].

وكيف يجوز ذلك على موسى عليه السلام وقد اختاره الله لرسالته؟ وائتمنه على وحيه؟ وأثره بمناجاته؟ وجعله سادة رسله؟ وكيف يكره الموت هذا مع شرف مقامه ورغبته في القرب من الله تعالى والفوز بلقائه وما ذنب ملك الموت

---

(١) ظ: صحيح البخاري ٦٠٩ كتاب أحاديث الأنبياء ح ٣٤٠٧.

(٢) ظ: صحيح مسلم بشرح النووي ٨: ١٠٨.

عليه السلام؟ وإنما هو رسول الله إليه... [(١)].

الثامن: موسى عليه السلام يغتسل عرياناً

استدلوا كذلك لتخطئة النَّبي موسى عليه السلام على أَنَّهُ اغتسل عرياناً ليرى بنو إسرائيل عورته، مع ما فيه من انتقاص لأنبياء الله تعالى، قال تعالى: **{ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ }** (النور/٣٠).

روى البخاري في صحيحه في باب (من اغتسل عرياناً) عن أبي هريرة عن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

((كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أنَّ يغتسل معنا إلاّ أَنَّهُ أدر، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففّر الحجر بثوبه فخرج موسى في أثره يقول ثوبي يا حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى، فقالوا والله ما بموسى من بأس وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً))[(٢)].

يقول السيد عبد الحسين شرف الدين معلقاً: (وأنت ترى ما في هذا الحديث من المحال الممتنع عقلاً فإنّهُ لا يجوز تشهير كليم الله بإبداء سوأته على رؤوس الأشهاد من قومه لأن ذلك ينقصه ويسقط من مقامه، ولاسيما إذا رأوه عارياً ينادي الحجر وهو لا يسمع ولا يبصر – ثوبي حجر، ثوبي حجر)[(٣)].

(١) ظ: عبد الحسين شرف الدين الموسوي، أجوبة مسائل جار الله ص ١٤، منشورات دار النعمان ط ٣، النجف الأشرف.

(٢) ظ: صحيح البخاري ٣٧ كتاب الغسل ح ٢٧٨، صحيح مسلم بشرح النووي ٨: ١٠٦ – ١٠٧.

(٣) أجوبة مسائل جار الله / ٤٢.

التاسع: يوسف عليه السلام والمراودة

ومما ذهب إليه المخطئون لعصمة الأنبياء هو النيل من نبي الله يوسف الصديق عليه السلام الذي اصطفاه الله واختاره وزاده بسطة في الجمال والعلم والشرف والعفة وضربه مثالاً للخلق القويم أبعد كل هذا يأتي هؤلاء ليرموا تراث النَّبي العفيف بوابل من تشويهاهم ومنها محاولة مراودة امرأة العزيز حسب زعمهم.

قال الزمخشري: (وقد فسّرَ هَمُّ يوسف عليه السلام بأَنَّهُ حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع، وبأنّه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مُستلقية على قفاها، ثم بعد ذلك يذكر تفسير البرهان ويقول بان يوسف سمع صوتاً إياك وإياها فلم يكترث له،فسمعه ثانياً فلم يعمل به، فسمع ثالثاً أعرض عنها فلم ينجح فيه، حتى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته، ثم يقول: وقيل ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله[1].

والذي يتدبرّ في هذه الخرافة تنجلي له صورة الزيف والكذب الموسومة بالنبي الأكرم على الله، إذ إنّه نبي العفاف ومثال الشرف فكيف يعقل أنَّ يصدر منه كل هذا وهو الذي يحارب الزنا وكل عمل باطل.

المطلب الثاني: الأدلة العقلية للقائلين بالعصمة الجزئية للأنبياء عليهم السلام

يختلف القائلون بالعصمة الجزئية للأنبياء عليهم السلام عمن قال بالعصمة المطلقة لهم عليهم السلام، فهناك اتجاهان متعاكسان كل له دليله العقلي في ذلك يشتركان في أنَّ الأنبياء عليهم السلام لا يمتازون بالعصمة

---

(١) ظ: الكشاف ٢: ٤٣٠ – ٤٣١، ظ: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١١٤.

المطلقة وإنما يرد عليهم ما يرد على غيرهم من بني البشر على الرغم من كونهم أنبياءً أو رسلاً عليهم السلام.

وقد نقل ابن حزم اختلافهم في ذلك فقال: (اختلف الناس هل تعصي الأنبياء أم لا؟ فذهبت طائفة إلى أنّ رسل الله عليهم السلام يعصون الله تعالى في جميع الكبائر والصغائر عمداً حاشا الكذب في التبليغ فقط، وهذا قول الكرامية من المرجئة، ويقول ابن الطيّب والباقلاني من الاشعرية ومن اتبعه وهو قول ذهبت إليه اليهود والنصارى من قبل، وسمعت من يحيى عن بعض الكرامية أنَّهم يجيزون على الرسل عليهم السلام الكذب في التبليغ أيضاً، وأما هذا الباقلاني فإنّا رأينا في كتاب صاحبه أبي جعفر السمناني قاضي الموصل أنَّهُ كان يقول: إن كل ذنب دق أو جل فإنّه جائز على الرسل حاشا الكذب في التبليغ فقط، فقال: وجائز عليهم أنَّ يكفروا..)[1].

ويبدو أنَّ هذا هو منطق كل من ذهب إلى إمكان صدور الذنب من المعصومين عليهم السلام وهو الذي دعى الغزالي، إلى تبنيّ هذه الفكرة إذ إنّه يورد اختلاف الفقهاء في المسألة فيقول: أما جوازه - أي صدور الذنب - فقد أطبقت المعتزلة على وجوب عصمة النَّبي عليه السلام عقلاً عن الكبائر تعويلاً على أنَّهُ يورث التنفير وهو مناقض لغرض النبوّة ثم بعد ذلك أنَّهُ يختار ما يتبناه فيقول:

(والمختار ما ذكره القاضي وهو أنَّهُ لا يجب عقلاً عصمتهم إذ لا يستبان استحالة وقوعه بضرورة العقل ولا ينظر العقل وليس هو مناقضاً لمدلول المعجزة، فإنّه مدلول صدق اللهّجة فيما يخبر عن الله تعالى فلا جرم ولا يجوز وقوع الكذب

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤: ٢، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط٢، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥ م.

فيما يخبر به عن الرّب تعالى)[١].

وهذا ما ينكره على الشيعة، إذ إنهم اجمعوا على أنَّ الأنبياء لا يخطئون ولا يعتريهم السهو والنسيان وهم مجمعون على أنهم معصومون في أمور الدين والدنيا[٢].

ومنهم من يقول بوجوب أنَّ يكون النَّبي معصوماً من القبائح صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها على طريق العمد والنسيان وعلى كل حال[٣].

ومن الأدلة على ذلك:

(١) ما يستدل القاضي عبد الجبار حينما ينسب المعصية للأنبياء عليهم السلام من جهة ارتكابهم الصغائر، لأنّه يعلل ذلك بأنّ الصغائر ليس لها حظ إلاّ في تقليل الثواب من دون التنفير، لانّ قلة الثواب ممّا لا يقدح في صدق الرسل ولا في القبول منهم[٤].

وهذا ما فيه من فداحة القول تجاه العصمة التي امتاز بها أنبياء الله ورسله عليهم السلام إذ أنَّ صدور الذنب ولو صغيراً منهم يوجب زوال الثقة بصدق أقوالهم.

---

(١) ظ: أبو حامد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، المنخول في علم الاصول، تحقيق محمد حسين هيتو، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، ط ٣، ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

(٢) ظ: العلامة جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (ت ٦٧٢ هـ).

(٣) ظ: الشريف المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦ هـ)، الذخيرة في علم الكلام ص ٣٣٨ مؤسسة النشر الإسلامية ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد ص ٦٠.

(٤) ظ: عبد الجبار بن أحمد الهمذاني شرح الأحوال الخمسة ٥٧٥.

(٢) وفي المواقف يرى أنَّهُ قد أجمع أهل الملل والشرائع على عصمتهم عن تعمد الكذب فيما دلت المعجزة على صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله تعالى وفي جواز صدورهم عنهم على سبيل السهو والنسيان خلاف فمنعه الأستاذ وكثير من الأئمة لدلالة المعجزة على صدقهم وجوّزه القاضي أبو بكر الباقلاني[(١)].

(٣) وممّا استدّل به أيضاً على نفي عصمتهم عليهم السلام عقلاً ما ذكره الإحسائي إذ نسب القول على بعض الناس فقال: (ومن الناس من لم يجوّز الكفر على الأنبياء لكنّهم جوّزوا إظهار الكفر تقية بل أوجبوه، لأنّ إظهار الإسلام إذا كان مفضياً إلى القتل كان إلقاءً للنفس إلى التهلكة وإلقاء النفس إلى التهلكة حرام لقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة/ ١٩٥) وإذا كان إظهار الإسلام حراماً كان إظهار الكفر واجباً)[(٢)].

ويبدو أنَّ المستدل قد غفل عن قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ ﴾ (المائدة/٦٧) إذ إنّ التسديد الإلهي مع الأنبياء عليهم السلام وهو الحافظ لهم وأنّه تعالى مصدر قوتهم وعزهم ومواقف الأنبياء عليهم السلام مع سائر الظلمة يثبت ذلك هذا من جهة ومن جهة أخرى إذا أظهر النَّبي الكفر فيدل ذلك على أنَّ المجتمع المتأثر به سيصبح كافراً وهذا لا يتحمله العقل.

(٤) ما ينقله الإحسائي عن الفضل بن روزبهان من (أن الإنسان لما خلق من الأرض ونشأ منها فلا يخلو عن الكدورات الترابية التي تقتضي الذنب والغفلة فكان بعض الذنوب تصدر بحسب مقتضى الطبع ولما لم يكن خلاف ملكه العصمة

(١) عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المواقف، ٢٦٣.

(٢) الشيخ أحمد بن زين الدين الاحسائي، العصمة ٣١.

فلا مؤاخذة به)[١].

ويبدو في عبارته نوع من التضاد والتسامح في فهم العصمة من قوله (ولما لم يكن...) لأنه كيف نتصور العصمة مع إمكان صدور الذنب منه أو الغفلة، فالعبارة فيها تأمل..

(٥) واستدل كذلك في حقائق المعرفة على نفي عصمتهم عليهم السلام مطلقاً بل أنهم ينالون جزء العصمة إذ يقول فأما في سائر أفعالهم في غير بتبليغ الرسالة فإنّه يجوز عليهم النسيان والغفلة والخطأ في التأويل والعجلة وقد ذكر الله عنهم ذلك وذكر توبتهم منه وندمهم وإقلاعهم واستغفارهم ثم يقول: لا يقال أنَّ النَّبي معصوم عن المذمومات والمعاصي جميعها لأنَّهُ لو كان كذلك لم يكن له ثواب في لزمه لنفسه عن المحرّمات ولما كان محموداً في ترك إتباع الشهوات، ولما كان يوسف عليه السلام في لزمه لنفسه عن إمرأة العزيز محموداً، وقد قال تعالى: { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } (يوسف/٢٤)، فصح أنَّهُ لزم نفسه عنها، لا عن عصمةٍ، ولا تقل إن الله عصمه منها.

بل نقول: إن الأنبياء مخيّرون متمكنون كغيرهم من الآدميين بل إنهم أقوى على نفوسهم وعلى لزمها من المحرمات لما شاهدوا من الدلائل والمعجزات[٢].

(٦) وأما الاشاعرة فإنهم يرون أنَّ الأنبياء عليهم السلام مكلفون بترك الذنوب مثابون به ولو كان الذنب ممتنعاً عنهم لما كان كذلك، إذ لا تكليف بترك الممتنع ولا ثواب عليه، وكذلك قوله { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ }

---

(١) الشيخ أحمد بن زين الدين الاحسائي، العصمة ٢٩.

(٢) أحمد بن سليمان بن محمد المطهر بن علي بن الإمام الناصر، حقائق المعرفة في علم الكلام ٤٣٠ – ٤٣٣ مؤسسة الإمام زيد بن علي ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، صنعاء - اليمن.

(الكهف/١١٠) يدل على مماثلتهم لسائر الناس فيما يرجع إلى البشرية والامتياز بالوحي لا غير فلا يمتنع صدور الذنب عنهم كما في سائر البشر، هذا مذهب الأشاعرة ومن تأمّل فيه علم أَنَّهُ الحق الصريح المطابق للعقل والنقل[1].

(٧) اختار الغزالي مذهب القاضي عبد الجبار في نفي عصمتهم عقلاً ودليله على ذلك أَنَّهُ (لا يستبان استحالة وقوعه بضرورة العقل ولا ينظره، وليس هو مناقضاً لمدلول المعجزة فإن مدلوله صدق اللهجة فيما يخبر عن الله تعالى لا عمداً ولا سهواً ومعنى التنفير باطل فإنّه يجوز أنَّ ينبيء الله تعالى كافراً يؤيده بالمعجزة)[2].

---

(١) ظ: الإحسائي ٣٩ مصدر سابق.

(٢) المصدر نفسه ٣٤.

المبحث الثالث: توجيه آيات العتاب على القول بالعصمة

لقد فصَّل كثير من مفسرّي المذاهب الإسلامية ومتكلميها بعض الآيات التي لازمت حياة الأنبياء عليهم السلام وكثر حولها الجدل لأن بعضاً من هذه الآيات المباركات أثيرت حولها كثير من الشبهات التي لها اتصال مباشرة بعصمة الأنبياء إذ قالوا: إنّ من هذه الآيات ما جاءت مورد عتاب ولوم وتقريع لبعض الأنبياء فكثر الجدل بين نافٍ هذه التوجهات والشبهات الواقعة في غير محلها وبين مثبت لها ومن ثم ما نعته بانتفاء ثبوت العصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام فأصبح هناك فريق قائل بالعصمة المطلقة وهو ما تبناه مذهب أهل البيت عليهم السلام وفريق آخر يذهب إلى أنَّ العصمة جزئية للأنبياء وهذا الجزء كذلك اختلفوا فيه.

ومن هنا نتوقّف عند نماذج من الآيات المباركات لنماذج من الأنبياء عليهم السلام التي وقعت محل الجدل بين العلماء.

مدخل

يرتكز مذهب القائلين بالعصمة المطلقة للأنبياء عليه السلام على أدلة يستندون إليها في دعم ما يذهبون إليه من ان الأنبياء عليهم السلام معصومون مطهّرون لا يأتيهم العيب والنقص، ولذا ذهب أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام إلى إنتفاء عروض أي شيء من المعاصي والذنوب كبيرة كانت أم صغيرة قبل النبوّة أم بعدها(١).

وهذا التنزيه من الأصول الثابتة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ولذا لا يقبل ما يخالفه من نصوص، وانطلاقاً من ذلك فهم يؤولون الآيات التي يشعر ظاهرها بأنّها خلاف الأصل(٢).

الأمر الذي دعا الشيخ المفيد رحمه الله إلى أنَّ يردّ على من يخالفه في قوله بالعصمة المطلقة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويرى وقوع الصغائر منه صلى الله عليه وآله وسلم استدلالاً بما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: { لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ } (الفتح/٢)، وآيات أخرى بأنّ ما يتعلّق به هؤلاء لا دليل عليه (فإنّه تأويل بضد ما توّهموه، والبرهان يعضده على البيان، وقد نطق بما وصفناه فقال جل اسمه { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } (النجم / ١-٢). فنفى عنه بذلك كل معصية ونسيان(٣).

---

(١) ظ: الصدوق محمد بن علي بن بابويه القمي الاعتقادات في دين الإمامية ٢: ٩٦.

(٢) ظ: د. ستار جبر الأعرجي، منهج المتكلمين في فهم النص القرآني: ٢١٣ رسالة دكتوراه، جامعة الكوفة ٢٠٠٠ م.

(٣) الشيخ المفيد أوائل المقالات ٦٨.

المطلب الأول: توجيه آيات العتاب على القول بالعصمة المطلقة

نورد هنا نماذج من آيات عتاب الأنبياء عليهم السلام مع بيان محاولة توجيهها على ضوء القول بالعصمة المطلقة

الأول: ما يتعلق بنبي الله آدم عليه السلام

ذهب أغلب مفسري العامة إلى أنّ النَّبي آدم عليه السلام قد اقترف نوعاً من العصيان بنص ظاهر القرآن الكريم في قوله تعالى: { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } (طه / ١٢١).

فقالوا هذا تصريح بوقوع المعصية التي لا تكون إلاّ قبيحة[1] إذ كانت مصاحبة لإطاعة إبليس وهذا خطأ منه كان سبباً في إخراجه من الجنة. فكان ذلك سبب عتابه من قبل البارئ جل علاه لتركه العمل بما أمره الله به من ترك الاقتراب من الشجرة { وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ } (الأعراف / ٢٢).

ومن هنا ربط بعض بين النهي عن الأكل من الشجرة وبين المعصية على أنّها أخلال في العصمة الأمر الذي جلب اللوم والعتاب لآدم عليه السلام.

فلابد من معرفة أنَّ كلمة (عصى) تعني خلاف الطاعة وأن كلمة (لا تقربا) تعني النهي، والنهي الشرعي نوعان: مولوي يجب طاعته فيما يأمر به، ويترتب عليه الثواب على الطاعة، والعقاب على المخالفة وهذا شأن أكثر الأوامر والنواهي الواردة في الكتاب والسنّة.

---

(١) ظ: الشريف المرتضى، تنزيه الأنبياء ص ٢٤.

أو إرشـادي وهـو أنَّ ينطلـق المـولى فيـه بتوجيـه النـصح والإرشـاد والعظـة والهداية فيترك اختيار أحد الجانبين من الفعل والترك للمخاطب[1].

والآيات الـواردة في سـورة (طـه) تكـشف النقـاب عـن نوعيـة هـذا النـهي، وتصرّح بأن النهي كان إرشادياً لصيانة آدم عما يترتب عليـه مـن الآثـار المكروهـة والعواقب غير المحمودة، ومن أجل تنزيه مقام النَّبي آدم عليـه الـسلام ذهـب علـماء الإمامية ومتكلموه القائلون بالعصمة المطلقة إلى توجيـه هـذه الآيـات المنـسوبة إلى آدم عليه السلام بما يناسب مقام آدم عليه السلام شرافته وعصمته كما جـاء ذلـك على لسان الشريف المرتضى رحمه الله وغيره من علمـائهم، إذ أَنَّـهُ – أي المرتـضى – لا يرى أنَّ آدم عليه السلام قد خالف الأمر الإلهي المتوجه إليه وإنّمـا هـو كـان تاركاً لنفل ومعه لا يكون عاصياً أو فعل قبيحاً.

إذ قال: (أما المعصية فهي مخالفة الأمر والأمر مـن الحكـيم تعـالى قـد يكـون بالواجب والمندوب معاً، فلا يمتنع على هذا أنَّ يكون آدم عليه الـسلام منـدوباً إلى ترك التناول من الشجرة، ويكون بمواقعتها تاركاً نفلاً وفضلاً وغـير فاعـل قبيحـاً، وليس يمتنع أنَّ يسمى تارك النفل عاصياً كما يسمى بذلك تارك الواجب)[2].

وبعد هذا البيان لا يمكن القبول بالقول أنَّ آدم قد أخطأ أو أنَّ الله تعالى قـد تعمّد تخطئته لحكمة منه، فإذا كان الله عزّ وجلّ هو الذي خطأ آدم، فما ذنبـه حـتى يعاقبه ويجعله من أهل الغواية.

ولو عدنا إلى الآية التي قـالوا إنهـا جـاءت في مـورد عتـاب لـه عليـه الـسلام

(١) ظ: خليل قدسي مهر، الفروق المهمة في الأصول الفقهية ص ٥٣، نـشر دار التفسير، إيـران – قم ط ٢، ١٤١٩ هـ. ق – ١٣٧٧ ش.

(٢) الشريف المرتضى، تنزيه الأنبياء ص ٢٤.

وهي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ (الأعراف/٢٢) نجد الشريف المرتضى رحمه الله يوجهها انطلاقاً من الخصائص البلاغية المتفردة للأسلوب القرآني بقوله (أمّا النهي والأمر فليس يختصان عندنا بصيغة ليس فيها احتمال ولا اشتراك وقد يؤمر عندنا بلفظ النهي وينهى بلفظ الأمر فإنّما يكون النهي نهياً بكراهة المنهي عنه فإذا قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (الأعراف/١٩) ولم يكره قربها، لم يكن في الحقيقة ناهياً كما أَنَّهُ تعالى لما قال: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ (فصلت/ ٤٠) ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ (المائدة/٢) ولم يرد ذلك، لم يكن أمراً فإذا كان قد صحّ قوله: ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (الأعراف/١٩) أراد ترك التناول، فيجب أنَّ يكون هذا القول أمراً، إن سمّاه منهي عنه، ويسمّى أمره له بأَنَّهُ نهي من إذ كان فيه معنى النهي، لأن النهي ترغيبٌ في الامتناع عن الفعل وتزهيداً في الفعل نفسه، ولما كان الأمر ترغيباً في الفعل وتزهيداً في تركه، جاز أنَّ يُسميه نهياً)[1].

وينحى الشيخ الطوسي رحمه الله نفس المنحى بتوجيه الآية بما يثبت العصمة المطلقة بأن آدم عليه السلام لم يرتكب قبيحاً لقيام الدلالة عنده على عصمة من سائر القبائح صغيرها وكبيرها.

فيقول: (إنّ آدم عليه السلام لم يرتكب قبيحاً وأتى ما توجه إليه بصورة النهي، كان المراد به ضرباً من الكراهة من دون الحظر، وإنما قلنا ذلك لقيام الدلالة على عصمتهما من سائر القبائح صغائرها وكبائرها فعلى هذا لا يحتاج إلى أنَّ نقول أنهما تأولا فأخطأ)[2].

---

(١) الشريف المرتضى، تنزيه الأنبياء ص ٢٦.

(٢) التبيان ٤: ٣٧٣.

أما الطبرسي رحمه الله فينحى منحى آخر في توجيه الآية المباركة إذ يرى أنَّ هناك نوعاً من العتاب والتوبيخ لآدم وحواء إثر ارتكاب المنهي عنه إذ قالا: { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا } (الأعراف/٢٣) ومعناه بخسناها الثواب بترك المندوب، فبعد أنَّ يعتبر الظلم الذي تسبباه لأنفسهما (نقصاً) يرى أنهما لم يستحقا العقاب وإنما قالا ذلك لأنّ من جلَّ في الدين قدمه كثر على يسير الزلل ندمه(١).

ويرى بعض المحدثين من علماء الإمامية في توجيه هذه الآيات (أنّها تكشف النقاب عن نوعية هذا النهي وتصرّح بأنّ النّهي كان إرشادياً لصيانة آدم عمّا يترتب عليه من الآثار المكروهة والعواقب غير المحمودة قال سبحانه: { فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى } (طه / ١١٧ – ١١٩)، فإن قوله سبحانه: { فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى } صريح في أنَّ إمتثال النهي هو البقاء في الجنة ونيل السعادة التي تمتثل في قوله: { إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى } وأنّ أثر المخالفة هو الخروج من الجنة والتعرض للشقاء الذي يتمثل في الحياة التي فيها الجوع والعري والظمأ وحر الشمس، وذلك كلُّه يدل على أَنَّهُ سبحانه لم يتخذ لدى النهي موقف النّهي الواجب طاعته بل كان ينهى بصورة الإرشاد والنصح والهداية وأنّه لو خالف لتتب عليه الشقاء في الحياة والتعب فيها)(٢).

وممّا يعضد هذا الرأي الإمامي في تنزيه آدم عليه السلام وعصمته ما رواه الشيخ الصدوق رحمه الله في أماليه بإسناده إلى أبي الصلت الهروي قال: ((لما جمع

(١) مجمع البيان ٤: ٥٠٦.

(٢) جعفر السبحاني، مفاهيم القرآن، ٥: ٢٢، مؤسسة الشهيد العلمية، قم – إيران ١٤٠٧ هـ.ق.

المأمون علي بن موسى الرضا عليه السلام أهل المقالات من أهل الإسلام والديانات، واليهود والنصارى، والمجوس، وسائر أهل المقالات، قام إليه عليّ بن الجهم فقال: يا ابن رسول الله، أتقول بعصمة الأنبياء؟

قال عليه السلام: بلى.

قال: فما تقول في قول الله عزّ وجلّ { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } ؟ (طه/١٢١).

فقال الرضا عليه السلام: ويحك يا علي، أتقِ الله ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش، ولا تؤول كتاب الله برأيك، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } (آل عمران / ٧).

وأما قوله عزّ وجلّ { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } (طه/١٢١) فإنّ الله عزّ وجلّ، خلق آدم عليه السلام حجة في أرضه، وخليفة في بلاده، ولم يخلقه للجنة، وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض، لتتم مقادير أمر الله عزّ وجلّ، فلما أهبط الى الأرض جعله حجة وخليفة وعصمة الله بقوله: { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ }[١] (آل عمران / ٣٣ – ٣٤).

وبالتدبّر في هذه الرواية وما يوافقها في رواية القمي في عيون الأخبار نجد أنَّ آدم امتاز بالعصمة والطهارة وأنّه لم يكن مخالفاً لأمر مولوي بل كان في غاية الطاعة المطلقة وأنّه لم يستحق ذنباً ليعاقب عليه أو يؤاخذ على فعله (وإنّما كان من الصغائر الموجبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عيهم، فلما اجتباه

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ص ١٨٢ – ١٨٤.

الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة)[١].

هكذا أفاد أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام عصمة الأنبياء ونزاهتهم من هذه الرواية وغيرها من الروايات التي كشفت الفهم الخاطئ والشبهات إلوهية عن وجه حقيقة عصمة الأنبياء عليهم السلام.

الثاني: توجيه ما يتعلق بنبي الله نوح عليه السلام

(الآية) قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (هود / ٤٥ - ٤٦).

يذهب القائلون بالعصمة المطلقة إلى توجيه هذه الآيات المباركة التي يوهم ظاهرها أنّها واردة مورد العتاب إذ أنَّ صدور السؤال من النَّبي نوح عليه السلام غير لائق بساحة الأنبياء، وبناءً عليه خوطب عليه السلام بالعتاب والنّهي عن السؤال.

فالشريف المرتضى رحمه الله ينفي بدءاً ما نسب إلى النَّبي الذي يراد منه الإخلال بالعصمة المطلقة، في ظاهر قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (هود/٤٦) جواباً لقول نوح عليه السلام ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ (هود/٤٥) إذ إن (نفيه لأن يكون من أهله لم يتناول نفي النسب، وإنما نفى أنَّ يكون من أهله الذين وعده الله بنجاتهم لأنه عزّ وجلّ كان وعد نوحاً عليه السلام بأن ينجي أهله إلا ترى إلى قوله ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ

(١) القمي، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٧٤.

سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ} (هود/٤٠) فاستثنى تعالى من أهله من أراد أهلاكه بالغرق، ويدل عليه أيضاً قول نوح عليه السلام: {إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ} (هود/٤٥) وعلى هذا الوجه يتطابق الأمران ولا يتنافيان)[١].

ثم يقول بعد ذلك:

أما المراد من {لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} (هود/٤٦) فهو (أنّه ليس على دينك وأراد تعالى أنَّهُ كان كافراً مخالفاً لأبيه، فكان كفره أخرجه عن أنَّ يكون له أحكام أهله)[٢].

وأما عن قوله تعالى: {فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} (هود/٤٦) فهناك من يرى أنَّهُ ليس يمتنع أنَّ يكون نهياً عن سؤال ما ليس لهُ به علم وإن لم يقع فيه، وأن يكون هو عليه السلام تعوّذ من ذلك وإن لم يواقعه، ألا ترى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم قد نهي عن الشرك والكفر وإن لم يتما منه..)[٣].

أما طلب نوح المغفرة فيرى الطبرسي رحمه الله في قوله تعالى: {وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ} (هود/٤٦) أنّه (إنما قال ذلك على سبيل التخشع والاستكانة لله تعالى وإن لم يسبق منه ذنب)[٤].

وللمفسرين المعاصرين من هذه الآيات فهم لا يخرج عن الإطار العام لتأكيد العصمة المطلقة.

فالشيخ مُحَمَّد جواد مغنية يوجه الآية المباركة إلى منحى آخر يقدّر فيه

(١) أمالي المرتضى ١: ٤٧٤.

(٢)أمالي المرتضى ١: ٤٧٤.

(٣) تنزيه الأنبياء ٣٨ ظ: الشريف المرتضى، أمالي المرتضى ١: ٤٧٦، الرازي، عصمة الأنبياء ٢٧.

(٤) مجمع البيان ٥: ٢١٥.

أنَّ فعل النبي عليه السلام مبني على ظن مخالف للواقع فلا يمس بالعصمة إذ يقول (إنّ الظن المخالف للواقع لا يضرّ بالعصمة إذا كان مجرداً عن العمل لا يترتب عليه أي أثر في الخارج لأنّه لا يكون والحال هذه أشبه بالخيال يمر بالذهن ثم يزول، كأن لم يكن على فرض أنّ المعصوم أراد العمل بظنّه المخالف للواقع فإنّ الله سبحانه يكشف له عنه ويعصمه عن الواقع في الخطأ)[1].

ويوجه السيد الطباطبائي الآيات المباركات بما ينزّه معه نبيّه عليه السلام من كل ما يباعده عن العصمة فيرى أنَّ الرحمة الإلهية قد أدركته بالعصمة فيرى أنَّ نوحاً عليه السلام قد (أدركته العصمة الإلهية وقطعت عليه الكلام، وفسّر الله سبحانه له معنى قوله في الوعد: (وأهلك) أنَّ المراد به الأهل الصالحون وليس الابن الصالح، وقد قال تعالى من قبل ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ (هود/٣٧) وقد أخذ نوح عليه السلام بظاهر الأصل أنَّ المستثنى منه هو امرأته الكافرة فقط)[2].

ويلاحظ على صاحب التفسير الأمثل أنَّهُ يوجه الآيات المباركات توجيهاً آخر بما يستبطن القول بصدور ما يستدعي الاعتذار والاستغفار وإن كان لا يخالف العصمة، قال: (فأحسّ نوح أنَّ طلبه هذا من ساحة رحمة الله لم يكن صحيحاً ولا ينبغي أنَّ يتصور تجاه ولده ممّا وعد الله به نجاة أهله، لذلك توجه إلى الله معتذراً مستغفراً)[3].

---

(١) الكاشف ٤: ٢٤٥.

(٢) الميزان ٦: ٢٦٧.

(٣) ناصر مكارم الشيرازي ٦: ٣٣٩.

الثالث: توجيه ما يتعلق بنبي الله يونس عليه السلام

ولنبيّ الله يونس عليه السلام كما يرى المخالفون لعصمة الأنبياء جزء من الملامة والعتاب إذ أفادوا ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (الصافات/١٤٢) أي مما وقع عليه من اللوم والعتاب، إذ أنَّ هذا أورد الآية كاملة المعنى مما صرّحت به آيات الذكر الحكيم في سورة الصافات إذ أعلنت صراحة ذلك.

قال تعالى: ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (الصافات/١٤٢).

ولذا نجد أنَّ جمعاً من العلماء يذهبون إلى توجيه العتاب واللوم بحق نبينا يونس عليه السلام بأنَّهُ واقع لكنه عتاب على ترك الأولى، فقد عدَّ الشيخ الطوسي رحمه الله أنَّ (معناه أتى بما يلام عليه وأن كان مكفراً عند من قال بتجويز الصغائر على الأنبياء وعندنا قد يلام على ترك الذنب)[1].

وهذا مذهب الإمامية جميعه إذ إنهم يقولون بالعصمة المطلقة ولا يجوزون حتى الصغائر على الأنبياء وإنما إذا حصل من قبيل هذا فإنّه يحمل على ترك الأولى، ومن هنا تدرك أنَّهُ سبحانه لم يخاطب نبيه لذنب ارتكبه أو خطأ اقترفه وإنما يكون خطاب تشريف وعتاب لطيف لا عتاب عقاب، وهذا ما أكده الطبرسي رحمه الله بقوله (مستحق للوم – لوم العتاب لا لوم العقاب – على خروجه من بين قومه من غير أمر ربه)[2].

وإن كان السيد عبد الله شبر أكثر تحديداً إذ يرى أنَّهُ عوتب بترك الأولى

---

(١) التبيان ٨: ٥٢٩.

(٢) مجمع البيان ٨: ٥٢٩.

لذهابه بلا أذن من ربه[١].

وهذا ما تابعه عليه صاحب تفسير الأمثل الذي يرى أنَّ (من المسلّم أنَّ هـذه لملامة لم تكن بسبب ارتكابه ذنباً كبيراً أو صغيراً وإنما بـسبب تركـه العمـل بـالأولى واستعجاله في ترك قومه وهجرانهم)[٢].

الرابع: توجيه ما يتعلق بنبي الله سليمان عليه السلام

ومما ورد عن نبي الله سليمان عليه السلام آيات فسرها المخطئون لعصمة الأنبياء بأنها نزلت للومه عليه السلام وعتابه مما يخل ذلك بعصمته عليه السلام ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (ص/٣٤) وردت قصص عدة مفتريات لا تليق بساحة هذا النَّبي العظيم الكريم على الله سبحانه وتعالى وهي مما لا تجوز على الأنبياء عليهم السلام، ثم أنَّ النبوة ليست محصورة في خاتم تسلب من النَّبي عليه السلام بالنزع وغيره كما يظن بعضهم وأن من كرائم الله على أنبيائه أنَّ لا يتمثل الشيطان أو الجن في صدورهم إلى غير ذلك من الأمور.

ولذا من المناسب لمقام النَّبي عليه السلام أنَّ يقف الشريف المرتضى رحمه الله موجهاً لما يرد في هذه الآية ليدفع ما اشتبه من كونه فعل عليه السلام ما يقتضي عتاباً.

فيقول: (وأمّا قول بعضهم إنّما عوتب واستغفر لأجل أنَّ فريقين اختصما إليه، أحدهما من أهل جرادة، وهي امرأة له كان يحبّها، فأحب أنَّ يقع القضاء

(١) ظ: تفسير شبّر ٤٩٦ ،

(٢) ناصر الشيرازي ١٤: ٣٦٤.

لأهلها، فحكم بين الفريقين بالحق، وعوتب على محبّة موافقة الحكم لأهل امرأته، فليس هذا أيضاً بشيء لأن هذا المقدار الذي ذكروه ليس بشيء يقتضي عتاباً)[١].

ويخالفه صدر المتألهين ذلك فيرى حصول ما يستدعي الاستغفار فيقول: (بأنّ الافتنان الذي حصل لسليمان عليه السلام والذي كان نتيجته الاستغفار هو عمله بترك الأولى فلذا استغفر وتاب)[٢].

وأيد الشيخ مغنية رحمه الله هذا المنحى في توجيه الآية إذ يرى أنَّ الآية توحي بأن هناك شيئاً صدر من النَّبي عليه السلام استحق لأجله اللوم والعتاب الذي تاب على أثره، إلاّ أنَّهُ يحدّده بأنَّهُ لا يخرج عن نطاق ترك الأولى فلا يكون معصية وأنّ التوبة لذلك لا عن حصول المعصية فيقول: (ومهما يكن فقد تاب سليمان مما حدث منه كما تاب غيره من الأنبياء ثم يقول – وتجدر الإشارة إلى أنَّ الأنبياء عليهم السلام يتوبون لتركهم الأولى والأفضل لا لاقترافهم المعصية[٣].

الخامس: توجيه ما يتعلق بنبينا الأكرم مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم

لقد ذكر المخطئة لعصمة الأنبياء عليهم السلام بعض الآيات التي تدل بظاهرها على نفي العصمة المطلقة، وكان لنبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم المساحة الكبرى من هذه الآيات التي أرادوا من توجيههم لها تخطئته والطعن في عصمته صلى الله عليه وآله وسلم ونورد هنا نماذج منها مع محاولة توجيهها بالأدلة الدامغة:

---

(١) تنزيه الأنبياء ١٣٧.

(٢) تفسير القرآن الكريم ٣: ١٢١.

(٣) الكاشف ٦: ٣٧٩.

الآية الأولى

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التحريم / ١).

قالوا: إنّ عتاب الله لنبيّه ظاهر في هذه الآية، ولا يكون العتاب إلا عن ذنب كبير أو صغير وفي هذه تخطئة له صلى الله عليه وآله وسلم وعتاب وتوبيخ.

والظاهر أنَّ ليس هناك ما يشير إلى وجود ما يدعو لعتابه أو توبيخه صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ لا ذنب في البين ومعه فلا حاجة إلى العتاب، لأن تحريم الرجل نساءه لسبب أو لغيره أمر مباح ولا يقترن معه ذنب.

قال الشريف المرتضى رحمه الله موجهاً العتاب فيها بما نصه (ليس في الآية ما يقتضي عتاباً، وكيف يعاتبه الله على ما ليس بذنب، لأن تحريم الرجل بعض نسائه لسبب أو لغير سبب ليس بقبيح ولا داخل في جملة الذنوب، وأكثر ما فيه أَنَّهُ مباح)[1].

ثم يترقى أبعد من ذلك فيقول: (ولا يمتنع أنَّ يكون قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾ (التحريم/١) خرج مخرج التوجع من إذ يحمل المشقة من أجل إرضاء زوجاته)[2].

فعليه ليس هناك ما يقتضي أَنَّهُ عتاب ذنب، وإنّما هو عتاب تشريف جاء نتيجة حرص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مرضاة أزواجه.

ومتعلّق هذه الآية الواردة في سورة التحريم معروف عند المفسرين، الذين

---

(١) تنزيه الأنبياء ١٦٨، ظ: الشريف المرتضى، أمالي المرتضى ٢: ٢٣٢.

(٢) المصدر نفسه ١٦٨ ،

ذكروا أسباب نزولها، إذ رأوا أنّها تمثل موقف حفصة وعائشة زوجتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإفشاءهما سره، وتظاهرهما عليه من أجل تحريم مارية القبطية أو شرب العسل عند زوجته سودة بنت زمعه فقد أفشت حفصه سرّه وأخبرت به عائشة[1] وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (التحريم / ٣).

وبيَّن عزّ وجلّ لهما العقوبة على ذلك الصنيع في قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم / ٤).

ولذا أفاد الطبرسي رحمه الله (ت ٥٤٨ هـ) من هذه الآية وقوع الأذى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيرى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أنّ هناك تعاوناً عليه صلى الله عليه وآله وسلم بالإيذاء، ثم يستدل بعد ذلك برواية عن ابن عباس يسال بها عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال – أي عمر – عائشة وحفصة[2].

وفي عرضه للآية المباركة يرى في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ (التحريم/١) أنَّ هنا نداء تشريفاً له صلى الله عليه وآله وسلم وتعليماً لعباده كيف يخاطبونه في أثناء محاوراتهم ثم يستبعد أنَّ يكون هناك ذنبٌ يوجب العتاب[3].

ويؤيد هذا المعنى تصريح الفخر الرازي بذلك مع أنَّهُ لا يقول بالعصمة

(١) ظ: البيضاوي ٤: ٢٩٢، القشيري ٣: ٢٣٢، الصابوني، صفوة التفاسير ٣: ٣٨٣ – ٣٨٤.

(٢) مجمع البيان ١٠: ٤٠١.

(٣) المصدر نفسه ١٠: ٣٩٩.

المطلقة فيقول: (إنّ تحريم ما أحلّ الله له ليس بذنب بدليل الطلاق والعتاق، وأما العتاب فإنّ النهي عن فعل ذلك لابتغاء مرضات النساء أو ليكون زجراً لهن عن مطالبته مثل ذلك كما يقول القائل لغيره: لم قبلت أمر فلان واقتديت به وهو دونك وآثرت رضاه وهو عبدك فليس هذا عتاب ذنب وإنّما هو عتاب تشرف)[١].

وهذا التوجيه يستفيد ممّا صرح به الشريف المرتضى في كتابه تنزيه الأنبياء عليه السلام [٢].

الآية الثانية

قوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة/٤٣).

قيل في سبب نزول هذه الآية المباركة، إن بعض المنافقين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ترك الخروج إلى غزوة تبوك فأذن لهم وهو يعلم صلى الله عليه وآله وسلم أنّهم منافقون ولا حاجة بهم إلى الخروج مع المسلمين المؤمنين الاتقياء الذين فيهم الكافية عنهم، وقد أخبره الله عزّ وجلّ أنَّ الأولى أنَّ لا يأذن لهم حتى إذا لم يخرجوا ظهر نفاقهم وعرّفهم الناس لأنّهم قالوا: ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة / ٤٢).

ثم أنَّ المخطئة قالوا: إنّ الآية تدل على جواز صدور الذنب عن النَّبي لأنّ العفو إنّما يأتي بعد تحقق الذنب.

والظاهر أنَّ لسانها وارد بلطيف المعاتبة وإن كان العتاب على فعل جائز

(١) عصمة الأنبياء ١١٠.

(٢) تنزيه الأنبياء ص ١٦٨.

كالمراد من هذه الآية، وليس للعفو متعلق إلا التلطف في العتاب، لأنه يقول له: لو أذنت لهم في القعود لتبين لك الصادقون من الكاذبين يعني لتعرف من يقعد عن عذر وعن غير عذر وهو إرشاد له وليس ذنباً وإنّما قصاراه أنَّ يكون ترك الأولى.

وفي تفسير القمي (علي بن إبراهيم ت ٣٠٧ هـ) عن الإمام الباقر عليه السلام يقول: (لتعرف أهل العذر والذين جلسوا بغير عذر) وعن الإمام الرضا عليه السلام كما في عيون الأخبار في جواب ما سأله المأمون عن عصمة الأنبياء عليه السلام: (هذا مما نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة خاطب الله تعالى بذلك نبيّه وأراد أمته)[1].

والظاهر أنَّ هذا اللفظ كان شائعاً في الاستعمال من غير اعتبار ذنب أو تقصير وإنما هو من جميل التلطف بالخطاب، ولذا ينفي الشريف المرتضى رحمه الله أنَّ يكون هناك أي نوع من العتاب الموجه للنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يقول: (أمّا قوله تعالى: { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ } (التوبة/ ٤٣) فليس يقتضي وقوع معصية ولا غفران عقاب ولا يمتنع أنَّ يكون المقصود به التعظيم والملاطفة في المخاطبة – ثم يقول – أما قوله تعالى: { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } (التوبة/ ٤٣) فظاهره الاستفهام والمراد به التقريع واستخراج ذكر علة إذنه وليس بواجب حمل ذلك على العتاب، لأن أحدنا يقول لغيره، لِمَ فعلت كذا وكذا، تارة معاتباً وأخرى مستفهماً فليس هذه اللفظة خاصة للعتاب والإنكار، وإنّ أكثر ما يقتضيه وغاية ما يمكن أنَّ يدّعى فيها أنَّ تكون دالة على أنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم ترك الأولى)[2].

---

(١) ظ: تفسير القمي ١: ١٨٠، هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن ٤: ٤٦٧.

(٢) تنزيه الأنبياء ٦٠، ظ: أمالي المرتضى ٢: ٣٣٢.

ويشير الطبرسي رحمه الله إلى نكتة بلاغية مهمة في أسلوب التعبير القرآني إذ يرى أنَّ هذا من لطيف المعاتبة بدأ بالعفو قبل العتاب ويجوز العتاب من الله فيما غيره منه أولى ولاسيما الأنبياء عليهم السلام [1].

وللعلاّمة المجلسي رحمه الله في البحار توجيه آخر فيقول: (يجوز أنَّ يكون إذنه صلى الله عليه وآله وسلم لهم حسناً موافقاً لأمره تعالى ويكون العتاب متوجهاً إلى المستأذنين الذين علم الله من قبلهم النفاق، أو إلى جماعة حملوا النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (المائدة/١١٦) ولا تنافي بين كون إستيذاهم حراماً وإذنه صلى الله عليه وآله وسلم بحسب ما يظهرونه من الأعذار ظاهراً واجباً أو مباحاً أو ترك أولى)[2].

وهذا قد يكون له وجد لما امتاز به النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم من صفات فاقت الأنبياء والرسل جميعهم عليهم السلام، وباعتباره الخاتم وكما وصفهُ القرآن بأنَّهُ ذو خلق عظيم فكيف يجتمع العتاب مع من اصطفاه الله تعالى وميّزه واجتباه وطهرّه.

وأما السيد الطباطبائي رحمه الله فيرى أنَّ الآية (في مقام دعوى ظهور كذبهم ونفاقهم وأنّهُم مفتضحون بأدنى امتحان يمتحنون به ومن مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب إلى المخاطب وتوبيخه والإنكار عليه كأنّه هو الذي ستر عليهم فضائح أعمالهم وسوء سريرتهم، وهو نوع من العناية الكلامية يبين به ظهور الأمر ووضوحه، ولا يراد أزيد من ذلك فهو من أقسام البيان عن طريق إياك أعني

---

(١) ظ: الطبرسي، جوامع الجامع ٢: ٦٧ ظ: مجمع البيان ٥: ٤٦.

(٢) بحار الأنوار ١٧: ٤٧.

واسمعي يا جارة، خاطب الله عزّ وجلّ بها نبيّه وأراد به أمته)(١).

فتبيّن أنَّ محصل دلالة الآية لم يكن فيها أي نوع من الإخلال بشخصيّة الرسول وعصمته وإنّما كان ذلك تعظيماً لشأنه وتوقيراً لرسالته هذا على القول إنّ الكلام موجهاً له صلى الله عليه وآله وسلم وإلا فالكلام يكون لأولئك الذين تخلّفوا عن الجهاد فيكون فيه نوع من اللوم والعتاب والتقريع لطلبهم الاستئذان والإنصراف عن المسير معه.

الآية الثالثة

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال/٦٧).

قالوا: إنّ الآية تدل على عتاب الله لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وتلّومه على استبقاء الأسرى، وأخذ الجزية أو الفداء عوضاً عن قتلهم واعتبروا ذلك من أدلة خطأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد جاء في بعض روايات سبب النزول، أنَّهُ بعد انتهاء معركة بدر وأخذ الأسرى بعد أنَّ أمر النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ تضرب عنقا الأسيرين الخطرين (عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث) فخافت الأنصار أنَّ ينفذ هذا الحكم في سائر الأسرى فيحرموا من أخذ الفداء فقالوا: يا رسول الله أنا قتلنا سبعين رجلاً وأسرنا سبعين وكلهم من قبيلتك فهب لنا هؤلاء الأسرى نأخذ الفداء منهم، وكان النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم يرتقب نزول الوحي، فنزلت

(١) الميزان ٩: ٢٨٤.

هذه الآيات فأجازت أخذ الفداء في قبال إطلاق سراح الأسرى[(١)].

وعند التدبر في الآية ومنشأ النزول نجد أنَّ ظاهر الآية تقتضي توجيه القول والعتب إلى غير النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه بعيد جداً عمّا أراده الله تعالى بقوله: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ (الانفال/٦٧) وبعيد هذا القول عن خلقه العظيم وصفاته الحميدة وبعد هذا نزول الشكوك ونعلم أنَّ المعاتب ليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنّما العتاب متوجه إلى غيره كما هو عند الشريف المرتضى رحمه الله إذ ذهب إلى أنَّ العتاب في الحقيقة (متوجه إلى سواه صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ الله تعالى قد صرّح في ذلك قي تمام الآية بقوله: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (الانفال/٦٧) وقوله تعالى: ﴿ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال / ٦٨) والقصة في هذه مشهورة أيضاً وإنّما أضاف الأسرى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾ (الانفال/٦٧) وإن كان المراد بالخطاب من أُسر، لأنّهم أسروهم ليكونوا في يده صلى الله عليه وآله وسلم فهم في الحقيقة أُسراؤه ومضافون إليه وإن لم يأمر بأسرهم)[(٢)].

وأكد هذا التوجيه للآية الشريف المرتضى رحمه الله في تنزيه الأنبياء ما نصّه (ليس في ظاهر الآية ما يدل على أَنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم عوتب في شأن الأسرى بل لو قيل: إنّ الظاهر يقتضي توجه الآية إلى غيره لكان أولى)[(٣)].

والأولوية هنا ناشئة من إنكار الله عزّ وجلّ لهم هذا الأمر وبيّن أنَّ الذي

---

(١) ظ: تفسير علي بن إبراهيم، طبقاً لما جاء في نور الثقلين ٢: ١٢٦.

(٢) أمالي المرتضى ٢: ٣٣٢، ظ الطباطبائي، الميزان ٩: ١٣٦.

(٣) تنزيه الأنبياء ص ٥٨.

أراده الله ورسوله غير ما فعلوه فاستحقوا بذلك هذا اللوم والعتب القاسي.

وبعد أنَّ يعرض الطباطبائي رحمه الله اختلاف المفسرين فيمن نزل بحقّه العتاب، النبي، أو بحق المسلمين، قال: (والعتاب على ما يهدي اليه سياق الكلام في الآية الأولى، إنما هو على اخذهم الاسرى، كما يشهد به قولهم أيضاً في الآية الثانية (لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) أي في أخذكم، وإنما كانوا أخذوا عنه نزول الآيات الأسرى دون الفداء وليس العتاب على استباحة الفداء أو أخذه)[1] ثم أَنَّهُ رحمه الله يضرب دليلاً على أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يشاركهم في العتاب فيقول (إن العتاب في الآية متعلق بأخذ الأسرى وليس فيه ما يشعر بأَنَّهُ استشارهم فيه أو رضي به).

وبناءً على ذلك يظهر أنَّ العتاب ما كان متوجهاً له صلى الله عليه وآله وسلم وإنّما كان لغيره من المسلمين الذين استحقوا بذلك اللوم والتوبيخ الشديدين.

وهذا المعنى ما يؤكد توجيه حتى الذاهبين إلى نفي العصمة المطلقة كالفخر الرازي إذ ذكر مؤيداً القول بانتفاء عتاب الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بل توجه ذلك كله إلى أصحابه الذين قاموا بأخذ الفداء من الأسرى على الرغم من بُعد رغبة النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك، وقد علل ذلك في الشبهة الرابعة قال: (أما قوله تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ (الانفال/ ٦٧) فهو خطاب جمع، فيعرف ذلك إلى القوم الذين رغبوا في المال، وأما قوله تعالى: ﴿ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ (الانفال/ ٦٨) فمعناه لولا ما سبق من تحليل الغنائم لعذبتكم بسبب أخذكم الفداء، وهذا غاية التقريع في تخطئتهم في أخذ

(١) الميزان ٢: ١٣٤ – ١٣٥.

الفداء من جهة التدبّر، ثم أنَّهُ يشير إلى أنَّ المعاتب في شأن الأسرى هو غير النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل يجب أنَّ يكون سواه[١].

الآية الرابعة

قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾ (عبس /١-٢).

قيل: إنّها نزلت في عبد الله بن أم مكتوم، إنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأبي وأميّة بن خلف يدعوهم إلى الله ويرجوا إسلامهم فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله فجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنَّهُ مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان، والعبيد فأعرض عنه واقبل على القوم الذين يكلمهم فنزلت، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك يكرمه وإذا رآه قال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربيّ ويقول له ((هل لك من حاجة))، واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين[٢].

وهناك رأي آخر في شأن النزول، ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام من (أنها نزلت في رجل من بني أمية، كان عند النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم فجاء ابن أم مكتوم فلما رآه تعذّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك، وأنكره عليه[٣].

---

(١) ظ: عصمة الأنبياء ١٠٥ – ١٠٦.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان ١٠: ٥٥٧.

(٣) المصدر نفسه ١٠: ٥٥٧، ظ: هاشم البحراني، البرهان ١٠: ١٨١.

ومن خلال قراءة سبب النزول وخصوصاً الرأي الثاني يكون الخطاب غير دال على توجهها إلى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم بل يدل الخطاب فيها على أنَّهُ موجه إلى شخص آخر غيره صلى الله عليه وآله وسلم ولو تنزّلنا بأنّ الخطاب له مع ذلك نجد أنَّ صاحب السعادة يوجه الآية حتى مع احتمال أنها قصد منها النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يرى أَنَّهُ (لو كانت الآيات فيه صلى الله عليه وآله وسلم والعتاب له لم يكن فيه نقص لشانه ولم يكن منافياً لما قاله تعالى في حقّه من قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم/٤) فإن إقباله وإدباره وعبوسه واستبشاره كان لله، فإن عبوسه إنْ كان لمنع الأعمى من نشر دين الله، واستماع كلمات الأعداء لله وأعداء دينه وتقريبهم إلى دينه لم يكن فيه نقص وفي خلقه، وأما أمثال العتاب له صلى الله عليه وآله وسلم فإنها تدل على تفضيحه والإعتداد به فإنّها كلّما كانت باياك أعني واسمعي يا جارة فالخطاب والعتاب يكون لغيره لا له صلى الله عليه وآله وسلم).

فالخطاب لغيره صلى الله عليه وآله وسلم ولو كان له لكان الخطاب بلسان (عبست وتوليت) إذن فالآية (خبر محض لم يصرّح بالمخبر عنه، وفيها من يدل عند التأمل على أنَّ المعني بها غير النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه وصفه بالعبوس وليس هذا من صفات النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

والرواية التي وصفت النَّبي بأَنَّهُ يتصدّى للأغنياء، ومشيخة قريش وصناديدها ويلهى عن الفقراء، وهذا مناقض لصفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً وقوله تعالى: ﴿ أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ

---

(١) الشريف المرتضى: تنزيه الأنبياء ١٦٦.

أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ (عبس /٥ -٧) ففيه عتاب وتوبيخ أشد من قوله ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ (عبس/١) لأن الاستغناء من الغنى ووفرة المال، والمعنى: إنّ من كان غنياً تقبل عليه وتلاطفه وتحادثه وتترك الفقير وهذا كلّه إغراء بترك الحرص على إيمان قومه فلا يليق بمن بعث بالدعاء والتنبيه كما قال الفخر الرازي(١).

ويرى المجلسي رحمه الله في البحار أنَّ الآية جاءت بلسان العتاب على ترك الأولى.. (٢).

والذي يظهر مما سبق أنَّ منهج الإماميّة تنزيهي لساحة الأنبياء عليهم السلام عن كثير من المعاني والشبهات التي تسيء لهم عليهم السلام إساءات بالغة إذ إن مما ينسب لهم مخجل أنَّ يصدر عن مؤمن عادي فكيف بمن اصطفوا لهداية العباد وهذا منحى منهجي يعد من أهم الثوابت في مذهب الإماميّة.

المطلب الثاني: توجيه آيات العتاب على القول بالعصمة الجزئية

مدخل

ذهب المفسرون وعلماء الكلام من غير الإمامية إلى تجويز القدح والمس بعصمة الأنبياء عليهم السلام حتى أنّهم انتحلوا في ذلك مذاهب شتى بين الأخذ والرد إلى أنَّ وصل الأمر عندهم بارتكاب الأنبياء للصغائر وغيرها علناً ومن دون تحفظ وهذا ما سبقت الإشارة إليه سابقاً.

فإذا كان الأنبياء والرسل عليهم السلام يعملون بوحي من الله وهو سبحانه

---

(١) الفخر الرازي، عصمة الأنبياء ١٠٨.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ١٧: ٧٨.

المسدد لهم والمشرف على تربيتهم وهم صفوة عباد، كيف يمكن له سبحانه أنَّ يخطئ نبيّه أو رسوله بنفسه، ثم بعد كل ذلك يعتب عليه ويلومه على ما فعل؟

ولأنّ الله سبحانه وتعالى أراد فعلاً أنَّ يخطئه فإنّ من عدالته أنَّ لا يعتب عليه، لأنّ الله هو العدل في حكمه، ولا يمكن أنّ يفعل ما يناقض ذلك، وهو عزّ وجلّ لا يأمر بشيء ويعاقب على طاعته فيه.

وفي ما يأتي نورد لبعض الآيات من الذكر الحكيم تحمل في ظاهرها ما يفهم منه بعض المفسرين أَنَّهُ نوع من العتاب أمر اللوم لهم عليهم السلام:

الأول: توجيه ما يتعلق بنبي الله آدم عليه السلام

ذهب القائلون بالعصمة الجزئية للأنبياء عليهم السلام إلى تخطئة آدم عليه السلام وأنّه قال قسطاً من العتاب واللوم لما مرّ به من الاختبار من النهي عن الأكل من الشجرة، في العتاب كما يرون من دلالة قوله تعالى: ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (الأعراف / ٢٢).

إذ يرى الزمخشري أنَّ آدم عليه السلام قد نال اللوم والتوبيخ لأنّه لم يعبأ بكلام البارئ عزّ وجلّ واتبع إبليس ونسي تحذير الله له من عداوة إبليس فقال موجهاً ذلك بأَنَّهُ (عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ إذ لم يتحذر مما حذرهما الله من عداوة إبليس، وروي أَنَّهُ قال لآدم عليه السلام ألم يكن لك فيما منعتك من شجرة الجنة مندوحة عن هذه الجرة؟ فقال بلى وعزتك ولكن ما ظننت أنَّ أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً، قال: بعزتي لأهبطنّك إلى الأرض ثم لا تنال

العيش إلا نكدا)[١].

وللفخر الرازي توجيه آخر لهذه الآية المباركة إذ يرى أنَّ النّهي قد يكون للتحريم وقد يكون تنزيهاً غير ملام عليه، قال: (لا تسلم أنَّ النّهي للتحريم فقط، بل هو مشترك بين التحريم والتنزيه، وتفسيره أنَّ النهي يفيد أنّ جانب الترك راجح على جانب الفعل)[٢].

فيكون نهياً إرشادياً لا يعاقب على تركه فيكون من باب ترك الأولى، ثم أَنَّهُ – رأي الرازي – يفرض أَنَّهُ مع التسليم بأن النهي كان محرماً لكن آدم فعل ناسياً لقوله تعالى: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (طه/١١٥) وحينئذٍ لم يكن ذنباً لأنّ التكليف مرتفع عن الناسي، ثم يوجه الآية حتى مع احتمال نفي النسيان، فحتى مع أَنَّهُ لقائل أنَّ يقول: إنّ آدم لم يكن ناسياً، بدليل هذه الآية ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ ﴾ (الأعراف/٢٠) إذ إنه عوتب على ذلك وإنّه لو كان ناسياً لما عوتب على الفعل، فحيث عوتب دلّ على أَنَّهُ ما كان ناسياً، ثم يجيب الرازي على هذا الاحتمال – بانا نسلّم أَنَّهُ لم يكن ناسياً ولكنه أخطأ في الاجتهاد، وذلك لأنّ كلمة (هذه) في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (الأعراف/١٩) قد يراد بها الإشارة إلى الشخص، وقد يراد بها الإشارة إلى النوع كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلاّ به) فآدم عليه الصلاة والسلام اشتبه الأمر عليه فظن أنَّ المراد هو الشخص فعدل عنه إلى شخص آخر، إلاّ أنَّ المجتهد إذا

---

(١) الكشاف ٢: ٩٩.

(٢) عصمة الأنبياء ١٩.

اخطأ في الفروع لم يكن صاحب كبيرة[١].

إلاّ أنَّ البيضاوي يحدد دلالة الآية بأنّ النّهي هنا للتحريم استحق على أثره آدم عليه السلام التوبيخ واللوم لأنّه ركن إلى قول إبليس وترك قول ربّه. فيرى الآية: (عتاب على مخالفة المنهي عنه وتوبيخ على الاغترار بقول العدو وفيه دليل على أنَّ مطلق النّهي للتحريم)[٢].

ويبدو لنا أنَّ البيضاوي قد أفرط فيما ذهب إليه في حدود عصمة آدم عليه السلام الذي اختاره تعالى واصطفاه لنفسه، وهل يعقل أنَّ آدم عليه السلام وهو بهذه المنزلة أنَّ يكون بسيطاً لدرجة أنَّهُ يغترّ بإبليس ويرتكب ذنباً يعاتب على فعله ويلام على إتيانه وهو النَّبي المعصوم الذي أمضى الله له ذلك بسجود الملائكة لله ولا يكاد ولا يختلف مُحَمَّد رشيد رضا عن سابقيه في الاشتراك في تحميل آدم عليه السلام تبعات اللوم والعتاب والتوبيخ، فيصرح بوقوع ما يوجب العتاب من آدم عليه السلام، لانّ الاستفهام في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا ﴾ (الأعراف/٢٢) للعتاب والتوبيخ، أي وقال لهما ربهما الذي يربيهما في طور المخالفة، كما يربيهما في حال الطاعة والإذعان، ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾[٣] (الأعراف/٢٢) الآية.

الثاني: توجيه ما يتعلق بنبي الله يونس عليه السلام

ولم يترك المخطئون للأنبياء عليهم السلام نبيّ الله يونس عليه السلام بل

---

(١) عصمة الأنبياء ١٩ – ٢٠.

(٢) تفسير البيضاوي ٢: ٧٣.

(٣) تفسير المنار ٨: ٣٥٠.

وقفوا عنده مطلقين أقلامهم بغْية ارتكاب خطأ استحق على أثره لوم البارئ وعتابه وهذا ما فهموه من قوله تعالى: **{ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ }** (الصافات/١٤٢).

إذ تعاملوا مع هذه الآية بأنّها تدل على مخالفة يونس لربه وخروجه عن عصمته، وذلك عندما ترك قومه وخرج مغاضباً من دون إذن من ربه فلامه الله على ذلك...

فالطبري يرى أنَّ يونس عليه السلام استحق اللوم وهذا الاستنتاج إثر تفسير الطبري لمفردة اللوم، باعتبار أنّ النَّبي عليه السلام اقترف ما يلام عليه، قال: **{ وَهُوَ مُلِيمٌ }** مكتسب للوم، يقال ألام الرجل إذا أتى بما يلام عليه من الأمر وأن لم يُلم كما يقال: أصبحت محمقاً معطشاً أي عندك الحمق والعطش، ثم يستشهد بعد ذلك بقول لبيد:

سفهاً عذلت ولمت غير مليم وهداك قبل اليوم غير حكيم

فأمّا اللوم فهو الذي يلام باللسان ويعذل بالقول[1].

ويقترب الزمخشري من الطبري في تحديد معنى اللوم ليستفيد منه أنَّ يونس عليه السلام (أخل في الملامة، يقال ربّ لائم لئيم، أي يلوم غيره، وهو أحق منه باللوم)[2].

فالظاهر أنّهما يريان أنَّ النَّبي يونس عليه السلام مستحق لذلك اللوم

(١) ظ: ديوان لبيد بن ربيعة تحقيق د. احسان عباس، دار صادر بيروت، ظ تاج العروس، الزبيدي ج١٧، ص ٦٦٢.
(٢) الكشاف ٤: ٦٣.

والعتاب لأنّه اقترف ما يوجب ذلك فأصبح عمله معيباً، وهذا ما يؤيده القرطبي إذ وجه الآية بقوله: (أتى بما يلام عليه، فأما الملوم فهو الذي يلام، استحق ذلك أو لم يستحق ثم يقول – وقيل المليم المعيب، يقال: لام الرجل، إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل)[١].

وهذا لا يليق بساحة الأنبياء المعصومين المطهّرين عليهم السلام فلا يتطرق إليهم العيب والنقص كي يعاتبوا ويلاموا وخير ما عبر عنه في ذلك هو السيد المرتضى رحمه الله الذي قال (أما أنّ يونس عليه السلام خرج مغاضباً لربّه من إذ لم ينزل بقومه العذاب فقد خرج في الافتراء على الأنبياء عليهم السلام وسوء الظن بهم عن الحد وليس يجوز أنَّ يغاضب ربّه إلاّ من كان معادياً له وجاهلاً بأن الحكمة في سائر أفعاله)[٢].

الثالث: توجيه ما يتعلق بنبي الله موسى عليه السلام

وفيما يتعلق بنبي الله موسى عليه السلام من نسبة الخطأ إليه من بعض المفسرين والرواة يرون أَنَّهُ قد عوتب عندما قام خطيباً في بني إسرائيل وذلك عندما سُئل عن أعلم الناس، فنسب العلم إلى نفسه ولم ينسبه إلى الله[٣] فعتب عليه، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾ (الكهف/٦٠) ومن هنا انطلق المخطئون متحاملين على نبي الله الكليم موسى لمحاولة الخدش في عصمته أثر عتاب البارئ له..

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨: ٨١، ظ: البيضاوي ٥: ٢٧.

(٢) تنزيه الأنبياء ص ١٤١.

(٣) الطبرسي: مجمع البيان ٦: ٦٢١، ظ: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٧٨.

وهذا المعنى ما استقرّ عليه رأي الزمخشري إذ يرى أنَّ العتاب كان صريحاً في حقّه عليه السلام فقال: (روي أنَّهُ لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقروا بها أمره الله أنَّ يذكر قومه النعمة، فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله وقال: إنَّ الله اصطفى نبيكم وكلمه فقالوا له قد علمنا هذا فأي الناس أعلم؟ قال: أنا: فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله، فأوحى الله، بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين وهو الخضر)[1].

ويؤيد القرطبي في الجامع لأحكام القرآن هذا الاتجاه في فهم تلك الروايات إذ إنّه جعل سبب إلتقاء موسى بالخضر عليه السلام هو بسبب عتاب الله له على ما قاله في نفسه عليه السلام من أنَّهُ الأعلم فأراد الله أنَّ يعطيه درساً عملياً في ذلك[2].

الرابع: توجيه ما يتعلق بنبينا الأكرم مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم

ذكر المفسرون باختلاف مذاهبهم – عدا الإمامية – عدداً من الآيات التي دوّنوها في تفاسيرهم وكتبهم الكلامية بأنّها وردت بلسان العتاب واللوم تجاه النَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وقد تنوع الخطاب فيها بين الشدة والضعف.

فمن هذه الآيات التي وردت في هذا المضمار:

الآية الأولى

قوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٤٣).

---

(١) الكشاف ٢: ٦٨٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٧٨،ظ: تفسير أبي السعود ٥، ٣٢٢، الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل ٣: ١٧٠.

وللآيات المباركات سبب نزول، إذ إنّ جماعة من المنافقين جاؤوا إلى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعد أنَّ تذرعوا بحجج واهية مختلفة طالبين من النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ ينصرفوا عن المشاركة في معركة تبوك، فإذن لهم النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم بالانصراف(١).

فعتب الله تعالى على النَّبي كما في الآية محل البحث وللمفسرين مذاهب في فهم معنى العتاب المشفوع بالعفو، أهو دليل على أنَّ إذن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مخالفة أم هو من باب ترك الأولى، أم غيره.

فما نلاحظه من توجيه تفسير القشيري (ت ٤٦٥) لهذه الآية المباركة أنَّهُ لم يكن صلى الله عليه وآله وسلم قد خالف حداً وإنّما كان من باب ترك الأولى قال: (لم يكن منه صلى الله عليه وآله وسلم خرق حدٍّ أو تعاطي محظور، إنّما ندر منه ترك ما هو أولى، قدّم الله ذكر العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب بقوله ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (التوبة/٤٣) أو في جواز الزلة على الأنبياء عليه السلام إذا لم يكن ذلك في تبليغ أمر أو تمهيد شرع...)(٢).

ويستند البغوي (ت ٥١٤) في توجيه الآيات المباركات إلى ما ينقله عمر بن ميمون من أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعل ما أوجب عتابه، إذنه للمنافقين وأخذه الفدية من أسارى بدر، ويروي كذلك عن سفيان بن عيينه كيف أنَّ الله تلطف بنبيه إذ ذكر العفو قبل أنَّ يعيّره بالذنب الذي استجلب العتاب، وبعد هذا يردف القول بما وقرّ الله به نبيّه ورفع محلّه بافتتاح الدعاء له كما يقال:

---

(١) ظ: ابن كثير، مختصر ابن كثير ٢: ١٤٩، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، المحلّى ١١: ٣١١، دار الآفاق الجديدة، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي.

(٢) أبو القاسم عبد الكريم القشيري ١: ٢٤٢.

(عفا الله عنك ما صنعت بحاجتي)[1] وهذا كأنما جاري في المخاطبة.

وقد أفرط بعضهم في تجاوزه على مقام النَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى درجة الإساءة بزعم أنَّ الآيات دليل على أمكان صدور المعصية منه، وهذا ما نلاحظه عند الزمخشري الذي أفرط في الإساءة إليه صلى الله عليه وآله وسلم مما دعا صاحب الحاشية (أحمد بن المنير الاسكندري (ت ٦٨٣ هـ) إلى ردّه وتوجيه كلامه.

إذ قال الزمخشري (({ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ } (التوبة/٤٣) كناية عن الجناية، لأنّ العفو رادف لها، ومعناه أخطأت وبأس ما فعلت. و { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } (التوبة/٤٣) بيان لما كني عنه بالعفو، ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالأذن { حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ } (التوبة/٤٣) من صدق في عذره ممن كذب فيه.

وقيل شيئان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه من الأسارى فعاتبه الله تعالى))[2].

وهذا ما دفع صاحب الحاشية على الكشاف أنَّ يحتج على الزمخشري إذ قال: (ليس له أنَّ يفسّر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد أمرين: إما أنَّ لا يكون هو المراد وإمّا أنَّ يكون هو المراد ولكن أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، وخصوصاً في حقّ المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالزمخشري على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقّه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) معالم التنزيل ٢٠: ٢٥١.

(٢) الزمخشري ٢: ٢٦١ – ٢٦٢.

ولقد أحسن من قال في هذه الآية: إن من لطف الله تعالى بنبيّه أنَّ بدأ بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداءً: لِمَ أذنت لهم؟ لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام مثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام)[1].

وكل هذا في الواقع قليل بحق المصطفى الذي جعله الله مثلاً في الخلق العظيم إذ قال تعالى مخاطباً لنبيّه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم/٤).

وبعد أنَّ يورد السمر قندي سبب النزول من استئذان المنافقين بالتخلف وأذن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهم، يرى أنَّ الخطاب في قوله تعالى ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ (التوبة/٤٣) للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ويذكر بعد ذلك ما يرويه عن بن عبد الله من أنَّ الله أخبره بالعفو قبل أنَّ يخبره بالذنب، ثم يصرح على مسألة العتاب فيرى أنَّ منشأهُ فعلان فعلهما رسول الله، الفداءه من أسارى بدر وإذنه للمنافقين بالتخلّف[2].

ويوجه القرطبي الآية المباركة فيراها (افتتاح كلام كما تقول أصلحك الله وأعزك ورحمك كان كذا وكذا وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قول ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ (التوبة/٤٣) حكاه مكي المهدوي والنحاس وأخبره العفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقاً، وقيل المعنى ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ ما كان من ذنبك في أنَّ أذنت لهم فلا يحسن الوقف على قوله ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ على هذا التقدير، حكاه المهداوي واختاره النحاس، ثم قيل في الإذن قولان، الأول لِمَ أذنت لهم في

---

(١) المصدر نفسه حاشية ٢: ٢٦١.

(٢) ظ: نصر الدين محمد بن أحمد أبو الليث السمر قندي، من أعلام القرن الرابع الهجري، بحر الغرائب ٢: ٦٢، تح. د. محمود مطربي ط ١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

الخروج معك وفي خروجهم وخروجهم بلا عدّة ونيّة صادقة، الثاني لِمَ أذنت لهم في القعود لّما اعتلوا بأعذار ذكرهما القشيري. قال وهذا عتاب تلطّف إذا قال عفا الله عنك وكان عليه السلام أذِن من غير وصي نزل فيه، فقال قتاده وعمر بن ميمون ثنتان فعلهما النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يؤمر بهما...)[1].

ويكاد لا يبتعد ابن كثير عن أقرانه في أنَّ الآيات نزلت عتاباً له صلى الله عليه وآله وسلم بعد ان يروي من استحسن المعاتبة، بما ينتهي سنده إلى عون إذ قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة فقال: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة/٤٣) ثم يقول وقال قتادة عاتبه كما تسمعون[2].

وللبيضاوي نصيب من توجيه العتاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ يرى أنَّ الآيات فيها نوع استفهام من النَّبي لو أنَّهُ توقف حتى يرى أمر الله لدرء ما قد يلام عليه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فيرى أنَّ النَّبي قد أخطأ قال: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ كناية عن خطئه في الإذن فإن العفو من روادفه ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ بيان لما كني عنه بالعفو ومعاتبته عليه، والمعنى لأي شيء أذنت لهم في القعود حتى استأذنوك واعتلوا بأكاذيب وهلا توقفت حتى يتبين، يؤمر بها أخذه للفداء وإذنه للمنافقين فعاتبه الله عليها)[3].

ونرى أنَّهُ لا دليل في الآية على صدور أي ذنب أو معصية من النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وحتى ظاهر الآية لا يدل على ذلك لأنّ القرائن جميعها تثبت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٢٩ – ١٣٠.

(٢) ظ: تفسير القرآن العظيم ٢: ٣٧٤.

(٣) تفسير البيضاوي ٣: ١٤٨.

أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم سواء أذن لهم أم لم يأذن، فإنّهم لا يجدون نفعاً في الجهاد وقد اثبت القرآن ذلك قال تعالى: { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً } (التوبة /٤٧) ومعه لم يقعد المسلمون أي مصلحة في إذن النَّبي لهم بالانصراف.

وكيف يفعل النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يؤمر به والقرآن يصرّح بأنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم { وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى } (النجم/ ٣-٤) فما هذا إلاّ تجني على النَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي يزن لكل عمل وزنه لأنّه مسدد بالوحي وبروح القدس.

الآية الثانية

قوله تعالى: { عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى } (عبس /١-٢).

سبق أنَّ بيّنا أنَّ جمعاً من المفسرين تأثر بالسبب المروي لنزول هذه الآية واعتقدوا خطأً أنّها نزلت عتاباً لرسول الله وذلك عندما أقبل عليه ابن أم مكتوم وأعرض النَّبي عنه وأقبل إلى غيره.. فكان كلمّا رآه رسول الله يكرمه ويقول: مرحباً بمن عاتبني به ربّي[1].

فالفخر الرازي بعد أنَّ يرى أنَّ القوم تمسكوا بأنّ عتاب الله لنبيه إثر إعراضه عن ابن أم مكتوم، فهو لا يسلم بأنّ الخطاب متوجه إلى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم فعندها يرى الرواية معارضة بأمور[2].

---

(١) ظ: الزمخشري، الكشاف ٤: ٧٠١، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، البيضاوي ٤: ٣٨٢، تفسير ابن كثير ٤: ٤٧١، تفسير ابن السعود ٩: ١٠٧، زبدة التفاسير ٧: ٣٣٢، صفوة التفاسير ٧: ٣٣٤.

(٢) عصمة الأنبياء ١٠٨.

الأول: أَنَّهُ وصفه بالعبوس وليس هذا في صفات النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في قرآن ولا خبر مع الأعداء والمعاندين فضلاً عن المؤمنين والمسترشدين.

الثاني: وصفه بأَنَّهُ تعدى للأغنياء وتلهى عن الفقراء وذلك غير لائق بأخلاقه.

الثالث: أَنَّهُ لا يجوز أنَّ يقال للنّبي ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ (عبس/٧).

فإن هذا الإغراء يترك الحرص على إيمان قومه فلا يليق بمن بعث بالدعاء والتنبه[١].

وعندما نطالع الجزائري نجده يرى أنَّ الآية فيها عتاب صريح ولطيف يعاتب الله سبحانه وتعالى به رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم [٢].

ولا يخفى على ذي لب أنَّ العبوس والتصدّي للأغنياء من دون الفقراء والتلّهي عمن جاء مسلماً لفقره أو عماه، وقوله تعالى ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ (عبس / ٧) كل ذلك يتعارض مع خلق رسول الله وصفاته صلى الله عليه وآله وسلم.

وهو مردود لأنه يعتمد روايات ضعيفة في أسباب النزول فضلاً عن أَنَّهُ مخالف للكتاب في نصّه بوصف النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّهُ على خُلُقٍ عظيم فكيف يستقيم هذا المعنى مع النص.

وبالتدبّر في الروايات واستحضار روايات أخرى صحيحة ترفع المعنى نجد أنَّ التفاسير أجمعت على أنَّ الأعمى هو ابن أمّ مكتوم لكنّها اختلفت فيمن خوطب بالسورة ووصفه الله بتلك الصفات فقال بعضهم: هو النَّبي صلى الله عليه وآله

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ظ: أيسر التفاسير ٥: ٥١٧.

وسلم وقال آخرون: هو رجل من بني أمية كان عند النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم فجاءه ابن أمّ مكتوم فلما رآه تعذّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه فحكى الله قصته[1].

وعليه فالخطاب غير دال على توّجهها إلى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم بل يدل الخطاب على توجهها لشخص آخر غير النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ولو كان الخطاب له صلى الله عليه وآله وسلم لقال: عبست وتولّيت، هذا على أنّها مناقضة لما أنماز به النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم من صفات شهد له بها القرآن الكريم.

الآية الثالثة

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التحريم / ١).

هذه من بعض الآيات التي تمسّك به الذاهبون إلى القول بالعصمة الجزئيّة، بأنها ظاهرة في عتاب الله لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، ووجه العتاب فيها ناشئ من أنَّهُ لا يكمن إلاّ عن ذنب كبيراً كان أو صغيراً، وفي هذا تخطئة له صلى الله عليه وآله وسلم وعتاب وتوبيخ، هكذا وجهوا الآية المباركة يدفعها للدلالة على غير ما أريد بها.

وقضية هذه الآية الكريمة الواردة في سورة التحريم متناولة عند أغلب المفسرين، إذ يذكرون أسباب نزولها، فيقولون: إنّها تتمثل في موقف عائشة وحفصة زوجتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإفشائهما سرّه صلى الله

---

(١) ظ: الميزان ٢٠ / ٢٠٤.

عليه وآله وسلم، وتظاهرهما عليه، من أجل تحريم مارية القبطية على نفسه صلى الله عليه وآله وسلم أو تحريمه شرب العسل عند إحدى زوجاته، فقد أفشت حفصه سرّه وأخبرت به عائشة، الأمر الذي دعا إلى نزول قوله تعالى: **{ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} (التحريم/٣)**[١].

وعندما ينطلق القشيري (ت ٤٦٥ هـ) من سبب النزول، يرى أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم قد عوتب لذلك، فيقول: (جاء في القصة أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم حرّم على نفسه مارية القبطيّة وفي الحال حلف أنَّ لا يطأها شهراً مراعاة لقلب حفصة إذ رأت النَّبي معها في يومها، وقيل حرّم على نفسه العسل لّما قالت له زوجاته إنّا نجد منك ريح المغافير، والمغافير صمغ في البادية كريه الرائحة، ويقال بقلة كريهة الرائحة، فعاتبه الله على ذلك)[٢].

وللفخر الرازي توجيه ينحى به منحى آخر كأنه يميل معه إلى رواية تحريم النَّبي مارية القبطية على نفسه، ولذا يبرر ذلك بأنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم لم يرتكب ذنباً يستحق العتاب الصريح، فقال: (إن تحريم ما أحل الله له ليس بذنب بدليل الطلاق والعتاق، وأمّا العتاب فإنّ النّهي عن فعل ذلك لابتغاء مرضات النساء، أو ليكون زجراً لهن عن مطالبته مثل ذلك كما يقول القائل لغيره: لِمَ قبلت أمر فلان واقتديت به وهو دونك وأثرت رضاه وهو عبدك، فليس هذا

---

(١) ظ: البخاري، صحيح البخاري ص ٨٩٩، عبد الله بن قدامه (ت ٦٢٠ هـ)، المغني ١١: ٢٠٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٢) تفسير القشيري ٣: ٣٢٢.

عتاب ذنب وإنما هو عتاب تشريف[١].

ويبدو أنَّ هذا التوجه أعدل من غيره إذ إنه قرن للعتاب مساحة أخرى غير مساحة الخطاب الشديد الذي أحتمله بعضهم من المفسرين.

والذي يبدو أنَّ رواية تحريم مارية غير ناهضة قبال الآية المباركة باعتبار أنَّ لمارية بيتها وليلتها وليس من أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي يمثل العدالة الإنسانية، أنَّ لا يراعي ذلك، ولا يبقى إلا أنَّ يكون أنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم حرم العسل على نفسه للمؤامرة غير الشرعية المتمثلة بالكذب لما قلن له صلى الله عليه وآله وسلم نجدُ فيك ريح المغافير.

وهذا المعنى من المؤامرة والتظاهر عليه صلى الله عليه وآله وسلم ما وجه به القرطبي الآية فقال: (ثبت في صحيح مسلم عن عائشة – رضي الله عنها – أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً، قالت: فتواطأت أنا وحفصة إن أيّتنا ما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلتقل: إني أجد منك ريح المغافير، أكلت المغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال: ((بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له)). فنزل: { لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ }[٢] (التحريم/١).

ولذا انطلق من هذه الرواية في إفادة العتاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من خلال قوله تعالى: { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (التحريم/١) يقول (لما أوجب المعاتبة

---

(١) الرازي، عصمة الأنبياء: ١١١ – ١١٢.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٩: ١١٥.

رحيم برفع المؤاخذة – ثم يقول – وقيل: إن ذلك كان ذنباً من الصغائر، والصحيح أَنَّهُ معاتبه على ترك الأولى وإنْ لم تكن له صغيرة ولا كبيرة)[١].

وعلى فرض كلا السببين للنزول، من تحريم مارية على نفسه أو شرب العسل فيرى في التسهيل أنّها نزلت عتاباً على أنَّ يضيّق على نفسه بتحريم الجارية أو تحريم العسل – وإمّا قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التحريم/١) فيراه إشارة إلى أنَّ الله غفر له ما عاتبه عليه من التحريم على أنَّ عتابه في ذلك إنّما كان كرامة له وإنّما وقع العتاب على تضييقه عليه السلام على نفسه وامتناعه مما كان فيه أدب[٢].

ويبدو للبيضاوي أنَّ رواية تحريم مارية هي الراجحة عنده إذ أَنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم عوتب لأجل ذلك[٣].

ويكاد لا يختلف الصابوني عمّن سبقه إلا يسيراً في توجيه العتاب الوارد في الآية فقال: (وفي افتتاح العتاب من حين التلطّف ما لا يخفى فقد عاتبه على إتعاب نفسه والتضييق عليها من أجل مرضات أزواجه، أما قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التحريم/١) – فيرى أَنَّهُ عقبى – والله واسع المغفرة عظيم الرحمة إذ سامحك في امتناعك عن مارية، وإنما عاتبك رحمة بك وفي هذا إشارة إلى أنَّ عتابه في ذلك إنما كان كرامة له وإنما وقع العتاب لتضييقه على نفسه)[٤].

ويبدو لنا أنّ الخطاب في الآية المباركة، ليس خطاب تقريع ولوم وعتاب كما تخيلّه بعض المفسرين وإنّما هو نغمة تشريف وتلطف بسبب تحملّه العناء والمشقة

---

(١) المصدر نفسه ٩: ١١٩.

(٢) ظ: أبو القاسم محمد الكلبي (ت ٧٤١ هـ) التسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤٦٢.

(٣) ظ: تفسير البيضاوي ٤: ٢٩٢.

(٤) ظ: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير ٣: ٣٨٣ – ٣٨٤.

من أجل أرضاء زوجاته، إذ مرّ فيما سبق عتاب الله لهنّ، لقيامهن بإفشاء سرّه صلى الله عليه وآله وسلم والتظاهر عليه، الأمر الذي دعاهنّ للتوبة مما اقترفن.

الآية الرابعة

قوله تعالى: { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } (الأحزاب / ٣٧).

ذهب المجوزّون لصدور الذنب عن الأنبياء إلى توجيه الله له، حتى لقد روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت: ما نزلت آية أشد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الآية، ولو كتم شيئاً لما أوحي إليه من كتاب الله تعالى، لكتم هذه الآية[١].

ويفهم منها قناعة عائشة بخطأ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وندمه على ذلك وفي القصة إشارة إلى أكاذيب ما يروى من أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى زينب بنت جحش بعدما زوّجها ربيبه زيداً فهويها النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ولّما حضر زيد لطلاقها، أخفى رسول الله ما في نفسه من عزمه على نكاحها بعده، لهواه لها، فعاتبه ربُّه على ذلك[٢] وممّا قالوا: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبصرها بعدما أنكحها إياهُ – أي زيد – فوقعت في نفسه[٣].

يذهب الزمخشري إلى تأويل الآية بما يثبت العتاب لكنه ينقله إلى التوجه لغير

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٤٩١.

(٢) ظ: الفخر الرازي، عصمة الأنبياء ١٠٠، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٢٥.

(٣) الزمخشري، الكشاف ٣: ٥٤٩.

ما قد فهم خطأ إذ يقول: (فإنْ قلت... كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح به ولا يستهجن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم التصريح بشيء إلا الشيء في نفسه مستهجن، وقال له الناس لا تتعلّق إلا بما يستقبح في العقول والعادات؟ وما له لم يعاتبه في الأمر نفسه ولم يأمره بفهم الشهوة وكف النفس عن أنَّ تنازع إلى زينب وتتبعها ولم يعصم نبيّه عن تعلّق الهجنة به وما يعرضه للقالة؟ قلت: كم من شيء يتحفّظ منه الإنسان ويستحي من إطلاع الناس عليه، وهو في نفسه مباح متسع، وحلال مطلق، لا مقال فيه ولا عيب عند الله...)[1].

ونحى القرطبي المنحى نفسه من توجيه العتاب في الآية بقوله: ((وخشي رسول الله أنَّ يلحق قول من الناس في أنَّ يتزوّج زينب بعد زيد وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله على هذا من أنَّ قد خشي الناس في شيء قد أباحه الله له)[2].

وأما الفخر الرازي فقد وجّه الآية مجيباً عمّن تمسّك بأنّها واردة في عتاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بأربعة وجوه نقف عند موضع الحاجة إليها:

أحدها: (الذي يدل على أَنَّهُ لم يصدر من الرسول في هذه الواقعة مذمة، ولا عاتبه الله على شيء منه، ولا ذكر أَنَّهُ عصى أو أخطأ ولا ذكر استغفار النَّبي منه، ولا أَنَّهُ اعترف على نفسه مخطئاً)[3].

والفخر الرازي وإنْ كان لا يقول بالعصمة المطلقة لنبينا الأكرم صلى الله

---

(١) الكشاف ٣: ٥٥٠ - ٥٥١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٢٥.

(٣) عصمة الأنبياء ١٠٠.

عليه وآله وسلم ولكنّه يجب في مثل هذه الحادثة أنَّ النَّبي الأكرم بعيد عما دوّنته أقلامهم المزيفة بالطعن والافتراء، بل يرى (أَنَّهُ لو حصل في ذلك سوء لكان قدحاً في الله تعالى)[١].

وحقيقة ما تدل عليه هذه الآيات ونصتّها أنَّ الله تعالى أراد أنَّ ينسخ عادة جاهلية متمكنة من نفوس الناس وهي تحريم زوجة المتبنّى، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ يتزوج منها بعد قِران زيد لها وكمال عدهّا، كأي إمرأة من المسلمين، لكون ذلك ناسخاً لجاهلية كامنة في النفوس.

---

(١) المصدر نفسه ١٠١.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة في آفاق (آيات العتاب) ودلالاتها وإشباعها بحثاً ودراسةً من حيثيات وزوايا متعددة ومحاولة استقصاء عناصره ومفهوماته وأشكاله ودلالاته في اللغة وورده في آيات الذكر الحكيم أهم النتائج التي تمخضت عنها الدراسة إذ تبلورت في الآتي:

(١) إنّ العتاب في اللغة العربية يرجع إلى أصول متعددة من إذ البناء اللفظي ويرد بصيغ متعددة في المفردات التي نالت عناية الباحثين القدماء وحضيت باهتمامهم الملحوظ.

(٢) إنَّ معاني العتاب وردت في القرآن الكريم بصيغها اللغوية الصريحة في مواطن عدة في سور من القرآن الكريم كما وردت بمفرداتها دلت على معاني تشير إلى (العتاب) في سياق الآيات القرآنية التي وردت فيها اللفظة أو المرادفة لها.

(٣) إنَّ العتاب أخذ موقعه كذلك في القصص القرآني والحديث الشريف إذ جاء ذلك على لسان النَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك على لسان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام في نهج البلاغة وفي ما ورد من روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وبصيغ متعددة.

(٤) أنَّ هناك بعض الآيات التي اتخذت ذريعة لمخطئة الأنبياء عليهم السلام إذ فسروها بأنها جاءت في مورد العتاب واللوم والتقريع لهم وهذا ممّا يؤدي إلى الطعن بعصمتهم وقد أثبتت الدراسة خلاف ذلك من خلال تبيان الآراء وتحليلها ومحاولة فحص أدلتها.

(٥) ثبوت العصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام من خلال الأدلة العقلية والنقلية وآراء كبار علماء الكلام في قبال ضعف رأي القائلين بالعصمة الجزئية الأمر الذي دعا توجيه معاني الآيات الواردة الذكر بذلك.

(٦) تنزيه الأنبياء عليهم السلام ونفي إمكان صدور أي لون من ألوان الذنب منهم صغيراً كان أو كبيراً قبل النبوة أو بعدها وهذا ما أثبتته الدراسة خلاف لما رآه المخطئة من أنَّ اللوم والعتاب سببهما وقوع الذنب والمعصية منهم.

وأخيراً فإنّا نرجو أنَّ نكون قد وفقنا في إعطاء الموضوع حقّه من الدراسة التي جلوت ما خفي منه وقدمت أشياء جديدة تسهم في بلورة تصور وفهم المفسرين وعلماء الكلام للآيات الواردة بشأن الأنبياء ومسيرتهم في الهداية على وفق طريق الحق والعدل.

والله الموفق والهادي إلى سبيل الحق عليه توكلنا أوّلاً وأخيراً وإليه نُنيب.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. إبراهيم الحجازي (ت ١٣٧٧ هـ. ش) آيات العقائد تحقيق رامين الكمكاني، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد ط ١، ١٤٢٤ هـ.

٣. ابن أبي الحديد، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦ هـ) شرح النهج، تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، العراق - بغداد ط ١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

٤. ابن الاثير العلامة عز الدين بن الحسن علي بن إبراهيم بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ)، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت - لبنان ط ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.

٥. ابن القطّاع (ت ٥١٥ هـ)، الافعال، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤٢٤ هـ.

٦. ابن المغازلي (ت ٤٨٣ هـ) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، انتشارات سبط النبي، إيران - قم، ط ١، ١٤٢٦ هـ.

٧. ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق خليل الميس، دار الفكر، بيروت - لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٨. ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط٢، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥م.

٩. ابن عطية الاندلسي (ت ٥٤٦ هـ) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي مُحَمَّد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

١٠. ابن منظور جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ)، لسان العرب، دار

صادر بيروت – لبنان، ١٩٨٦ م.

١١. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت ١٩٨٦.

١٢. أبو الحسن أحمد بن فارس زكريا (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١٤٠٤ هـ.

١٣. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨ هـ) أسباب النزول مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

١٤. أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن حبيب الماوردي البصري (ت ٤٥٠ هـ)، النكت والعيون، تحقيق عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ١ (د.ت).

١٥. أبو الصلاح الحلبي، تقريب المعارف، تحقيق فارس تبريزيان الحسون انتشارات، المحقق، ١٤١٧ هـ - ١٣٧٥ ش.

١٦. أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) تفسير ابن كثير تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار المعرفة بيروت – لبنان ط ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

١٧. أبو الفضل شهاب الدين محمود البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، منشورات دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط٤، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

١٨. أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٥ هـ) تفسير القشيري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ١، ١٢٤٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

١٩. أبو القاسم فرات بن إبراهيم الكوي (ت ٣٥٢ هـ) تفسير فرات الكوفي، تحقيق مُحَمَّد كاظم المحمودي، إيران – طهران، ط١، ١٤١٠ هـ.

٢٠. أبو القاسم مُحَمَّد بن أحمد الكلبي (ت ٤٧١ هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق مُحَمَّد سالم هاشم ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٢١. أبو بكر جابر الجزائري أيسر التفاسير، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٢. أبو بكر مُحَمَّد بن إسحاق الكلاباذي (ت ٣٨٠ هـ) التعرّف لمذهب التصّوف تحقيق أحمد شمس الدين طه، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣.

٢٣. أبو جعفر مُحَمَّد بن الحسن بن بابويه القمي الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، الأمالي نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ط٥، ١٤٠٠ هـ.

٢٤. أبو جعفر مُحَمَّد بن الحسن بن فروّخ الصفّار (٢٩٠٢ هـ)، تعليق ميرزا محسن التبريزي، منشورات مكتبة المرعشي النجفي قم - إيران، ط ١، ١٤٠٤ هـ.

٢٥. أبو حامد بن مُحَمَّد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، المنخول في علم الاصول، تحقيق مُحَمَّد حسين هيتو، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

٢٦. أبو حنيفه النعمان (ت ٣٦٢ هـ) المناقب والمثالب، تحقيق ماجد أحمد العطيه، منشورات الأعلمي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

٢٧. أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي (ت ٦٧٦ هـ) شرح صحيح مسلم دار الفكر، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

٢٨. ابو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٠٧ هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار أحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، تصحيح هاشم سمير النجاري، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

٢٩. أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٣٠. أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٩٧١.

٣١. أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٤)، تفسير البغوي أو معالم التنزيل، دار الكتب العلمية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

٣٢. أبو منصور مُحَمَّد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠ هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق، عبد السلام هارون.

٣٣. ابو هلال العسكري (ت ٢٠٠ هـ) الفروق اللغوية، تعليق مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط ٢، ٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ هـ.

٣٤. الاحقاقي ميرزا عبد الرسول الحائري بحث حول الولاية من وحي القرآن، تحقيق علي العبسي العاملي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٣٥. أحمد بن سليمان بن مُحَمَّد المطهر بن علي بن الإمام الناصر، حقائق المعرفة في علم الكلام مؤسسة الإمام زيد بن علي ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، صنعاء - اليمن.

٣٦. أحمد بن علي القلقشدي (ت ٨٢١ هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق د. يوسف علي، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٧ م.

٣٧. أحمد زيني دحلان (ت ١٣٠٤ هـ) السيرة النبوية (سيرة ابن دحلان) دار أحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٣٨. **أحمد صبحي، في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٧ م.**

٣٩. **إسماعيل بن أحمد النيسابوري (ت ٤٢١ هـ) وجوه القرآن تحقيق د. نجف عوش، مطبعة الاستانة الرضوية، مشهد – ١٤٢٢ هـ.**

٤٠. **إسماعيل حقي البروسوي (ت ١١٣٧ هـ) روح البيان، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط ٧، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.**

٤١. **الإمام أحمد بن حنبل (ت ٣٤١ هـ) مسند أحمد، دار صادر، بيروت – لبنان (ب. ت. ط).**

٤٢. **الإمام محي الدين ابن فيض السيد مُحَمَّد مرتضى، تاج العروس، تحقيق علي شيري، دار الفكر بيروت، ١٩٩٤ م – ١٤١٤ هـ.**

٤٣. **الأمير أبي الحسين درّام بن ابي فراس المالكي الأشتري (٦٠٥ هـ)، دار التعارف بيروت – لبنان.**

٤٤. **انعام نوال، المجمع المفصل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦.**

٤٥. **البحراني هاشم الحسيني (ت ١١٠٧ هـ)، البرهان في تفسير القرآن، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.**

٤٦. **البخاري، أبي عبد الله إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) صحيح البخاري دار أحياء التراث العربي بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.**

٤٧. **بطرس البستاني، رسالة التوابع والزوابع، بيروت – لبنان ١٩٦٠ هـ.**

٤٨. **البغدادي،عبد القاهر بن طاهر، أصول الدين مدرسة الإلهيات دار الفنون التركيّة، استنبول ط ١، ١٩٨٢ م.**

٤٩. **البيضاوي، ناصر الدين ابي سعيد بن عبد الله بن عمر بن مُحَمَّد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٢ هـ) تفسير البيضاوي، الأعلمي، بيروت – لبنان ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.**

٥٠. **البيهقي الحافظ ابي بكر بن أحمد بن الحسن بن علي (ت ٤٥٨ هـ) السنن الكبرى، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت – لبنان (د. ت).**

٥١. **الترمذي أبو عيسى مُحَمَّد بن عيسى بن سور (ت ٢٧٩ هـ)، الجامع الصحيح نشر دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٧٩ م.**

٥٢. **جعفر السبحاني، مفاهيم القرآن، مؤسسة الشهيد العلمية، قم – إيران ١٤٠٧هـ.ق.**

٥٣. **جلال الدين السيوطي الشافعي (ت ٩١١ هـ)، الاتقان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت – لبنان ١٤٢٦ – ٢٠٠٥.**

٥٤. **جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) الجامع الصغير، دار الفكر بيروت – ط ١، ١٩٨١م.**

٥٥. **الجوهري إسماعيل بن حماد الجوهري، (ت ٣٩٨ هـ) الصحاح – تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار.**

٥٦. **حجازي خسرو شاهي، درر الأخبار، انتشارات التاريخ والمعارف الإسلامية، قم ط١، ١٤١٩ هـ.**

٥٧. **حسن الصدر، التفسير النافع، دار الكتب العلمية، العراق – بغداد ط ١، (د. ت).**

٥٨. **الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، دار أحياء التراث العربي، بيروت.**

٥٩. **خليل قدسي مهر، الفروق المهمة في الأصول الفقهية، نشر دار التفسير، إيران – قم ط ٢، ١٤١٩ هـ. ق – ١٣٧٧ ش.**

٦٠. **خليل ياسين، أضواء على متشابهات القرآن، انتشارات ذوي القربى، إيران – قم، ط١، ١٤٢٨ هـ.**

٦١. **الخياط المعتزلي، أبو الحسن عبد الرحيم، الانتصار، تحقيق د. نيبرج، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ١٩٢٥ م.**

٦٢. **الدكتور ستار جبر الأعرجي، منهج المتكلمين في فهم النص القرآني، رسالة دكتوراه، جامعة الكوفة ٢٠٠٠ م.**

٦٣. **الدكتور مُحَمَّد حسين الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، بيروت – لبنان (د. ت).**

٦٤. **ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت – لبنان.**

٦٥. **الذهبي، شمس الدين (ت ٤٧٨ هـ) سير أعلام النبلاء، انتشارات مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.**

٦٦. **الرازي، فخر الدين مُحَمَّد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (ت ٦٠٦ هـ)، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط٢، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.**

٦٧. **الرازي، مُحَمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي البكري فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، عصمة الأنبياء، منشورات كتبي النجفي، قم المقدسة (د. ت).**

٦٨. **الراغب الاصفهاني (ت ٤٢٥ هـ)، مفردات ألفاظ القرآن تحقيق صفوان داودي، دار القلم، دمشق (د. ت).**

٦٩. الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، الكشاف، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١م.

٧٠. الزهري، مُحَمَّد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠ هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق، رياض عبد الله عبد الهادي دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٧١. السبزواري الخطيّ (ت ١٤١٠ هـ) التفسير الجديد، دار التعارف للمطبوعات بيروت – لبنان، ط١.

٧٢. السلطان مُحَمَّد الجنابذي الملقب بسلطان علي شاه (ت ١٣٢٧ هـ) بيان السعادة في مقامات العبادة، انتشارات مطبعة جامعة طهران، ط٢ / ١٣٤٤ ش – ١٣٨٥ ق.

٧٣. سليم بن قيس الهلالي كتاب سليم بن قيس، تحقيق مُحَمَّد باقر الأنصاري، مطبعة نكارش، ط ٢، قم ١٤٢٤ هـ.

٧٤. سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت ١٢٩٤) ينابيع المودة، انتشارات الشريف الرضي قم.

٧٥. السيد عبد الله شبر (ت ١٢٤٢ هـ) تفسير القرآن الكريم، دار أحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م.

٧٦. السيد عبد الله شبر، الجوهر الثمين، مكتبة الألفين، ط١، الكويت.

٧٧. سيد قطب في ظلال القرآن دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط ٧، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١ م.

٧٨. السيد هاشم الحسيني البحراني (ت ١١٠٧ هـ) البرهان في تفسير القرآن، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

٧٩. شرح أصول الكافي والروضة تعليق علي أكبر الغفاري، منشورات المكتبة الإسلامية، طهران – إيران ١٣٨٤ هـ.

٨٠. الشريف الرضي، علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت ٤٣٦ هـ)، تنزيه الأنبياء، انتشارات الشريف الرضي، إيران، قم ط ١، ١٣٧٦ هـ. ش.

٨١. الشريف المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦ هـ)، الذخيرة في علم الكلام مؤسسة النشر الإسلامية ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

٨٢. الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت ٤٤٣٦ هـ)، أمالي المرتضى، تحقيق مُحَمَّد ابو الفضل إبراهيم، انتشارات ذوي القربى، إيران – قم، ط١، ١٣٨٤ هـ.ش.

٨٣. الشريف علي بن مُحَمَّد الجرجاني (ت ٨١٦ هـ)، شرح المواقف، مطبعة السعادة مصر ط ١،

١٣٢٥ هـ ١٩٧٠ م.

٨٤. شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربّه الاندلسي، العقد الفريد، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٦.

٨٥. الشوكاني، مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد (ت ١٢٥٠هـ)، فتح القدير، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

٨٦. الشيخ أحمد بن زيد الدين الإحسائي العصمة، منشورات مكتبة العلامة الحائري، كربلاء ط٢، ١٣٩٠ هـ.

٨٧. الشيخ الطريحي (ت١٠٨٥ هـ) مجمع البحرين تحقيق أحمد الحسيني مكتب نشر الثقافة الإسلامية ط٢، ١٤٠٨ هـ - ١٣٦٧ ش.

٨٨. الشيخ عبد علي بن جمعه العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ) نور الثقلين، المطبعة العلمية، قم ط ٢

٨٩. الشيخ علي النمازي الشاهرودي (ت ١٤٠٥ هـ) مستدرك سفينة البحار، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ط ١٤١٩ هـ.

٩٠. الشيخ مُحَمَّد بن مُحَمَّد رضا الهندي، كنز الدقائق، مؤسسة الطباعة والنشر، طهران ط١.

٩١. الشيخ مُحَمَّد رضا المظفر، عقائد الإمامية، مؤسسة انصاريان، ط ٦، إيران – قم ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٩٢. صبحي الصالح، نهج البلاغة، انتشارات أنوار الهدى، إيران – قم، ط ٢، ١٤٢٤ هـ.

٩٣. صدر المتألهين مُحَمَّد بن إبراهيم الشيرازي (ت ١٠٥٠ هـ) تفسير القرآن الكريم، دار التعارف، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤١٩ هـ - ١٩٨٨ م.

٩٤. الصدوق، أبي جعفر مُحَمَّد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ) معاني الأخبار، تحقيق علي أكبر غفاري، انتشارات إسلامي، ط ١٣٦١ ش.

٩٥. الصدوق، أبي جعفر مُحَمَّد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ) الأمالي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ط ٥، ١٤٠٠ هـ.

٩٦. الصدوق مُحَمَّد بن علي بن بابويه (ت ٣٨١ هـ) الاعتقادات في دين الامامية تحقيق، عصام مُحَمَّد حسين، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

٩٧. الصدوق، أبي جعفر الصدوق مُحَمَّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، (ت ٣٨١ هـ) عيون

اخبار الرضا عليه السلام، منشورات الشريف الرضي، قم ط١، ١٣٧٨ش، ق.

٩٨. الصدوق، أبي جعفر مُحَمَّد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ)، من لا يحضره الفقيه، انتشارات الإمام المهدي، إيران – قم.

٩٩. الطباطبائي، مُحَمَّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط٢، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م.

١٠٠. الطبرسي أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) مجمع البيان، تحقيق هاشم رسول المحلاتي، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان،ط ١، ١٩٩٢ م.

١٠١. الطبرسي أبي علي الفضل بن الحسن (ت ٤٩ هـ)، جوامع الجامع، تحقيق مؤسسة دار النشر الإسلامي، قم ط٣، ١٤٢٠ هـ.

١٠٢. الطبري، ابن جرير (ت ٣١٠ هـ) جامع البيان عن تأويل القرآن (د.ت)، تحقيق خليل الميسر، دار الفكر، بيروت – لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١٠٣. الطبري أبي جعفر مُحَمَّد بن منصور (ت ٣١٠ هـ) تاريخ الأمم والملوك، الأعلمي، بيروت – لبنان (د. ت).

١٠٤. الطوسي أبو جعفر مُحَمَّد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ) الاستبصار، دار الكتب الإسلامية ط١٣٩٠ هـ.

١٠٥. الطوسي أبو جعفر مُحَمَّد بن الحسن، التهذيب، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط١٣٦٤ ش.

١٠٦. الطوسي، أبو جعفر مُحَمَّد الحسن (ت ٤٦٠ هـ) التبيان، تحقيق أحمد حسن قصر العاملي، مكتب الأعلام الإسلامي قم ط ١، ١٤٠٩ هـ.

١٠٧. عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن، منشورات أهل البيت عليهم السلام، بيروت – لبنان، ط ٢، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

١٠٨. عبد الحسين شرف الدين الموسوي، أجوبة مسائل جار الله، منشورات دار النعمان ط٣، النجف الأشرف.

١٠٩. عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني، الألفاظ الكتابية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٤٠٠ هـ - ١٨٩٠ م.

١١٠. عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي (ت ٨٧٥ هـ) تفسير الثعالبي تحقيق الشيخ علي مُحَمَّد معوض، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

١١١. عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١ هـ) تفسير القرآن الكريم، تحقيق، محمود مُحَمَّد عبده دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

١١٢. عبد القاهر الجرجاني دلائل الأعجاز، دار المعرفة، بيروت – لبنان، قم إيران ١٤٠٤ هـ - ١٩٧٨ م.

١١٣. عبد الله بن قدامه (ت ٦٢٠ هـ)، المغني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١١٤. عبد الواحد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٩٧ م.

١١٥. عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الايجي (ت ٦٥٦ هـ) المواقف، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١١٦. علاء الدين البغدادي الخازن (ت ٧٢٥ هـ) تفسير الخازن (لباب التأويل) دار الفكر، بيروت- لبنان (د.ت).

١١٧. العلامة الحلي ابي منصور الحسن بن يوسف المطهر (ت ٧٢٦ هـ)، مناهج اليقين، تحقيق يوسف الجعفري، انتشارات دار الأسوة ط١، ١٤١٥ هـ.

١١٨. العلامة الحلي جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي المطهّر العلامة الحلي (ت ٧٢٦ هـ) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تعليق إبراهيم الموسوي الزنجاني منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٢ م.

١١٩. العلامة الشيخ أحمد بن مُحَمَّد الصاوي المصري المالكي، حاشية الصاوي تحقيق مُحَمَّد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط ٤، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

١٢٠. العلامة الشيخ زين الدين أبي مُحَمَّد علي بن يونس العاملي النياطي (ت ٨٧٧ هـ)، الصراط المستقيم، تحقيق مُحَمَّد الباقر العبودي، المكتبة المركزية لأحياء الآثار الجعفرية ط ١، ١٣٨٤ هـ. ش.

١٢١. العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان (د. ت).

١٢٢. العلامة، مُحَمَّد باقر المجلسي، (ت ١١١١ هـ) بحار الأنوار، دار الكتب الإسلامية، بيروت – لبنان.

١٢٣. علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، المحلّى، دار الآفاق الجديدة،تحقيق لجنة إحياء

التراث العربي.

١٢٤. علي بن برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤ هـ) السيرة الحلبية، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط ١.

١٢٥. عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، مختصر تفسير ابن كثير تحقيق مُحَمَّد علي الصابوني، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط١.

١٢٦. العياشي أبو النظر مُحَمَّد بن مسعود ابن عباس السلمي السمر قندي المعروف بالعياشي (ت ٩٣٢) تفسير العياشي، الأعلمي، بيروت – لبنان ط ١، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.

١٢٧. عيدوس بن أحمد السقاف العلوي الاندلسي المعروف بـ (ابن درويش)، شواهد التنزيل، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم، ط ١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

١٢٨. الفاضل المقداد، شرح الباب الحادي عشر، تحقيق محسن الصدر الرضواني مطبعة سلمان الفارسي ط١، ١٤١٢ هـ - ١٣٧٠.

١٢٩. الفراء (ت ٢٠٤ هـ) معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف بخاتي، دار الكتب القاهرة ١٩٩٥.

١٣٠. الفيروز آبادي: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

١٣١. القاضي أبي السعود مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى العمادي الخيفي (ت ٩٨٢ هـ) تفسير أبي السعود أو أرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط ١٢، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

١٣٢. القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني (ت ٤١٥ هـ)، شرح الأصول الخمسة تحقيق د. عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة ط ١، ١٩٦٥ م (د. ت).

١٣٣. القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني (ت ٤١٥) متشابه القرآن، تحقيق عدنان مُحَمَّد زرزور، دار التراث، القاهرة.

١٣٤. القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، المغني تحقيق د. محمود مُحَمَّد قاسم.

١٣٥. القرطبي أبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٠٧ هـ) الجامع لأحكام القرآن تحقيق هاشم سمير النجار، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

١٣٦. قطب الدين النيسابوري التعليق في علم الكلام تحقيق د. محمود يزدي مطلق،قسم الدراسات الفلسفية والكلامية للجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية،إيران – مشهد، ط ١، ١٤٢٧ ق –

١٣٨٥٠ش.

١٣٧. القمي، علي ابن ابراهيم ابن هاشم (ت ٣٠٧ هـ)، تفسير القمي، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم ٣.

١٣٨. الكليني، ثقة الإسلام أبي جعفر مُحَمَّد بن يعقوب بن إسحاق (ت ٣٢٩ هـ) الكافي، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران ط٣، ١٣٨٨ ش.

١٣٩. مُحَمَّد باقر الصدر، تنوع أدوار ووحدة هدف.

١٤٠. مُحَمَّد باقر المجلسي، مرآة العقول، دار الكتب الإسلامية، إيران ط ٢، ١٤٠٤ هـ.

١٤١. مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٧٢١ هـ) مختار الصحاح، دار أحياء التراث العربي، تدقيق مُحَمَّد علاق ط١، ١٤١٩، ١٩٩٩ م.

١٤٢. مُحَمَّد بن الحسن الشيباني، نهج البيان عن كشف معاني القرآن، مؤسسة دار المعارف الإسلامية، طهران، ط١، ١٤١٣ هـ.

١٤٣. مُحَمَّد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، دار الاضواء، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

١٤٤. مُحَمَّد بن جزي الغرناطي (ت ٧٤١ هـ) التسهيل، تحقيق د. عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت – لبنان (د.ت).

١٤٥. مُحَمَّد بن عمر الجاوي تفسير مراح لبيد لكشف حصن القرآن المجيد، تحقيق مُحَمَّد أمين العتاوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

١٤٦. مُحَمَّد بن عمر الواقدي (ت ٢١٢ هـ) المغازي، دار المعرفة الإسلامية ط ١٤٠٥ هـ.

١٤٧. مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ)، أوائل المقالات.

١٤٨. مُحَمَّد جمال الدين القاسمي (ت ١٣٢٢ هـ) محاسن التأويل، تحقيق مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

١٤٩. مُحَمَّد جواد مغنية، التفسير الكاشف، دار الكتاب الإسلامي، ط ١، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

١٥٠. مُحَمَّد رشيد رضا، تفسير المنار، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط ٢، (د. ت).

١٥١. مُحَمَّد علي الصابوني صفوة التفاسير، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م.

١٥٢. محي الدين مُحَمَّد بن عمر الخطيب الرازي (ت ٦٦٠ هـ)، معالم أصول الدين، تحقيق طه عبد الرزاق، دار الكتب العربية، بيروت – لبنان ط ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

١٥٣. المراغي أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان (ب. د).

١٥٤. مصنفات الشيخ المفيد، النكت الاعتقادية، ط المؤتمر العالمي (د. ت).

١٥٥. معاني الأخبار، تحقيق علي أكبر غفاري، انتشارات إسلامي ١٣٦١ هـ.

١٥٦. مفلح بن الحسن بن راشد ابن صلاح البحراني، من أعلام القرن التاسع، إلزام النواصب تحقيق، عبد الرضا النجفي ط ١ ١٤٢٠ هـ.

١٥٧. المقريزي (ت ٤٨٥ هـ) امتاع الاسماع، تحقيق مُحَمَّد عبد الحميد الميس، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

١٥٨. مكي برهان الدين الحلبي الشافعي (ت ١٠٤٤ هـ) السيرة الحلبية، دار احياء التراث العربي، بيروت – لبنان (د. ت).

١٥٩. مناهج اليقين، تحقيق يوسف الجعفري، انتشارات دار الاسوةط١، ١٤١٥ هـ.

١٦٠. المولى فتح الله بن شكر الشريف الكاشاني (ت ٩٩٨ هـ)، زبدة التفاسير نشر مدرسة المعارف الإسلامية ط١، ١٤٣٣ هـ.

١٦١. المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ) تفسير الصافي، دار المرتضى للنشر، مشهد ط١.

١٦٢. المولى نور الدين مُحَمَّد بن المرتضى الكاشاني (ت ١١١٥ هـ) المعين انتشارات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ط ١، قم.

١٦٣. مير سيد علي الحائري الطهراني، (ت ١٣٤٠ هـ) مقتنيات الدرر دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٣٧ ش. هـ

١٦٤. الميرزا حسين النوري الطبرسي، ١٧: ٢٦٥، المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

١٦٥. الميرزا مُحَمَّد المشهدي بن مُحَمَّد رمضان بن إسماعيل بن جمال الدين القمي (ت ١١٢٥ هـ) كنز الدقائق، مؤسسة الطباعة والنشر، إيران – قم، ط١، ١٣٦٦ هـ. ش.

١٦٦. ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير القرآن الكريم، دار الأمير للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ط ١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

١٦٧. النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٢ هـ)، سنن النسائي، دار أحياء

التراث العربي، بيروت – لبنان.

١٦٨. نصر الدين مُحَمَّد بن أحمد أبو الليث السمر قندي، من أعلام القرن الرابع الهجري، بحر الغرائب، تح. د. محمود مطربي ط ١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

١٦٩. نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢ هـ)، وقعت صفين، تحقيق عبد السلام مُحَمَّد هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطباعة والتوزيع، مصر – القاهرة، ط ٢، ١٣٨٢ هـ.

١٧٠. نظام الدين الحسن بن الحسين القمي النيسابوري (ت ٧٢٨ هـ) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

١٧١. نور الله الحسيني المرعشي التستري (ت ١٠١٩ هـ) تحقيق شهاب الدين النجفي المرعشي منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، إيران – قم (ب ت ط).

١٧٢. النيسابوري، مُحَمَّد بن عبد الله الحاكم (٤٠٥ هـ) مستدرك الحاكم – دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٧٣. هاشميات الكميت، تحقيق داود سلوم.

١٧٤. الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ) مجمع الزوائد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (د. ت).

المحتويات

الفَصْلُ الأَوَّلُ
دلالات العتاب في اللغة والاستعمال القرآني والتراث الإسلامي

الفَصْلُ الثَّانِي
نماذج من آيات العتاب في القرآن الكريم

الفصل الثالث

عصمة الأنبياء عليهم السلام وإمكانية العتاب مع استلزامه المخالفة